

# تكوين ملفك

نصير في

خطوات عملية



أ.د. عبد الكريم بكار

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



تَكُونُ الْمَفَكْرَةُ  
خُطَوَاتُ عَمَلِيَّةٍ

منتدى مجلة الإبتسامة  
[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)  
مايا شوقي

# كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة

لِلنَّاشِرِ

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

لصاحبها

عبد لفاد محمود البكار

الطبعة الثانية

والأولى لدار السلام

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار  
الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

بكار ، عبد الكريم .

تكوين المفكر : خطوات عملية / تأليف : عبد الكريم

بكار . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة

والنشر والتوزيع والترجمة ، [ ٢٠١٠ م ] .

٢٢٤ ص ؛ ٢٤ سم .

تدمك ٨ ٨٧٧ ٣٤٢ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - التفكير .

٢ - طرق البحث

أ - العنوان .

١٥٣،٤٢

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية

الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي مواز لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران

عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر

هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢+) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)

المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢+)

المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع

مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢+)

المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين

هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)

بريدياً : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة  
من ٢٠٠٠

تأسست الدار عام ٢٠٧٣م وحصلت  
على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة  
أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ،  
٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجا لعقد  
ثالث مضى في صناعة النشر

# تكملة المفكر

## خطوات عملية

تأليف  
أ. د. عبد الكريم بخار

دار السبيل  
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## فَهْرِسُ الْمَوْضُوعَاتِ



١٣	..... المَقْدَمَة
١٧	..... من هو المفكر؟
١٧	..... ١ - المتخصص
١٧	..... ٢ - العالم
١٨	..... ٣ - المصلح
١٨	..... ٤ - الداعية
١٨	..... ٥ - المثقف
١٩	..... ٦ - الفيلسوف
٢٠	..... ٧ - المفكر
٢٣	..... من صفات المفكر
٢٣	..... ١ - حبُّ للمعرفة واحتفال بالجديد
٢٤	..... ٢ - كل مفكر نسيج وحده
٢٥	..... ٣ - الشعور بالمسؤولية
٢٦	..... ٤ - استقلالية المفكر
٢٦	..... أ - قيد المحيط
٢٦	..... ب - قيد الانتماء
٢٧	..... ج - قيد الذاكرة
٢٩	..... ٥ - من الجزئي إلى الكلي
٣١	..... ٦ - المفكر والمفكر المسلم



العقل والدماغ	٣٣
الدماغ	٣٣
العقل وعلاقته بالدماغ	٣٤
العقل عقلا	٣٦
الحقيقة أولاً	٣٩
١ - ما الحقيقة؟	٣٩
٢ - العقل محدود بمحدودية الحواس	٤٠
٣ - القرآن الكريم يبيّن إنسان الحقيقة	٤١
٤ - الحقيقة تحررنا	٤٢
٥ - قواعد لتشيد مجتمع الحقيقة:	٤٣
أ - غموض الواقع الاجتماعي	٤٣
ب - حقائق تستعصي على الكشف	٤٣
ج - إمكانية رؤية الحقيقة بطرق مختلفة	٤٤
٦ - تعامل المفكر مع الحقيقة	٤٥
ما التفكير؟	٤٧
١ - التفكير انتقال من حال إلى حال	٤٧
٢ - التفكير استقصاء للخبرة	٤٨
٣ - التفكير بناء للنماذج	٤٨
٤ - التفكير فن طرح الأسئلة	٥٠
٥ - التفكير من أجل تخطي الحلول القائمة	٥١
٦ - التفكير والعواطف:	٥٢
أ - العواطف مكنن الجوهر الإنساني	٥٣
ب - تأثير الأفكار في المشاعر هائل	٥٣
ج - تأثير المشاعر في الأفكار	٥٥

- ٥٦ ..... د - الارتباط بين جمود المشاعر وجمود العقل
- ٥٧ ..... ٧ - التفكير واللغة:
- ٥٧ ..... ١ - اللغة مرآة العقل والقلب
- ٥٨ ..... ٢ - اللغة وسيلة لتخزين الأفكار
- ٥٨ ..... ٣ - اللغة أداة لصناعة الأفكار
- ٥٩ ..... أ - الاهتمام بالحصيلة اللغوية
- ٥٩ ..... ب - تنمية العربية من مسؤولية المفكر
- ٥٩ ..... ج - اللغة ترسم حدود عمل العقل
- ٥٩ ..... د - اللغة أسلوب لرؤية الحياة
- ٦٠ ..... هـ - كيف نثري معرفتنا باللغة؟
- ٦٠ ..... ٨ - التفكير والعقل الجمعي:
- ٦١ ..... ١ - معظم الناس لدينا مبرمجون من قبل العقل الجمعي
- ٦١ ..... ٢ - العقل الجمعي يميل إلى السطحية
- ٦٢ ..... ٣ - العقل الجمعي والميل إلى الاستحواذ على عقل الفرد
- ٦٢ ..... أمثلة على توجهات العقل الجمعي لدينا:
- ٦٢ ..... أ - العرب يخضعون لمؤامرة كبرى
- ٦٢ ..... ب - غير المسلمين يد واحدة على المسلمين
- ٦٣ ..... ج - تقديس العمل الجماعي
- ٦٣ ..... د - النجاح مرادف للذكاء
- ٦٣ ..... ما العمل تجاه هذا؟
- ٦٤ ..... ١ - محاولة التمايز عن العقل الجمعي
- ٦٤ ..... ٢ - الخروج من صندوق البيئة
- ٦٥ ..... ٣ - النظرة الصحيحة للوحي



٦٧	تنمية الإبداع .....
٦٨	- التغلب على المعوقات أولاً: .....
٦٩	١ - ضعف الثقة بالنفس .....
٧٠	٢ - الإسراع في تقبل الأفكار .....
٧١	٣ - التبعية للآخرين .....
٧١	٤ - ضالة المحصول المعرفي .....
٧٢	طريق الإبداع .....
٧٢	١ - وجود الدافع .....
٧٣	٢ - التركيز والاهتمام .....
٧٣	٣ - المجال الرحب .....
٧٥	٤ - تعامل خاص مع المعرفة .....
٧٧	التفكير النقدي .....
٧٧	أهمية الممارسة النقدية: .....
٧٨	١ - الرؤية النقدية للمجتمع، هي محك التفرقة بين المفكر والعالم .....
٧٨	٢ - انفصال وعي الناقد عن وعي مجتمعه .....
٧٩	٣ - أهمية الرؤية المستقبلية .....
٨٠	٤ - دور النقد في ترشيد المسيرة الاجتماعية .....
٨٠	كيف نؤسس للعقلية النقدية؟ .....
٨١	١ - الشعور بالمسؤولية .....
٨١	٢ - رؤية ما هو خارج المؤلف .....
٨٢	٣ - فن التساؤل .....
٨٦	٤ - السعي إلى الوضوح .....
٨٨	عقبات أمام الممارسة النقدية .....
٨٨	١ - المحيط الثقافي .....

٨٩	٢ - الخوف من المنتقدين
٩١	٣ - القصور الذاتي للناقد
٩٢	كيف نفهم الواقع
٩٢	- بداية الفهم
٩٣	- الخريطة الإدراكية
٩٤	- أمثلة على الخريطة الإدراكية
٩٦	- الواقع طبقات
٩٨	مفاهيم تساعد على مقارنة الواقع:
٩٩	١ - الواقع ليس انعكاسًا للقيم
١٠٠	٢ - التغير سمة كل واقع
١٠١	٣ - من ظروفهم تعرفونهم:
١٠١	أ - تأثير المكان في المشاعر والعلاقات
١٠٣	ب - تأثير الغنى والفقر
١٠٧	٤ - الامتثال للنظم والقوانين
١٠٩	٥ - العيش على هامش الحياة مصدر للتحلل الذاتي:
١٠٩	أ - الدول الصناعية الكبرى تشكل عقل العصر
١١٠	ب - محاور بارزة تدفع عجلة التقدم
١١٠	ج - كيف يكون التهميش للأفراد؟
١١١	د - كيف يكون التهميش للشعوب؟
١١٢	٦ - طابع الحياة الحضارية أثري
١١٢	مظاهر الطابع الأثري
١١٤	٧ - تعايش النظم المتباينة:
١١٦	الحكم على الواقع
١١٦	١ - الحكم على الواقع اجتهادي



- ٢ - رؤيتنا للواقع تعتمد على المعلومات ..... ١١٧
- ٣ - لكل حكم اعتباراته ..... ١١٧
- ٤ - وقع الأحداث على الناس متفاوت ..... ١١٨
- ٥ - لا ارتباط بين الحكم بالخطأ وتوجيه اللوم ..... ١١٩
- ٦ - في وجه التعميم ..... ١١٩
- تعانق المطلق والنسبي ..... ١٢١
- ما المطلق؟ وما النسبي؟ ..... ١٢١
- النسبي مدخل لتحسين الرؤية ..... ١٢٣
- ١ - الكليات مكنن المطلق: ..... ١٢٣
- أ - ليس هناك من لا يؤذيه التقدم في السن ..... ١٢٤
- ب - معظم القيم مشترك بين الأمم ..... ١٢٤
- ٢ - الحرمان من الضروريات يدمر الاهتمامات العليا ..... ١٢٥
- ٣ - الكم لا يكون إلا على حساب الكيف ..... ١٢٦
- ما النسبي في معادلة الكم والكيف؟ ..... ١٢٨
- ٤ - التفكير النسبي مدخل لتحسين الوعي ..... ١٢٩
- أ - ترسيخ المنهج الاحتمالي ..... ١٢٩
- ب - فهم جذور ما لدى الآخرين ..... ١٢٩
- ج - الميل إلى التفصيل ..... ١٣١
- ٥ - النسبية تسهل تجاوز القيم ..... ١٣٥
- ٦ - المطلق أساس في تفسير الماضي ..... ١٣٦
- أ - لماذا حدثت الردة؟ ..... ١٣٦
- ب - الجهل مصدر شرور ..... ١٣٧
- ج - تاريخنا صراع بين المبادئ والظروف الصعبة: ..... ١٤٠
- الصعید الاجتماعي ..... ١٤٠

- ١٤٢ ..... - الصعيد السياسي
- ١٤٧ ..... المعرفة وقود العقل
- ١٤٧ ..... ١ - التزود المستمر بالمعرفة
- ١٤٨ ..... ٢ - العمل في البحث العلمي يستقطب المزيد من المهتمين والموظفين
- ١٥٠ ..... ٣ - اللقاء بأهل العلم
- ١٥١ ..... ٤ - التخصص والتركيز
- ١٥٢ ..... ٥ - فهم تاريخ الأفكار والقضايا
- ١٥٤ ..... ٦ - فهم مدلولات التقدم التقني
- ١٥٥ ..... ٧ - التفريق بين المعلومات والتحليل الشخصي
- ١٥٦ ..... ٨ - التفكير عند شح المعلومات
- ١٥٩ ..... أمور تستحق الحذر
- ١٥٩ ..... ١ - الجزم حيث ينبغي التوقف
- ١٦١ ..... ٢ - المجاملة على حساب الحقيقة
- ١٦٢ ..... ٣ - تحجيم الخيارات:
- ١٦٢ ..... أ - المال عصب الحياة
- ١٦٣ ..... ب - الوحدة الإسلامية
- ١٦٤ ..... ٤ - سطوة الانتشار
- ١٦٥ ..... أ - الانتشار يشجع الانتشار
- ١٦٥ ..... ب - تأثير الهالة
- ١٦٦ ..... ج - سطوة الانتشار
- ١٦٧ ..... ٥ - ثقافة التحيز
- ١٦٧ ..... أ - المقصود بالتحيز
- ١٦٨ ..... ب - التفاضل بالتقوى
- ١٦٩ ..... ج - الحذر عن التمييز



١٦٩	د - دور المناضل
١٧١	هـ - مقاومة التحيز
١٧٢	٦ - الانسياق خلف الخرافة
١٧٤	٧ - الرضوخ للطبيعة والعادة
١٧٤	أ - السرعة في التفكير
١٧٥	ب - الكسل الذهني
١٧٥	ج - عدم الاعتراف بالخطأ
١٧٦	د - وهم الاكتفاء المعرفي
١٧٦	هـ - مقاومة الجديد
١٧٦	و - التطرف في التشاؤم والتفاؤل
١٧٧	ز - تبسيط ما هو معقد
١٨١	تطوير الأفكار
١٨٢	١ - وضع الأفكار في نطاق أوسع
١٨٤	٢ - التداعي المنطقي والثقافي
١٨٦	٣ - التدرج في تطوير الأفكار
١٨٧	٤ - وضع الفكرة موضع التنفيذ
١٨٨	٥ - المقارنة بالأفكار والمشروعات الشبيهة
١٩١	٦ - عصف ذهني جيد وواثق
١٩٤	الخاتمة
١٩٦	مراجع مختارة
١٩٨	فهرس الأفكار والمقولات العامة
٢٢٠	السيرة الذاتية للمؤلف

## المُقدِّمة



الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإني لا أخفي أنني ترددت كثيرًا قبل الإقدام على تأليف هذا الكتاب؛ وذلك خشية أن يتوهم متوهم أنه إذا اطلع على كتاب أو كتابين أو عشرة كتب... في تحسين المحاكمة العقلية، وتحسين أسلوب ممارسة التفكير وفي تنمية الحس النقدي... فإنه يصبح مفكرًا، وهذا بالطبع غير صحيح، لما سأذكره بعد، لكن الذي جعلني أتجاوز التردد في الشروع في هذا العمل، هو الاتصالات التي تأتيني من كثير من الشباب الذين يرغبون فيولوج في عالم الفكر والتفكير والمفكرين، وذلك بسبب جاذبية ما تدل عليه هذه الألفاظ في هذه الأيام؛ تلك الجاذبية التي نشأت بسبب ما يراه الناس من تباين بين ما يطرحه المتحدثون والمؤلفون في تخصصاتهم وبين ما يطرحه من يُلقبون بـ (المفكرين) حول القضايا والمشكلات السياسية والاجتماعية والحضارية على نحو عام.

وإذا عدنا إلى الوراء نحوًا من عشرين سنة، فسنجد أن كثيرًا من طلاب العلم لم يكونوا يُظهرون أي قدر من الارتياح والاطمئنان لتحليلات المفكرين ومقارباتهم، ولعل ذلك يعود إلى هشاشة المعرفة الشرعية لدى كثير من أصحاب الطرح الفكري، مما ولّد لدى المتابعين لهم الخوف من الابتعاد عن النصوص والضوابط والآداب الشرعية أثناء التنظير لتوصيف المشكلات المعاصرة وأثناء البحث عن حلول لها.

وأعتقد أن لهذا الحذر ما يسوّغه، لكن الناس أدركوا فيما بعد أن المفكرين يقدّمون للأمة زادًا فكريًا ومعرفيًا مهمًا، قد لا يستطيع غيرهم من أهل الاختصاصات الدقيقة تقديمه، وقد كان هذا الإدراك ثمرة طبيعية لتحسن وعي الناس بالحاجة الماسة إلى الكثير من الرؤى والتحليلات والمقاربات التي تساعد على الارتقاء بنوعية الحياة التي يحيونها، كما تساعد على تجاوز المشكلات التي يرحلون تحت وطأتها، ومن هنا فإن هذا الكتاب هو هدية متواضعة لإخواني طلاب العلم الذين لم تسعفهم دراساتهم

المتخصصة بامتلاك المفاهيم والقواعد الأساسية التي يحتاجون إليها في استيعاب التحديات المعاصرة والتعامل معها. لكن لا بد لي من القول: إن كلمة (مفكر) غامضة الدلالة، وسأبذل جهدًا من أجل توضيحها، لكن مهما كانت درجة الوضوح التي سنصل إليها، فإن مدلولها لن يكون أفضل وضوحًا من كلمة (عالم) أو (مثقف) أو (فيلسوف)، وسنظل نتجادل فيما إذا كان فلان من الناس يستحق أن يُطلق عليه لقب من هذه الألقاب أو لا؟ من هنا فإن عنوان الكتاب يشير بوضوح إلى أنني أحاول أن أسلك مع قرائي الكرام الطريق التي تمضي بنا نحو إعداد المفكر وتكوينه، وهذه الطريق طويلة وطويلة؛ ولهذا فإن هناك من يقطعها على نحو كامل فيصبح فعلاً في عداد الأشخاص الذين لا يختلف الناس في أنهم يترفعون على قمة الفكر والوعي الثقافي في بلادهم أو في أمتهم أو في عصرهم، وهناك من يقطع ربع الطريق أو نصفه... ثم لا يجد من الوقود الروحي ومن الإمكانيات الشخصية ومن الظروف المواتية ما يساعده على الاستمرار، فيتوقف، أو يتراجع.

ليس في الجامعات أي تخصص يمكن أن نقول: إنه يجعل من دارسيه مفكرين صغاراً، حتى الأقسام التي تهتم بالكثير من قضايا الفكر والتأصيل الفكري - مثل قسم أصول الفقه، وقسم الفلسفة، وقسم النقد - لا تفعل هذا؛ وذلك لأن معرفة القواعد والأصول والأفكار مهما كانت ممتازة لا تصنع بالضرورة مفكراً ممتازاً؛ فهناك شروط وحشيات عديدة أخرى تؤثر في هذا الشأن تأثيراً كبيراً، وذلك مثل توفيق الله - تعالى - للعبد، ومثل حدة الذكاء وجودة الاستعداد الطبيعي إلى جانب تلك الموهبة الغامضة التي تجعل من الشخص فناناً مبدعاً؛ بالإضافة إلى تأثير التربية والبيئة والظروف المحيطة... قد يقول قائل منكم: إذن ما مسوغ تأليف هذا الكتاب؟ وما الفائدة من قراءته؟

أقول في الجواب: إن هذا الكتاب يهدف - كما تهدف كل الكتب المشابهة - إلى تحسين المحاكمة العقلية لدى القارئ وتمليكه قدرًا جيدًا من الرؤى والمفاهيم التي تساعد على فهم ذاته وفهم عصره، كما تساعد على امتلاك رؤية نقدية للواقع الذي يعيش فيه ولسبل تطوير ذلك الواقع والارتقاء به، وبعبارة أخرى: إنني أهدف إلى أن أساعد القارئ الكريم على أن يفكر بطريقة أوضح، وقد يكون هذا الكتاب بالنسبة إلى بعض القراء هو الشرارة الصغيرة التي تتحول بفضل عبقريتهم وجهدهم



إلى نور عظيم يضيء كل أرجاء المكان؛ وما ذلك على الله بعزيز.

بقي أن أقول: إنني بذلت كل ما أملك من جهد في سبيل جعل أسلوب الكتاب سهلاً وقريناً حتى ينتفع به أكبر شريحة ممكنة من القراء الأفاضل، لكن بما أنني أعالج موضوعاً معقداً، فلا بد من أن يكون ما أحققه ناقصاً، وأحياناً مخيباً للأمل! إنني قانع بتعبيد طريق ضيق في قلب بحر من الرمال المتحركة، وبإضاءة بعض الزوايا المظلمة، وقانع بإزالة بعض الحجارة من طريق شديد الوعورة، سائلاً المولى ﷻ أن يبارك في ذلك، وينفع به؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أ. ر. عبد الكريم بنّار

الرياض في ٣ من شوال ١٤٣٠ هـ

\* \* \*

منتدى مجلة الإبتسامة  
[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)  
مايا شوقي

## من هو المفكر؟



ما دمنا نتحدث عن تكوين المفكر، فلا بد أن نبدأ بتعريفه أولاً، والحقيقة أن لدينا عددًا من المصطلحات التي نستخدمها في حياتنا الدعوية والعلمية، ونُطلقها على أشخاص يعملون في حقول المعرفة والإصلاح والإبداع، ومن أهم تلك المصطلحات: (العالم)، (المصلح)، (الداعية)، (المتخصص)، (المثقف)، (الفيلسوف)، وأود أن أقول ابتداءً: إن من الصعوبة بمكان وضع فواصل واضحة بين مدلولات هذه الكلمات، وهذا يعود إلى أمرين أساسيين، الأول هو: أن (العقل) ليس مجهزًا بفطرته للتعامل مع (الصفات) بكفاءة، على خلاف تجهيزه للتعامل مع ما هو من قبيل (الكم) و (الرقم)، والثاني: أن كل الألقاب التي ذكرناها تُطلق على أشخاص يعملون في حقل العلم والمعرفة، ويستخدمون الأفكار والمفاهيم والمصطلحات المتعلقة بالحضارة والإصلاح، ويمارسون نوعًا من النقد للواقع؛ ومن ثم فإن تحديد تعريف كل واحد منهم وتحديد أوصافه على نحو دقيق أمر متعذر، وإذا ألحنا عليه فقد ندخل في باب التعسف والقسر، ولعلي أشير إشارات سريعة إلى مفهوم كل لقب من تلك الألقاب قبل أن أفصل القول في مدلول (المفكر):

### ١ - المتخصص:

هو طالب علم صرّف قدرًا من عمره في دراسة تخصص من التخصصات العلمية، وهكذا نقول اليوم: فلان متخصص في التاريخ، وفلان متخصص في الكيمياء، وفلان متخصص في إدارة الأعمال...

### ٢ - العالم:

هو شخص برع في تخصص من التخصصات حتى فاق أقرانه أو صار بين المتفوقين من أقرانه، وقد كانت كلمة (عالم) تطلق في العديد من الأوساط على المتمكن في علوم الشريعة؛ حيث إن المتخصصين في علوم الشريعة كانوا قبل عصر

النهضة الحديثة يشكّلون السواد الأعظم من مثقفي الأمة، أما اليوم فإننا في الغالب نقول: فلان عالم في الشريعة، وعالم في الجغرافيا، وعالم في الفيزياء... إذن العالم اليوم هو شخص متبحر في تخصصه على نحو ظاهر.

٣ - المصلح:

هو شخص لديه رؤى وأفكار إصلاحية ذات طابع سياسي أو أخلاقي أو اجتماعي، وهو يستند في العادة إلى الرصيد العقدي والثقافي الموجود لدى أمته، وهكذا نجد أن كل من سميناهم مصلحين في تاريخنا الإسلامي كانوا ينطلقون من عقيدة الإسلام ومن أصوله وأصوله ومفاهيمه الكبرى... المصلح يملك أفكارًا لكنه في الغالب ليس منتج أفكار، ولا صاحب نظريات معرفية، إنه يتحرك على أرض الواقع بما لديه من رؤية إصلاحية حركةً حثيثة، ويغلب على أفكاره الطابع العلاجي والنهضوي، وليس الطابع التنظيري الفلسفي.

٤ - الداعية:

شخص لديه علم وفكر وهمّ إصلاحي، وعمله الأساسي هو التبليغ والتذكير والهداية ودفع الناس في طريق الصلاح، لكنه لا ينتج في الغالب الأفكار والمفاهيم، كما أنه لا يقوم في الغالب بإجراء الدراسات والبحوث؛ لأن همّه منصرف إلى الحركة اليومية بين صفوف الجماهير وتجمعاتهم، وبما أن كل مسلم مطالب بأن يدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، على مقدار معرفته وظروفه، فإن من المألوف أن نجد من يجمع بين التخصص والدعوة، وبين الفكر والدعوة؛ فهناك أطباء ومهندسون ومتخصصون في علوم مختلفة، وأهل غيرة وديانة، لم يدرسوا أي تخصص... يقومون بجهود عظيمة في خدمة الدعوة الإسلامية وإرشاد الأمة إلى الطريق الصحيح.

الداعية دون المصلح في استيعابه لمشكلات الأمة وفي سعة أفقه وحركته، ودون العالم في معرفة أحكام الشريعة وآدابها؛ وهذا حكم أغلبي وليس عامًا شاملاً.

٥ - المثقف:

شخص تجاوز تخصصه الأساسي، ووسّع دائرة اهتمامه على صعيد القراءة والمطالعة وعلى صعيد التأثير، فهو في خطابه يستهدف شريحة واسعة من الناس، وهو في الوقت

نفسه يمتلك ملاحظات نقدية ويُنتج بعض الأفكار والمفاهيم ذات الطابع التقني والعلاجي والمتصلة بتطوير الواقع واستشراف المستقبل، وهو على خلاف الداعية.

والمصلح لا يوسع دوائر احتكاكه بال جماهير، فقلمه ولسانه هما الجسر الذي يعبر من خلاله إلى عقول الناس وقلوبهم، وربما كان هذا اللقب ينطبق أكثر ما ينطبق على من يمكن أن نسميهم ( الشخصيات العامة ) من فئة المتعلمين بالإضافة إلى الكتاب الصحفيين ومعدّي البرامج الإذاعية والتلفازية وكتاب القصص والروايات والممارسين للنقد الأدبي... وإذا نظرنا في تعريفات كثير من الكتاب المعاصرين لـ ( المثقف ) فإننا نجد أنهم يؤكدون على أن ( المثقف الحقيقي ) هو صاحب دور نصالي في الوقوف إلى جانب الحق وفي نقد الممارسات الاجتماعية والإدارية الخاطئة إلى جانب امتلاك روح التضحية بالكثير من مصالحه من أجل الجهر بآرائه وأفكاره وملاحظاته، وفي هذا يقول ( نعوم تشومسكي ) : « المثقف هو من حمل الحقيقة في وجه القوة »، وهناك من المثقفين من يتحدث عن ( المثقف الوهمي ) والذي يجنح في خطابه إلى التبرير والتخدير والتزييف.. ومن الواضح من كثير من الكتابات أن هناك شكوى مريرة من بعض المثقفين الذين سَخروا أقلامهم لخدمة جهة أو لخدمة مصالحهم الخاصة، ونسوا واجبهم في قول الحق ومحاصرة الشر وإنصاف المظلوم وحماية المصالح العامة... ويبدو لي أن من سميناهم ( مثقفين ) ألصق بالواقع من الفلاسفة والمفكرين، وحديثهم كثيرًا ما يصطدم بالقوى والاتجاهات الفاعلة في الساحة؛ ومن ثم فإن كثيرين منهم يجدون أنفسهم في مواجهة تحديات أكبر منهم، ويشعرون أحيانًا أنهم مهددون في لقمة عيشهم، مما يدفعهم - بطريقة لا واعية - إلى الانخراط في تيار آمن...

## ٦ - الفيلسوف:

يختلف الفيلسوف اختلافًا ظاهرًا عن العالم والداعية والمصلح؛ وذلك لأن الفلسفة - هذه الكلمة ذات الأصل اليوناني - تعني: ( حب الحكمة )؛ ومن ثم فإن البحوث الفلسفية تلبي في معظم الأحيان حاجات العقل، على حين أن العلم والاختراع يلبيان الحاجات المختلفة للناس. العالم يبحث، ويترتب على بحثه في كثير من الأحيان القيام بعمل ما، أما الفيلسوف فإنه يبحث في التعريفات والمصطلحات والقيم والأهداف... العالم يشتغل بالجزئيات؛ وذلك لأن العلم يبحث أصلًا في قضايا جزئية تم تنظيمها وفق



منهجية معينة، أما الفيلسوف فإنه يبحث في مسائل وقضايا كلية، ويحاول اكتشاف قوانين وسنن الوجود على مستوى الطبيعة المادية وعلى مستوى المجتمع الإنساني. العالم يستخدم في عمله المفاهيم والأفكار الناجزة، أما الفيلسوف فإنه يقوم بصناعة المفاهيم وإبداعها ونقدها وتطويرها وغربلتها. العالم يحاول حل المشكلات المعرفية والعلمية التي تصادفه في عمله، أما الفيلسوف فيركز من خلال الأسئلة الكبرى التي يطرحها على إثارة المزيد من المشكلات واكتشاف المزيد من التناقضات في الحياة العامة. ومن المهم أن أشير هنا إلى أن الوعي الإسلامي جفل في وقت مبكر من تاريخ هذه الأمة من الفلسفة والفلاسفة؛ وذلك بسبب الطروحات الفلسفية لكثير من الفلاسفة المسلمين؛ حيث إن كثيراً منها كان بعيداً جداً عن مدلولات النصوص الشرعية وبعيداً عن القيود والضوابط والقواعد التي وضعها علماء العقيدة وعلماء أصول الفقه.

وما زال كثير من الناس إلى يومنا هذا ينظرون بعين الريبة والشك لكل أولئك الذين ينظرون ويتفلسفون خوفاً من بث أفكار ومفاهيم تنافي التصور الإسلامي للحياة والأحياء...

هذا الكلام الذي ذكرته حول أصناف المشتغلين بالعلم والتنوير والإرشاد وصناعة المفاهيم هو كلام اجتهادي، قد يوافقني فيه كثيرون، وقد أخالف فيه كثيرين، ولا يستطيع أحد أن يقول كلاماً قاطعاً في هذه المسائل، وأود قبل أن أتحدث عن المفكر والمفكر المسلم أن أشير هنا إلى أننا لو فرضنا جدلاً أننا اتفقنا على تعريف الفيلسوف والمثقف والمصلح... يظل لدينا إشكال كبير جداً، وهو ما سماء الأصوليون (تحقيق المناط) أي تحديد الشخص الذي يستحق لقب مفكر أو عالم أو مثقف.. وهذا الإشكال لا حل له؛ لأن الذين يُطلقون هذه الألقاب مختلفون اختلافاً كبيراً في معاييرهم وفي الزوايا التي ينظرون منها؛ ولهذا فإننا نلاحظ بكثرة وجود من يطلق لقباً معيناً على شخص ما، ومن يستنكر ذلك الإطلاق بشدة، وهذا بسبب ما أشرت إليه.

٧ - المفكر:

كل الناس يفكرون، ولكن هناك فروقاً كبيرة بين من ينصرف في تفكيره إلى حل المشكلات اليومية التي تواجهه في معيشته وعمله، وبين تلك الصفوة من الناس الذين

يحاولون توفير أسس لقراءة الماضي والاستفادة منه، كما يحاولون توفير قواعد لفهم الحاضر واكتشاف العلاقات بين القوى المؤثرة فيه...

في اعتقادي أن المفكر يتبوأ منزلة ثقافية وعقلية هي فوق منزلة المثقف ودون منزلة الفيلسوف، وهذا التصنيف لا يقوم على أساس التفوق الذهني أو على أساس النفع للناس أو على أساس الأهمية في المجتمع؛ لأن هذه الأمور لا تصلح أسسًا للتصنيف الذي نحن في صددده، وإنما يقوم على أساس مقدار التجريد والتنظير والتعالي عن الواقع لدى هذه الفئات الثلاث؛ فالفيلسوف أبعد غورًا في التجريد وفي إبداع المفاهيم وأشد اشتغالًا بالقضايا الكبرى من المفكر، والمفكر أبعد غورًا في هذه الأمور وأشباهها من المثقف، ومن هنا يمكن القول: إن كل فيلسوف مفكر، وليس كل مفكر فيلسوفًا، وإن كل مفكر مثقف، وليس كل مثقف مفكرًا، وسأظل أؤكد على أن الفصل بين جميع من ذكرناهم هو فصل غير حاسم، والتداخل بينهم سيظل أمرًا واردًا.

المفكر يتردد بين صناعة المفاهيم وبلورة الرؤى واستخلاص العبر وكشف السنن... وبين إصلاح الواقع وتشخيص الأزمات التي يعاني منها الناس، وهو يحاول باستمرار أن تكون العلاقة بين محصوله الفكري والمعرفي وبين الواقع علاقة جدلية؛ بمعنى أنه يعمل فكره في تحديد المشكلات الراهنة، ويقوم بنقدها ومحاولة العثور على حلول لها، ويعدّل في رؤيته للواقع وفي حكمه عليه وفي أسس إصلاحه بناء على المعطيات التي يحصل عليها من وراء كل ذلك؛ ومن هنا فإن المفكر يشبه الفيلسوف في أنه يظل في حالة مستمرة من التلمس للمنهجية الصحيحة في التفكير، كما أنه يشبهه في الشعور بعدم الحصول على اليقين تجاه كثير من الأمور، وهذا الشعور يعصمه من الكبر ويدفعه إلى الاستمرار في البحث والتأمل والتعلم.

وهذه الوضعية تشكل فارقًا مهمًا بين العالم والمفكر؛ فالعالم يجد نفسه شديد اليقين في كثير من المواقف وعند بحث كثير من المسائل؛ وذلك لأنه يتعامل مع أمور جزئية، ويجد دائمًا ما يدلي فيه بالقول الفصل، أما المفكر فإنه بسبب اشتغاله بأمور كلية وبسبب اشتغاله باكتشاف الحقائق، واستخدامه الموسّع للنقد... يجد نفسه بعيدًا من القطع والحسم في كثير مما يقوله، وهذا يشكل مصدر إزعاج لكثير من الناس

الذين يريدون شيئًا يقبضون عليه ويمضون به، ولا أريد أن أقلل هنا من قيمة أحد، ولا من دوره في إصلاح الحياة والأحياء، وإنما أرمي إلى توضيح طبيعة كل صنف من الأصناف التي أشرت إليها، وإن فضل الإنسان يعود في نهاية المطاف إلى استقامته الشخصية ومدى مساهمته في رقي أمته.

\* \* \*

## من صفات المفكر



المفكر مخلوق لله - تعالى - والمفكر إنسان ذو حاجات، والمفكر مثقف وصاحب تطلعات، والمفكر عضو في هيئة اجتماعية؛ ولهذا فإننا حين نتحدث عن شيء من صفات المفكر، فإننا نتحدث عن أمور مشتركة بينه وبين غيره، كما نتحدث عن أمور خاصة به، وأخرى موجودة لديه على نحو ظاهر، وعلى سبيل المثال فإن المفكر يبحث عن الحقيقة ويناصرها ويحترمها، ويحاول إبرازها، وهذه الأمور موجودة لدى بعض الناس العاديين، وموجودة لدى العالم والمثقف والداعية على درجات مختلفة، وعلى من يريد سلوك طريق المفكرين والدخول على عالمهم الرحب أن يحاول جعل ما سذكّره من أخلاق وصفات وعادات ومهمات المفكرين أمورًا راسخة في عقله وقلبه وسلوكه؛ فالمرء في نهاية الأمر ليس شيئًا أكثر من اهتماماته ومهامه وأخلاقه. وهذا عرض مختصر لما أعتقد أنه من صفات المفكر، مع الإشارة إلى أن بعض ما سذكّره هنا قد أؤكد عليه في مواضع أخرى من هذا الكتاب:

### ١ - حبّ للمعرفة واحتفالًا بالجديد:

لعل هذه الصفة أهم صفة بين صفات المفكر؛ لأنّ الولّة الشديد بمعرفة الجديد وبصياغة المفاهيم والرؤى الكلية هو الذي يملك طالب العلم فضيلة المتابعة في تنمية عقليته وإثراء مفاهيمه واكتشاف الوجود الذي يعيش فيه. إن طلاب العلم المبتدئين يفرحون بالمعلومة التي يحصلون عليها، ولا سيما إذا كانت من باب الغريب والطريف؛ أما المفكر فيبتهج أشدّ الابتهاج بقانون يكتشفه أو ملاحظة ذكية يلتقطها أو رؤية جديدة يبلورها، وإنك لترى الواحد من المفكرين يطرب لمقولة عظيمة يقوم بصياغتها أيامًا عديدة، وهو يتنغم بها، وكأنه عثر على كنز من الكنوز أو مفتاح لمنجم ذهب، وما ذلك إلا لأن المفكر يعرف قيمة المفاهيم الجيدة، ويعرف دورها المحوري في تقدم الحياة الفكرية.

يقول أرسطو: إن الفلسفة تتطلب ممن يعمل فيها شروطاً معينة، منها عشق لاذع، وذهن بارع، وصبر مقيم. وسُئل أنشتاين ذات مرة عن الفرق بينه وبين الإنسان العادي، فقال: إذا طلبت من الإنسان العادي أن يحاول العثور على إبرة في كومة قش، فسوف يتوقف ذلك الشخص عن البحث حين يعثر على الإبرة، أمّا أنا فسوف أقفز على كومة القش بحثاً عن الإبر المحتملة. هذا هو المفكر الحق؛ إنه يظل في حالة مستمرة من الأمل بالعثور على شيء جديد، ويملك مع هذا وقوداً روحياً عظيماً، يساعده على المضي قدماً في عمله مهما كانت الصعاب. ومن المؤسف في هذا السياق أن مدارسنا وجامعاتنا لا تنمي هذه الروح لدى الطلاب؛ بل كثيراً ما تقوم بقتلها من خلال المناهج المختزلة والامتحانات السهلة والسخاء البالغ في منح الدرجات!

إن على من يسعى لأن يكون بين المفكرين أن يدرك أن طريق المفكرين يبدأ بحب البحث، وينتهي بالتفاني في البحث، وإني أعرف من المفكرين من هم اليوم في الستينيات من أعمارهم، وهم أشد شوقاً إلى المعرفة، وأشد حرصاً على اكتشاف المجهول منهم حين كانوا في الثلاثينيات، هذا هو طريقهم، وليس هناك أي طريق آخر للوصول إليهم.

## ٢ - كل مفكر نسيج وحده:

المجال الذي يتحرك فيه المفكر مجال رحب للغاية، إنه الشأن الإنساني كله، والحضارة الإنسانية كلها، وهذا يعني إتاحة مدى واسع للاختلاف بين المفكرين، ونحن نعرف أننا حين نتحدث في تفسير التاريخ وتشخيص الواقع، وحين نجتهد في البحث عن حلول للمشكلات المتأسنة... نجد أن النصوص ذات الدلالة المحددة شحيحة للغاية، مما يجعل الاختلاف بين مفكر ومفكر أمراً لا مندوحة منه. المفكر يختلف مع غيره من المفكرين؛ لأنه يختلف مع نفسه في الأصل، أعني أنه يقوم بكسر اتساقه الفكري الذاتي، إنه مثل الذي ينظر في مرآة متشظية؛ فهو يرى في كل مرة شيئاً جديداً، إنه دائم التعرف على ما لديه، وكلما رأى شيئاً جديداً وجد نفسه يتبنى بعض الأفكار الجديدة، ويتخلى عن بعض الأفكار القديمة، وهذا يشكل نوعاً من الصدمة لطلابه والمعجبين بنهجه، إن التفكير في مستوياته العليا اجتهداً، وإن الله ﷻ حين كتب الأجر على الاجتهاد أذن لنا بالاختلاف وبالتراجع عن شيء رأيناه؛ بل إنه



لا يحل للعالم ولا المفكر أن يجهر للناس بقناعات قديمة، ويخفي في نفسه قناعاته الجديدة، إلا في أحوال دقيقة وقليلة، أما في النهج العام، فإن على المرء أن يقول بصدق وجرأة، كما قال السابقون: ذاك رأي رأيناه بالأمس، وهذا رأي نراه اليوم، وفي تراث فقهاءنا الأجلاء من الشواهد العملية على هذا ما يفوق الحصر، ويكفي ما فعله الإمام الشافعي من ذلك بعد أن خرج إلى مصر، واستقر بها.

إن المفكرين يكرعون من مناهل وموارد ثقافية مختلفة، وينظرون من زوايا متباينة، ولهم بنى عقلية متفاوتة ومتنوعة؛ ولهذا فإن اختلاف بعضهم مع بعض أمر لا مفر منه، وإن الاختلاف هو مصدر ثراء وغنى إذا كان في إطار الثوابت والأصول التي تؤمن بها.

٣ - السعور بالمسؤولية:

حين يبلغ الباحث مرتبة عالية في العلم والفكر، ويجد نفسه في القمة، فإن اكترائه بنقد المخالفين يصبح أقل أهمية لديه، كما أن جرأته على صوغ المفاهيم والمقولات وتقديم الطروحات الجديدة تصبح أكبر، وهذا ملموس ومشاهد، لكن من المهم أن يدرك المفكر والمنظر والداعية... أن هناك الألوف أو مئات الألوف من الشباب الذين يتلقفون كلامه، ويتدارسونه ويغيرون في قناعاتهم واتجاهاتهم بناء عليه؛ ومن هنا نجد في النصوص الكريمة ما يؤكد تأكيداً شديداً على توخي الدقة والحذر تجاه كل كلمة ينطق بها الإنسان أو يكتبها، على نحو ما نجده في قوله - سبحانه - : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨] وقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ [يس: ١٢] وهذه الآية واضحة في مسؤولية الإنسان عن الآثار التي يتركها في الآخرين من خلال سنه سنة سيئة، أو من خلال نشر أفكار خاطئة أو ضالة.

ويقول ﷺ: « إن الرجل يتكلم بالكلمة من سخط الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيهوي بها في النار سبعين خريفاً، وإن الرجل يتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيرفعه بها في عليين »<sup>(١)</sup>؛ لهذا نجد المفكر الحق شديد الدقة في أحكامه واستنتاجاته وتعميماته؛ لأنه يعرف أن هناك من يتلقى كلامه بشكل حرفي، وهناك

(١) أخرجه الترمذي وغيره.

من يمكن أن يستغل غموض صياغته على نحو سيئ.

#### ٤ - استقلالية المفكر:

لا يستطيع أي إنسان مهما بلغ من النضج أن يكون مستقلاً تمام الاستقلال، وهذا من جملة القصور المستولي على البشر، لكن على من يريد أن يكون مفكراً أن يدرك أن عليه أن يبذل جهداً متواصلاً في بناء عقلية متحررة من كثير من القيود التي يواجهها في حياته، ولعل أهم تلك القيود ثلاثة:

##### أ - قيد المحيط:

إن في كل بيئة من البيئات مفاهيم ومسلّمات وعادات ومعلومات ومعطيات معتمدة اعتماداً عالياً لدى أبناء تلك البيئة: ينطلقون من مدلولاتها في تصوراتهم للواقع وفي أحكامهم على الأشخاص والأحداث.... وأنا أجزم أن تلك البيئة مهما كانت متعلمة وصالحة وراقية، فإنه سيظل فيها ما هو غير مقبول، أو هو مثار جدل، ومن هنا فإن على المفكر أن يتطلع دائماً إلى ما هو خارج الصندوق الذي وجد نفسه فيه، وأن يقوم بعملية (مقارنة) واعية حتى يكشف بعض العطب الثقافي الموجود في بيئته، ويعمل على الفكك من إيحائه وتأثيره، وهذا الانعتاق من تأثير البيئة هو الذي يمهد الطريق أمام المفكر للانتقال من المحلية إلى العالمية.

##### ب - قيد الانتماء:

المقصود بالانتماء هنا تحديداً الانتماء إلى قبيلة أو حزب أو جماعة أو جهة أو مؤسسة؛ لأن مراعاة المفكر لهذه الأمور أثناء تفكيره وتنظيره وإصداره للأحكام، لا يساعده على أن يكون مخلصاً للحقيقة وموضوعياً في مواقفه؛ وقد عانت أمة الإسلام في الماضي، وما زالت تعاني في الحاضر - من هذه المسألة، إن المفكر حين يتخذ من شيء مما أشرنا إليه إطاراً يفكر في داخله أو خلفية يستند إليها يفقد طلاقته وحياده ويعرض عقله إلى نوع من التشويه، وبعض الناس لديهم ذكاء وعلم وقرس في الكتابة والجدل لكنهم تحولوا إلى أبواق أو أشياء استعمالية؛ ففقدوا الجدارة باسم مثقف أو مفكر، وفقدوا مع ذلك النزاهة والقيام لله - تعالى - بالقسط، كما فقدوا إلى جانب ذلك ثقة الناس واحترامهم!

إن الانتماء يكون فضيلة بل شيئاً أساسياً في حياة الإنسان حين ينحاز المرء إلى

الكليات والثوابت والمعطيات المتفق عليها، إنه بذلك يوفر لنفسه أرضية صلبة يقف عليها وإطارًا مرجعيًا يحتكم إليه، وإلا فقد يفقد الاتجاه، ويضيع في فضاء المطلق، كما تاه كثير من الفلاسفة في الماضي والحاضر.

رأيت في حياتي أشخاصًا يتمتعون بقدر كبير من الذكاء والفطنة، ومع هذا فقد كانت لهم طروحات فجأة وأقوال تدعو إلى العجب، وما ذلك إلا لأنهم منحوا العصمة لأشخاص غير معصومين، ونصبوا أنفسهم بالتالي للدفاع عن أخطائهم وعيوبهم، وقرأت لأعلام تعصبوا لجماعة أو مذهب فقهي أو حزب سياسي، فحملهم ذلك على الاستدلال بأدلة، أقل ما يقال فيها إنها مضحكة!

#### ج - قيد الذاكرة:

قوة الذاكرة نعمة كبرى من الله - تعالى - وإن رجلًا من غير ذاكرة، هو رجل من غير جذور ولا خبرة ولا تراكم معرفي، لكن بما أن الخير المحض نادر، فإن علينا أن نتلمس المشكلات التي تثيرها الذاكرة في وجه العقل بما هو بنية للإبداع والتجديد والنقد والحكم على الموروث... وهذه المشكلات تنبع من ماهية التضاد بين طبيعة الذاكرة، وما يريده الإنسان من العقل. إن الواحد منا يشعر بالفخر والثراء حين يتذكر الحجم الضخم لما يحفظه من نصوص وشواهد وقصص وعبر وتجارب وخبرات، وهي فعلاً مصدر اعتزاز؛ لأن العقل من غير معرفة أشبه بحاسب آلي من غير برامج، أو صحن من غير طعام؛ ونحن حتى نحافظ على مخزوننا المعرفي فإن الذاكرة تلح علينا بأن نشرح ما لدينا من محفوظات، ونبدع في تلخيصه وتعليقه، وتطلب دوام مراجعته والاهتمام به حتى لا نفقده، وهذا يعني اشتغال العقل به وانصرافه إليه، وهذا ما يفعله الذين وهبهم الله - تعالى - ذاكرة ممتازة، فهم يحفظون الكثير، وينشغلون بالمحافظة عليه من خلال شعورهم بقيمة ما يحفظونه وزهوهم به.

الذاكرة أيضًا تحاول المحافظة على مكنوناتها ومقتنياتهما من خلال العمل على مقاومة أي حذف أو غرلة أو نقد لتلك المقتنيات، أي تطلب من العقل أن ينصرف عن التفكير في الماضي، والانصراف إلى أي شيء آخر، والتاريخ يدل على أن سطوة الذاكرة هائلة، وأن معظم العقول تخضع لها بالفعل، والدليل هو قلة المجتهدين والمفكرين وكثرة الحفظة والمقلدين.... المرء في حاجة إلى علاقة متوازنة مع الذاكرة؛ فهو لا يستغني عن أن يكون

لديه الكثير من المنقول عن الأجيال السابقة، وعن المفكرين الكبار من أهل زمانه، وهو حتى يصبح مفكرًا يحتاج إلى شيء جوهري جدًا، هو امتلاك رؤية نقدية للماضي والواقع، وهذه الرؤية تستند إلى النقص والقصور الذي يشوب أفعال البشر وأحكامهم في كل زمان ومكان، إذن على الواحد منا أن يغترف من الذاكرة دون أن يبلل ثيابه بمائها، أي أن يقترب منها اقتراب منتفع دون أن يغرق في مياهاها، إنه يقترب ليعتد، ويعتد ليقرب، يأخذ من عبرة الماضي لإصلاح الحاضر، ويحكم بمعطيات الحاضر على كثير من أحداث الماضي ووقائعه، وعلى كثير من موروثاته.

إن من اللافت للنظر في هذا السياق أن الله - جل وعلا - قد تعهد للأمة بحفظ القرآن الكريم، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وطلب من المسلمين العمل على فهمه ووعيه واستيعاب مقاصده ومراميها فقال - سبحانه -: ﴿كِتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّدَّبَرُواْ بِآيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُواْ الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] لكن الذي حدث هو اتجاه السواد الأعظم من الناشئة والشباب إلى الحفظ مع إهمال شبه تام للتدبر والتفكير في معاني القرآن الكريم ومراداته. في تاريخنا الإسلامي وعي بالفرق بين من هو مهتم بالحفظ، ومن هو مهتم بالاستنباط والاستدلال وتثوير النصوص، ويذكرون في هذا الإطار أن أبا حنيفة النعمان كان عند الأعمش، وكان الأعمش يُلقي عليه مسائل، فيجيبه أبو حنيفة، فيقوله له الأعمش: من أين لك هذا؟ - يسأل عن مستنده في إجاباته - فيقول أبو حنيفة: أنت حدثتنا عن إبراهيم بكذا، وحدثتنا عن الشعبي بكذا، فكان الأعمش يقول: ( يا معشر الفقهاء أنتم الأطباء ونحن الصيادلة ).

وإذا تأملنا في تراجم المحدثين المعروفين بحفظ السنة فإننا نجد أنهم لم يكونوا من المتفوقين في الفقه، كما أن الذين اشتغلوا بالفقه لم يكونوا يُعدون بين أئمة المحدثين، ولهذا استثناءات قليلة، وإن كان الأصل في الفقيه الممتاز أن يكون محدثًا ممتازًا أولاً، لكن النبوغ في هذين الأمرين ليس بالأمر السهل، ولهذا لم يفز به إلا القليل.

تعامل المفكر مع الذاكرة ينبغي أن يكون مصحوبًا بحذر أشبه بحذر الذي يمشي على حبل مشدود، فهو يخاف ويتحاشى السقوط يمينه أو يسره، وأنا هنا أدعو المشتغلين بالفكر إلى الانفتاح على النصوص والتراث عامة، وأدعو المشتغلين بالحفظ

إلى الإصغاء لما يقوله المفكرون، فوجود الفجوات بين هؤلاء وأولئك لا يخدم أحدًا.  
 ٥ - من الجزئي إلى الكلي؛

الانطلاق من الجزئي إلى الكلي ومن ضيق النظرة إلى اتساع الرؤية، من أهم ما يفرق بين العالم والمفكر، ذلك أن العلم هو عبارة عن مسائل جزئية تم تنسيقها على نحو معين لتشكل تخصصًا محددًا كما هو الشأن في الكيمياء والفيزياء والجغرافيا والفقه وقواعد اللغة.... وإن المتخصص في أي علم كلما تعمق في تخصصه، وجد نفسه يشتغل بمسائل أصغر حجمًا، كما هو الشأن في رسائل ( الماجستير ) و ( الدكتوراه )؛ حيث إنك تجد الواحد من طلاب الدراسات العليا يكتب بحثًا مطولًا في مسألة صغيرة جدًا، ربما لم يكتب فيها السابقون سوى صفحات قليلة، حتى إن في إمكانك أن تقول: إن بعضهم يكتب أشياء كثيرة عن ( لا شيء )! أما المفكر فإن له شأنًا آخر، فهو لا يحفل بالجزئيات إلا من أجل عبورها إلى الكليات؛ بل إن ( العبور ) على نحو عام هو أحد مشاغل المفكرين؛ حيث إنك تجد الواحد منهم قد عبّر تخصصه إلى فضاء المعرفة الأرحب، وعبر معارفه بالماضي إلى توظيفها في فهم الحاضر وإصلاحه، وبعد ذلك يعبر رؤيته للواقع من أجل استشراف المستقبل.... ومن الممكن في هذا السياق أن ننظر إلى تخلف العالم الإسلامي واهتمام الباحثين به، وسنجد أن عالم الاقتصاد ينظر إلى المشكلات الاقتصادية التي يعاني منها الناس، ويحاول إعطاء أهمية بالغة لتأثير ضعف الاقتصاد في تخلف الأمة، كما أنه يمنح المال والاقتصاد دورًا أساسيًا في تحضر الأمة ورفيها، أما الداعية فإنه ينظر إلى دور الانحراف العقدي والأخلاقي والسلوكي في تخلف الأمة، ويعدّ تصحيح تلك الانحرافات كافيًا لتحقيق النهضة والازدهار، ويفعل مثل ذلك السياسي والجغرافي والمعلم والمربي.... كل واحد منهم ينظر إلى تخلف الأمة من أفق تخصصه، وي طرح رؤاه الإصلاحية من أفق ذلك التخصص، وهذا واضح.

أما المفكر، فإنه لا ينظر إلى الأمور من أفق تخصصه الأصلي، وإنما يحاول بلورة رؤية مركبة تستند إلى وعيه بجوانب التخلف المختلفة، ثم يسعى إلى إدراك العوامل الأساسية في إيجاد ذلك التخلف، وإدراك ما يمكن أن يسهم فيه كل تخصص من التخصصات العلمية والعملية في تحقيق التقدم.



المفكر لا يكتفي بالقول: إن كل جوانب الحياة لدينا متخلفة وتحتاج إلى نهضة، وإن كل الجهات والفئات مسؤولة عن ذلك التخلف، ويمكنها المساهمة في إزالته والخلاص منه... بل يحاول أن يعرف المقدار الذي يمكن أن يسهم به الحكم الرشيد - مثلاً - في الخلاص من التخلف، وأن يعرف المقدار الذي يمكن أن يسهم به اهتمام أرباب الأسر بأسرهم، وما يمكن أن يسهم به إصلاح نظام التعليم وإصلاح نظام الضرائب وإيجاد بنية تحتية في تحقيق التقدم، إنه يحاول معرفة كل ذلك ومعرفة ما لا يستطيع أهل تخصص أو مجال ما إصلاحه، إنه يعرف أن من مظاهر التخلف ما لا يمكن إصلاحه عن طريق الوعظ أو عن طريق نشر العلم الشرعي أو عن طريق سن المزيد من القوانين أو وضع المزيد من الأموال في السوق، وهذه المعرفة نابعة من فهمه العميق لطبائع الأشياء وسنن الله - تعالى - في الخلق وفهمه للعلاقات التي تربط بين الجوانب المتعددة للتخلف.

المفكر - كما أشرنا قبل قليل - يعيش العبور في كل الاتجاهات، ويتأبى على الحشر في الزوايا الضيقة؛ ولهذا فإنه لا يعبر الجزئي إلى الكلي فحسب، ولكنه يعبر الكلي إلى الجزئي أيضاً، وإن الملاحظ أن التربوين - مثلاً - مشغولون في البحث عن أوجه القصور في النظام التعليمي والعمل على تلافيتها من أجل تحقيق النهضة التعليمية، أما المفكر فإنه لا يدخل في تفاصيل النظام التعليمي، لكنه يوضح للتربوين أن النظام التعليمي هو جزء من كل، وأنهم لو حصلوا على أفضل نظام تعليمي في العالم، فإن هذا لا يعني الحصول على أفضل تعليم؛ وذلك لأن للنظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي ولوضعية الأسرة والتنمية الشاملة وأمور أخرى من هذا القبيل... تأثيراً مهماً في المخرجات التعليمية، أي أن المفكر يرى الجزئي في ضوء الكلي، ويدرك أنه ليس هناك مجال مستقل بنفسه، كما أنه لا يمكن لأهل أي تخصص أن يضمنوا نتائج جهودهم فيه على نحو مطلق، وذلك بسبب التشابك بين النظم والمجالات المختلفة. هذا كله لا يعني أن كل من يظن نفسه مفكراً أو يظنه الناس كذلك - يملك فعلاً طاقة كبيرة على العبور من الجزء إلى الكل وعلى رؤية الجزئي في ضوء الكلي، هذا لا يكمل لأحد، ويكون ناقصاً نقصاً ظاهراً عند بعض المفكرين، لكن ما ذكرناه هو ما يسعى إليه المفكرون من الطراز الرفيع، وصدق الله ﷻ إذ يقول:

﴿وَقَوْفَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٧٦].

## ٦ - المفكر والمفكر المسلم:

قد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن العقل البشري لا يستطيع العمل في فضاء مطلق وخالٍ من الثوابت والأطر والمسلّمات، ومن هنا فإنه ما من مفكرٍ في العالم يستطيع أن يدعي أنه سيسلك طريقاً في الاستنتاج والفهم والتعديد، لم يسلكه أحد من قبل، وإنما على العكس من هذا، الجميع يبنون على المعطيات التي توصل إليها من سبقهم من أهل العلم والفكر، وإن كانوا يختلفون فيما بينهم في الكثير من المسائل، لكن دائماً هناك ثوابت تجاوزت مرحلة النقاش، وهذا هو الذي أتاح لنا أن نتحدث عن شيء اسمه التقدم العقلي. ومهما يكن من أمر فإن المفكر في أمس الحاجة إلى التمسك بالقيم الإنسانية العليا التي لقيت نوعاً من الإجماع على مدى العصور بسبب اتصالها بالفطرة التي فطر الله الناس عليها، وبسبب تعزيز الرسالات السماوية لمضامينها وتأكيد الخبرات البشرية على ضرورة الانحياز إليها، ومن تلك القيم؛ القيم الثلاث المشهورة: الحق والخير والجمال، ولا شك في أننا قد نختلف هل هذا الموقف أو العمل أو الحدث من الخير أو الشر، وهل الحق مع فلان أو فلان في مسألة كذا وكذا، كما قد نختلف في تقييم المشاهد الجمالية، هذا كله يحدث كثيراً في كل يوم، لكن مجرد الالتزام بأصول هذه القيم والعزم على الدفاع عنها يوفر للمفكر نوعاً من الاستقامة السلوكية، كما يضع أمامه بعض الحواجز عند رغبته استخدام أفكاره في تحقيق مصالح خاصة على حساب الأمة أو على حساب النزاهة، ويوفر له صمام أمان من أن يصبح بمثابة المستأجر الذي يعمل لحساب هذه الجهة أو تلك، وهذا الانحياز للقيم الكبرى مطلوب في الحقيقة من كل الناس لكنه بالنسبة إلى المثقفين والمفكرين والعلماء عامة يشكل ضرورة من الضرورات.

المفكر المسلم:

لو أردنا أن نحصي ما هو مشترك بين المفكرين عامة وبين المفكرين المسلمين خاصة لأعيانا ذلك، ونحن لا نحتاج إليه، لكن من المهم أن أشير إلى بعض ما يتميز به المفكر المسلم عن غيره حتى نزيل اللبس الذي شاب هذه القضية منذ زمان بعيد:

المفكر المسلم هو مسلم أولاً ومفكر ثانياً، وهذا يشكل فارقاً جوهرياً بينه وبين المفكر العلماني أو اللاديني والذي لا يملك من العقائد والثوابت المعصومة ما يتجاوز ما هو متوفر من المناهج العقلية والفكرية لبني البشر، والحقيقة أنه إذا كان لا بد للمرء

من أن يستند إلى ثوابت وهو يمارس عملية التفكير، فإن مما لا ينسجم مع عقائدنا الرجوع إلى أطر أو مسلّمات تختلف مع المسلّمات والقواعد القطعية التي جاءت بها الشريعة الغراء، وهذا التوجه من المفكرين المسلمين يُنظر إليه من قِبَل المفكرين غير المسلمين على أنه قيد على الفكر والإبداع، وهو يجعل مجال الحركة أمام عقل المفكر محدودًا، وهذا أمر متوقع من أناس لا يرون في عقيدة الإسلام وشرائعه ما نراه، ونحن من جهتنا ننظر بعين الإشفاق إلى أولئك الذين حُرّموا من نعمة الهداية ومن أنوار الوحي، وننظر إلى ما يعده غيرنا قيودًا وعقبات في وجه الطلاقة الفكرية، وأمام الإبداع على أنه موجّهات تسدّد العقل في عمله، وتحفظه من الضياع في فضاءات المطلق واللانهايي.

إن الإنسان يستخدم العقل من أجل الارتقاء بالنوع البشري وحل مشكلاته وتوفير الهناء والأمن له، وحين توفر نصوص الشريعة وأحكامها وآدابها ما يساعدنا على الحصول على ذلك، فإن علينا أن لا نتردد في الأخذ به والركون إليه، لكن حكمة الله - تعالى - اقتضت أن يظل الإنسان محتاجًا إلى التفكير والتأمل؛ ولهذا فإن من الملاحظ أن ما لا يتغير بتغير الزمان والمكان من شؤون البشر وأوضاعهم، جاءت أحكامه مفصّلة غاية التفصيل في الشريعة الإسلامية، كما هو الشأن في العقائد وأحكام العبادات، مما يحصر حركة الفكر آنذاك في مجال الفروع والجزئيات على نحو أساسي، أما ما يختلف باختلاف الزمان والمكان مثل شؤون الإدارة والحكم والعلاقات الدولية وتنظيم الحياة الحضريّة، فإن النصوص فيه قليلة، وهذا يتيح للعقل المسلم أن يتحرك فيه حركة واسعة جدًا على صعيد القضايا الكبيرة والصغيرة، إن من المهم دائمًا ألا تصطدم اجتهادات المفكر المسلم وأطروحاته بالإجماع والنصوص الثابتة والصريحة في دلالتها، أما المسكوت عنه والمختلف فيه، فمجال النظر فيه واسع، وأنا دائمًا أقول: إذا اتفقنا في الثوابت والكليات لم يضرنا الخلاف في المتغيرات والجزئيات. لا شك أن الأمور ليست بهذه السهولة واليسر؛ فهناك مسائل كثيرة شائكة قد نختلف فيها: هل هي من الأصول أو الفروع؟ كما أن من مثقفينا من يشتغل بالفكر، ويجتهد في بعض القضايا ذات الامتداد الشرعي دون أن يملك الثقافة الشرعية المطلوبة، وأنا أشعر أن الأمور تتجه إلى التحسن في هذا الشأن، والله المستعان في كل حال.

## العقل والدماغ



لا نستطيع التحدث عن تكوين المفكر دون أن نعطي لمحة سريعة عن كل من الدماغ والعقل والعلاقة بينهما، وذلك حتى نعرف عظم المنة التي تفضل الله - تعالى - بها على عباده، ونعرف شيئاً عن إعجازه في خلقه، ولا يخفى ذلك الفارق الضخم بين الإنسان وبين غيره من المخلوقات، ويكفي أن نعلم أن كل ما يحيط بالإنسان سُخر له حتى ينتفع به، وقد قال الله - تعالى - : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الحاثية: ١٣] وقال: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠]. إن جوهر تفضيل الله - تعالى - للإنسان منوط بتلك القدرات العظيمة التي مكنت الإنسان من التفكير والإبداع والنطق والكتابة، ومنوط بنعمة الإيمان وإرسال الرسل، مما يستوجب الحمد لله والثناء عليه.

### الدماغ:

إن الدماغ عبارة عن كتلة من النسيج الدهني والبروتيني، تزن في حدود ( ١٤٠٠ ) غرام، أي ما يقرب من ( ٢٪ ) من وزن الجسم - وسطياً - لكنه يستهلك أكثر من ( ٢٠٪ ) من الطاقة الواردة إلى أجسامنا. هذه الكتلة تتشكل من نحو مئة مليار خلية، ولكل خلية عشرة آلاف اتصال مع الخلايا الأخرى، فهل سمعت بشبكة أعقد وأدق من هذه الشبكة؟ الشعيرات الواصلة بين الخلايا تجمع بين مواصفات الأسلاك الكهربائية والأنابيب، هي أسلاك لكونها تنقل الشحنات الكهربائية من خلية إلى خلية، وهي أنابيب لأنها ليست أسلاكاً صماء، وإنما مواسير مجوفة، تنقل مواد كيميائية بين الخلايا وتسمى هذه المواد الموصّلات العصبية، ولكل من هذه الموصلات مستقبلات خاصة، كل موصّل ينقل رسالة محددة؛ تحفيز، تثبيط، فرح، حزن، غضب...

يولد كل إنسان مزوداً بعدد من الخلايا وبوصلات بين هذه الخلايا، وهي محمّلة

بغرائزه الحيوية ومجهزة بمهارات فطرية، لا يحتاج المرء إلى تعلمها، وتنطلق عند الحاجة إليها، وتشكل بعد ذلك الوصلات الخاصة بكل شخص، والعجيب أن المرء كلما تعلم شيئاً، أو مر بتجربة، أو اكتسب مهارة تم اختزان ذلك في دماغه، وتصبح له دائرته الخاصة. إن بيئة الإنسان وتقاليده وديانته وجنسه وجنسيته تُسهم في تشكيل دماغه عبر ما ترسمه فيه من أخاديد، وما تحدثه من وصلات بين الخلايا، وتشير بعض الدراسات إلى أن دماغ الإنسان يعمل بأعلى قدر من الكفاءة حين يكون المرء في التاسعة والثلاثين من عمره، ثم يبدأ بالتراجع بعد سن الأربعين حين تقل كفاءة الجسم في إصلاح ما يتآكل من الطبقة التي تغطي الخلايا العصبية، أما الذاكرة فإنها تبدأ في التراجع في سن مبكرة، ربما تكون عند بلوغ الإنسان الخامسة والعشرين من عمره. وقد تم اكتشاف أمر مهم، هو أن عدد خلايا المخ أقرب إلى أن يكون ثابتاً، ولكن الذي يتغير هو كيفية تواصل وتلاحم هذه الخلايا؛ فكلما درّب الإنسان نفسه، وأجهد دماغه بالتفكير زاد عدد الوصلات وتحسّن التحامها، وهو ما يؤدي إلى مقدرة أكبر على الاستيعاب، ويرفع في درجة الذكاء، والعكس صحيح، وهذا يعني أن الله - تعالى - وهبنا آلة بالغة العظمة والتعقيد وابتلانا بها؛ حيث ترك لنا مساحة للمحافظة عليها والارتقاء بها، وعدم استغلال تلك المساحة سيعني تدهور أدمغتنا وتراجعها. ولا بد من القول بعد كل ما ذكرناه: إن معرفة البشر بالدماع ما زالت محدودة، وهو فعلاً أشبه بصندوق مغلق ننظر إليه من ثقب صغير للغاية؛ فنرى شيئاً منه وتغيب عنا أشياء، وإن البحث العلمي المتواصل يوسّع ذلك الثقب، ويجعلنا نطلع على المزيد من أسرار هذا المخلوق العجيب، وإنك حين تطلع على مداولات العلماء والباحثين في شأن الدماغ وعظمته لا تملك إلا أن تقول: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ [لقمان: ١١].

### العقل وعلاقته بالدماغ:

إذا كان الدماغ - وهو شيء محسوس معين - ما زال محاطاً بالكثير من الأسرار، فإن العقل وهو شيء معنوي، سيظل غارقاً في الكثير من الغموض، والذي قد لا نجد له أية نهاية؛ ولهذا فإن كل ما يقال في هذا الشأن لا يخلو من شيء من التخمين، وسوف يستمر حوله الكثير من الجدل.

العقل مصطلح يُستخدم عادة لوصف الوظائف العليا للدماغ البشري، ولا سيما تلك الوظائف التي يكون فيها الإنسان واعيًا على نحو شخصي، وذلك حين يجادل ويتذكر ويحلل الأحداث ويلوم نفسه ويراجع مشروعاته، وحين يثور، ويتعاطف، ويفرح....

الدماغ إذن ليس هو العقل؛ بل هو المكان الذي يتواصل العقل من خلاله مع الجسم البشري؛ حيث يستخدمه لإيصال الرسائل والأوامر إليه. الدماغ هو المنفذ لإرادة العقل ووسيط التركيز الذهني. بعض العلماء ينظرون إلى العقل على أنه مجموعة من الأفكار والمشاعر والعواطف والأحاسيس وما إلى ذلك.... وبعضهم ينظر إليه على أنه ذات مستقلة عليا، تتضمن الأفكار والمحاكمات العقلية والمشاعر، وإذا قلنا: إن العقل ذات مستقلة فإنه يرد علينا سؤال حول ماهية المادة التي يتألف منها العقل: هل هي نفس مادة الأجسام الطبيعية أو هي مادة أخرى؟ وإذا قلنا: إن العقل ليس أكثر من حوادث عقلية، وإن كل ما يفعله العقل هو تصميم سلسلة الحوادث العقلية، يظل السؤال مطروحًا حول طبيعة العلاقة بين الحوادث العقلية والحوادث الفيزيائية؟

وإذا كان جمهور الأطباء والعلماء اليوم لا يكادون يختلفون في أن وظائف العقل وأنشطته موجودة مجتمعة في الدماغ، فإن السابقين كانوا مختلفين في هذا، وقد كان كثيرون منهم يعتقدون ذلك أيضًا، لكن كان يُشكل عليهم ما ورد في كثير من النصوص مما يدل على أن آلة الفهم والإدراك هي ( القلب ) كما في قوله - سبحانه - : ﴿ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [ الأعراف: ١٧٩ ] وقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القرآن] أمَرَ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿ [ محمد: ٢٤ ] وقوله: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [ الحج: ٤٦ ]، وقد كانوا يدركون أن القلب الحسي ليس هو المقصود، وإنما هو مضخة لإيصال الدم إلى أجزاء الجسم؛ ولهذا فإن منهم من قال: إن المراد بالقلب في الآيات التي ذكرناها هو قلب معنوي روحاني متصل بالقلب اللحمي، ومنهم من قال: إن قلب الشيء هو باطنه؛ ومن ثم فإن أداة الفهم هي في باطن الإنسان، وهذا الباطن هو القلب اللحمي أو الدماغ. ويذكر بعض الباحثين اليوم أن بعضًا ممن زرعت لهم قلوب طبيعية وصناعية قد تغيرت عواطفهم على نحو جذري، مما يدل فعلاً على أن القلب اللحمي المادي هو مركز للعواطف والمشاعر... لكن في اعتقادي أن ما يذكر من ذلك لا يعدو أن يكون عبارة عن حالات فردية،



هي إلى الشذوذ أقرب، واحتمالات الوهم والخلط في هذه المسائل كبيرة جدًا، والله أعلم وأحكم.

العقل عقلان:

من المعروف أن أهل العلم يقسمون العقل إلى عقليْن: عقل أول وعقل ثان، والعقل الثاني هو في الحقيقة المعرفة والخبرة المكتسبة، وسأتحدث عن ذلك فيما بعد، بإذن الله تعالى.

العقل الأول في تعريف سهل قريب هو: مجموعة من الإمكانيات والاستعدادات والمبادئ الأولية التي وهبها الخالق - سبحانه - بني البشر؛ إذ كل واحد منا مزود بالقدرة على التذكر والتخيل والربط بين الأشياء والقدرة على التحليل والتركيب.... كما أن كل واحد يملك مبادئ أولية تشكل ركائز أساسية لبنيته الفكرية، وهذه المبادئ عالمية، لا تختلف باختلاف الأعراق والأجناس واللغات والأديان كما لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة.

وهذه بعض الأمثلة الشارحة لتلك المبادئ:

- الجميع يعرف أن النقيضين لا يجتمعان، السيارة التي في الشارع إما أن تكون متحركة أو ساكنة، ويستحيل أن تكون ساكنة ومتحركة في آن واحد. ونقول أيضًا: يستحيل أن تكون تلك السيارة خالية عن أحد النقيضين، أي ليست ساكنة ولا متحركة.

- الناس جميعًا يدركون أن الكأس الصغير لا يتسع لماء الكأس الكبير، ويدركون أن الظرف أكبر من المظروف، ويدركون أن الكل أكبر من جزئه، فأذن زيد لا تكون أكبر منه، والنجم لا يكون أكبر من المجرة.

- نحن نعرف أن فاقد الشيء لا يعطيه، وحين نقول لطفل أعطني رغيفًا، ويقول لك: ليس عندي رغيف، وتلح أنت عليه في طلب الرغيف، فإنه سيقول لك: قلت لك: ليس عندي رغيف، فكيف أعطيك إياه، أي: هذا مستحيل.

- نحن نعرف أن الترجيح - بغير مرجح - باطل، وعلى سبيل المثال فإنه إذا كان لدينا ميزان له كفتان، فإن العقل يقضي بأن تكونا في مستوى واحد ما لم يكن في

إحداهما شيء يجعلها أثقل، فتكون أخفض، أو يحركها الهواء، أو يضغط عليها أحد...

قال المناطقة: الدور باطل، أي: مستحيل، لا يتصور العقل وجوده، وللدور أمثلة كثيرة، منها أن يكون زيد حاملاً لعمرو، ويكون عمرو حاملاً لزيد، فيتصف كل منهما بصفيتين متناقضتين، وكأن يكون الشيء علة ومعلولاً في آن واحد، وذلك كأن نقول: المكان المنخفض يجذب إليه الماء، والماء يجذب إليه المكان المنخفض، وهكذا...

الطفل ابن الخامسة يمتلك هذه المبادئ، ويفكر على أساسها، ولا أريد أن أخوض هنا في البحث حول وقت امتلاكها، وهل كان يملكها عند الولادة، ولكن لم يكن يملك اللغة المعبرة عنها، أو أنه امتلكها عن طريق الحس والمشاهدة، المهم أن الناس جميعاً يملكون هذه المبادئ، ويفكرون على أساسها. ومن الواضح أن عقولنا - كما أشرنا - هي عبارة عن مفاهيم وأفكار وملاحظات وآراء ومشاعر تتشكل على نحو عام من واردات الحواس: السمع والبصر والشم والذوق واللمس، تلك الواردات يأتي معظمها مترابطاً، وذلك من خلال التزامن والحدث المتزامن؛ فتتشكل بنيات فكرية أولية وأساسية بناء عليها وانطلاقاً منها، إن الطفل يظهر ابتهاجه لرؤية ( الرضاعة )؛ لأنه يتذكر المتعة التي يجدها عند مصها، وتلك المتعة ترسخت في ذهنه من خلال تكرارها مرات عديدة، وكثير من الأطفال يكون حين يرون أمهاتهم وقد ارتدين عباءاتهن السوداء؛ وذلك لأن لبس العباءة ارتبط من خلال التكرار بخروج أمهاتهم من البيت وتركهم فيه. وحين يمر محسن من جانب شخص فقير، فقد يخفق قلب الفقير فرحاً إذا رأى المحسن يُخرج محفظته من جيبه؛ وذلك لأن ذلك المحسن قد تصدق على ذلك الفقير مرات عديدة، فارتبط مرور المحسن ومده ليدته إلى جيبه بالحصول على المال، أما الشخص الذي يتعرض للناس بالمسألة فإن بنيته الفكرية تجاه المحسنين والصدقات والعطاء تكون أوسع بكثير، إنه يعرف أين يجلس ومن يطلب الصدقة، ويعرف ماذا يقول كما يعرف المظهر الذي ينبغي أن يظهر فيه حتى يستدر عطف الآخرين، إن ( الشحاذة ) فن كامل له أصوله وأدبياته، وله رجاله وفرسانه وخبرائه! الطفل الصغير يتعرف على ( الماء ) في وقت مبكر، وهو يبحث عنه، ويطلبه عند الشعور بالظمأ، ويظن الطفل أن كل السوائل التي لها لون الماء يمكن أن تُشرب

ويكون لها نفس الطعم، ويكتشف مع الأيام أن الأمر ليس كذلك؛ بل يكتشف بعد مدة أن من الماء ما هو عذب، ومنه ما هو ملح لا يصلح للشرب، وهكذا يتكون عقل الإنسان من خلال بناء المزيد من البنى الفكرية، ومع كل بنية فكرية وتصنيف جديد للأشياء يحدث نمو لمشابك ومحاور عصبية داخل الدماغ، وبذلك ينمو الدماغ مع نمو الفكر، ويتحول الدماغ النامي والمبادئ والبنى الفكرية التي تم ترسيخها إلى أدوات نستخدمها خلال فهمنا للوجود وحكمنا على الأشياء، ولا شك أن تلك البنى لا تكون دائماً صحيحة، وما فيها من صحة وصواب وحادثة يختلف من شخص إلى آخر، ومن هنا تنشأ لدينا ( عقليات ) مختلفة، وبسبب اختلاف تلك العقليات تختلف نظرتنا للأشياء، وتختلف الأحكام التي نُصدرها عليها. ربما وقعت في التبسيط وأنا أشرح هذه القضية الشائكة جداً، ولهذا فلعل القارئ الكريم يتلقى هذا الشرح على أنه مقارنة وطرح غير حاسم.

بقي أن أقول: إن علماءنا القدامى نظروا إلى العقل على أنه أداة لإرشاد صاحبه إلى الطريق القويم، كما أنه أداة للانضباط الذاتي ولجم الأهواء والبعد عن طريق الرذيلة، وكل ما يُخلُّ بالمروءة، وحين نقرأ ما قالوه في هذا الشأن يخيل إلينا أنهم جعلوا مفهوم ( العقل ) شيئاً أشبه بالمرادف لمفهوم ( الحكمة )، وفي هذا يقول سفيان الثوري: ( ليس العاقل هو الذي يعرف الخير من الشر، ولكن العاقل هو الذي يعرف الخير، فيتبعه، ويعرف الشر، فيتجنبه )، ويقول محمد بن ورد بن نصرويه: ( العقل أن يغلب حلمك جهلك وهواك ). وعن سفيان بن عيينة أنه قال: ( لا تنظروا إلى عقل الرجل في كلامه، ولكن انظروا إلى عقله في مخارج أموره ) أي في حسن تدبيره لشؤونه. هذا المنحى الأخلاقي السلوكي في توضيح معنى العقل، يشكل نوعاً من الارتباط بين ثمرات استعمال العقل وبين المنهج الرباني والآداب الشرعية التي يؤمن بها المسلم، ولا شك في أن أعظم وظيفة للعقل أن يساعد صاحبه على العيش وفق مرادات الله - تعالى - وأن يساعده على النجاة من عذابه، وحين نغض الطرف عن هذا المعنى، فقد يصبح لدينا في الأمة الكثير من الأذكياء والمبدعين والمخترعين والقليل من الحكماء أرباب البصيرة والعقول النيرة وهذا لا يكون أبداً أمانة على الرشاد والفلاح.

## الحقيقة أولاً



الحق والحقيقة هما ركنا الحياة الإنسانية ، فإحقاق الحق يعني استقامة المجتمع وقدرته على مقاومة شرور العدوان والطغيان والنزوات... وفهم الحقائق يعني أننا نعرف أنفسنا، ونعرف المحيط الذي نعيش فيه، ونعرف ماضينا وسنن الله - تعالى - الماضية في خلقه، وهذا يشكل شرطاً مهماً لتقدم البشرية وازدهارها وشرطاً مهماً لتجاوز الكثير من المشكلات التي تعاني منها.

خدمة الحق والحقيقة والدفاع عنهما والامتنال لدلولاتهما شأن من شؤون النفوس الكبيرة، وقد أخبرنا ربنا - سبحانه - أن من الناس من يتفاعلون مع الحق ويغتنطون بمعرفته إلى درجة البكاء: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [ المائدة: ٨٣ ] .

الشغف بمعرفة الحقائق من صفات المفكرين العظام؛ حيث إن من الصعب أن نجد مفكراً كبيراً لا يهتم بالحصول على درجة عالية من الوضوح لكل القضايا والمسائل التي يفكر فيها؛ وذلك لأن الاهتمام بذلك والسعي إليه من الأمور التي تشكل فارقاً جوهرياً بين المفكر وبين غيره من المتخصصين الذين قد يكون في حوزتهم الكثير من المعلومات، لكن لا يستهويهم البحث عن الحقائق أو صياغة الأفكار العظيمة.

قضايا اكتشاف الحقيقة وفهمها واحترامها وخدمتها قضايا ذات تفرعات كثيرة، وفيها الكثير من الغموض، وتحتاج إلى الكثير الكثير من الشرح؛ ولهذا فسأحاول إلقاء بعض الأضواء عليها من أجل تقريبها للقارئ الكريم قدر الاستطاعة:

١ - الحقيقة هي الشيء الثابت يقيناً، ولا ريب أن من الحقائق ما هو واضح الثبوت حتى لو لم نره؛ حيث لا يشك أحد أن وجود النبي ﷺ في مرحلة تاريخية معينة كان حقيقة ساطعة، ولا شك أن هناك بلداً اسمه الصين... هذا النوع من الحقائق راسخ وإدراكه بسيط، لكن هناك ما لا يحصى من الحقائق التي ما زالت موضع جدل.

إن لكل شيء وجودين: وجودًا ماديًا في الواقع ووجودًا معنويًا في عقولنا، وهو الصورة الذهنية التي رسمناها عن ذلك الشيء أو الحكم الذي أصدرناه عليه، وعلى سبيل المثال: فإننا حين نقول: إن فلانًا هو أعلم الناس بالمذهب المالكي، فإن هذا يشكل الصورة الذهنية التي رسمناها عنه، والحكم الذي أصدرناه عليه، وأما الواقع فقد يكون كذلك فعلاً، وقد لا يكون، والدليل على ذلك هو أن أهل العلم كثيرًا ما يختلفون في كون فلان هو أعلم أهل زمانه أم فلان؟ وفي كون فلان أشجع أم فلان....؟ الواقع واحد، والحقيقة واحدة، لكن الصور الذهنية التي رسمناها عنها مختلفة. وهذا يعني أن على الواحد منا أن يدرك أنه وهو يصدر الأحكام يمارس الاجتهاد، ونحن نعلم أن المجتهد يخطئ ويصيب. بعبارة أخرى: هناك حقائق متفق عليها، وهناك آراء شخصية لأهل العلم، وإن المسيرة العلمية على كل الأصعدة تمضي نحو تمحيص الآراء وتجاوزها في اتجاه بلورة المزيد من الحقائق، ومن خلال فرز المزيد من الآراء، وفي خضم الحراك المعرفي والعقلي قد يتحول رأيي ما إلى حقيقة راسخة، وقد تتحول حقيقة كانت موضع اتفاق في يوم من الأيام إلى مجرد قول يقوله أحد أهل العلم، ويختلف فيه مع غيره، والحقيقة أنه حين يسود الجهل ويخيم الجمود العقلي يسارع الناس إلى تصديق كل ما يسمعون به ويتلقونه على أنه حقيقة ثابتة، مع أنه في الواقع لا يعدو أن يكون رأيًا من الآراء، انظر مثلاً إلى آراء كثير من الأطباء القدامى ونظرياتهم في تشخيص الداء ووصف الدواء تجد أن أهل زمانهم تلقوها على أنها حقائق ثابتة، ويتبين اليوم أن كثيرًا منها لم يكن صحيحًا، وهذا ما حدث في كل العلوم دون استثناء.

٢ - إن العقل الإنساني محدود - إلى مدى بعيد - بحدود الحواس التي متعنا الله - تعالى - بها ، وبما أن طاقة حواسنا على التواصل مع الأشياء وعلى التماس مع المدركات محدودة وضئيلة، فإن من المتوقع أن لا نظفر إلا برؤية محدودة للحقائق، وإن من سنن الله ﷻ في هذا الشأن، أننا كلما اقتربنا من الشيء الذي نريد رؤيته ومعرفته - رأينا مساحات أقل وتفاصيل أكثر، وكلما ابتعدنا عنه رأينا مساحة أكبر وتفاصيل أقل، وهذا ينطبق على المعنويات والماديات، وعلى سبيل المثال فإن المتخصص في التاريخ المعاصر لمدينة من المدن يرى من التفاصيل والجزئيات أكثر بكثير

مما يراه المتخصص في تاريخ دولة فيها عشرات المدن، وإن المتخصص في مناسك الحج يعرف تفريعات أكثر بكثير من الذي يقرأ في كل أبواب الفقه.... ما الذي يعنيه هذا بالنسبة إلى من يريد تحسين سوية المحاكمة العقلية لديه؟

إن هذا يعني شيئاً مهماً، هو أن تركيز البحث والفهم والخبرة في موضوعات صغيرة يجعلنا نفهمها بشكل جيد، لكن هذا يحرماننا من فهم شيء مهم، هو الامتداد المعرفي لتلك الموضوعات والعلاقات التي تربطها بالعلوم الأخرى، وإذا عدنا إلى مثال التخصص في تاريخ إحدى المدن نجد أن من المهم للمتخصص أن يعرف شيئاً عن تاريخ المدينة في العصور السابقة، وأن يعرف نوعية العلاقات الثقافية والتجارية.... التي تتبادلها مع المدن الأخرى، وهذا يتطلب منه أن يقرأ في الجغرافيا واللغة وعلوم الإنسان وعلوم أخرى، وإذا لم يفعل ذلك سيجد أن معرفته بتلك المدينة محاصرة ومخنوقة ومشوهة. أما الذي يقرأ في عدد من التخصصات دون أن يهتم بأي منها، فإنه يخوض في حقول معرفية أوسع، ويطلع على معلومات أكثر، لكنه يجد نفسه عاجزاً عن التحقيق في المسائل الكثيرة التي يطلع عليها، وعاجزاً عن الإضافة إلى أي علم يقرأ فيه؛ بل ربما شكلت قراءاته المتفرقة عقلاً مملوءاً بالأوهام والمعارف غير المصححة والمدققة، إذن سيكون من المفيد أن يبذل طالب العلم ( ٦٠٪ ) من جهده ووقته في تخصص محدد، وأن يترك ( ٤٠٪ ) من ذلك للقراءة في فضاءات ذلك التخصص وامتداداته، وفي العلوم الشرعية والعامة.

٣ - يهدف القرآن الكريم - في جملة ما يهدف إليه - إلى بناء (إنسان الحقيقة)؛ الإنسان الذي يبحث عن الحقيقة ويعترف بها، ويتهج عند العثور عليها، ويغير في تفكيره وأوضاعه وفق معطياتها... وفي هذا الإطار نجد أن الله - تباركت أسماؤه - يعلم المسلمين أن يسموا الأشياء بأسمائها: النصر نصر، والهزيمة هزيمة، والخير خير، والشر شر.... بل إن القرآن الكريم يعاتب نبيه ﷺ على بعض ما بدر منه وعلى بعض اجتهاداته، وذلك حتى تظل راية الحقيقة خفاقة، وحتى تظل معالمها واضحة. في غزوة أحد شعر المشركون أنهم حققوا نصراً على المسلمين، وغسلوا العار الذي لحق بهم يوم بدر، مع أنهم لم يحققوا كل أهدافهم، وحين كان المسلمون يلحقون جراحهم ويحاولون استعادة توازنهم، نزل القرآن الكريم ليضع النقاط على الحروف في أسباب

الهزيمة وملاساتها؛ حيث يقول ﷺ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّدَكُمْ اللَّهُ وَعَدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَسِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وقال: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَلَيْسَ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. إن القرآن الكريم هنا لم يوضح للمسلمين أسباب هزيمتهم في أحد، ولكن حدثهم بما تكنه صدور بعضهم من إرادة الدنيا والسعي إلى مغائرها. ويقول - سبحانه - معاتباً رسوله ﷺ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ...﴾ [الأحزاب: ٣٧] تقول عائشة رضي الله عنها: (لو كنتم رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن لكنتم هذه الآية). وآيات العتاب عديدة ومعروفة، والمقصود هو ظهور الحقائق وإطلاع الناس عليها ليعرفوا كيف يتعاملون معها.

٤ - البحث عن الحقيقة واحترامها والجهربها يحررنا من كثير من الأمراض الخلقية والنفسية والاجتماعية، وأهم ما تحررنا الحقيقة منه هو الوهم وخداع النفس ورؤية الأشياء على غير ما هي عليه. إن من الواضح أن الإنسان يملك قدرة فائقة على تسمية الأشياء بغير أسمائها، وإن ما تملكه اللغة من مرونة وثناء وأساليب، يساعد على ذلك مساعدة كبيرة وعلى سبيل المثال، فإن في إمكاننا أن نعبر عن الدول المتخلفة على الصعيد العمراني بقولنا: إنها متخلفة ومتخلفة جداً، ويمكن أن نقول: إنها نامية، وناهضة، وواعدة، وماضية في طريق التقدم، ونقول: إن لديها الكثير من الجوانب المشرقة ونقول: إنها متفوقة على الدول المتقدمة في بعض المجالات.. فأى هذه التعبيرات يا ترى أدق في الدلالة على الواقع؟ وهل يمكن أن تشترك جميعاً في درجة واحدة من صدق الدلالة، أو أن ذلك غير ممكن؟

مهما يكن الجواب فإنه يكفي إدراك الحقيقة والاعتراف بها - فضلاً وأهمية - أنهما يفتحان أمامنا باباً لنقد أنفسنا ومراجعة أخطائنا وتشخيص أدوائنا وعيوبنا، وهذه مهمة المصلحين والدعاة والمفكرين وقادة الرأي. حتى تحررنا الحقيقة فإن علينا أن

نتحمل الأوجاع التي تثيرها والانكسارات التي تفضحها، وعلى المذنبين أن يتحملوا مسؤولية ذنوبهم، وعلى الذين حازوا ما ليس من حقهم أن يكفوا عن التماذي في ذلك، وأن يعيدوا ما اغتصبوه إلى أهلهم إذا أرادوا للحقيقة أن تحررهم من التخبط الداخلي، وأن تمنعهم من المضي في طريق الهلاك. الحقيقة تحررنا بشرط أن نقبل تحريرها، وإلا زادتنا خبالاً واضطراباً.

٥ - لدينا عدد من القواعد التي تساعدنا - إذا عملنا بمقتضاها - على بناء مجتمع الحقيقة، ومن تلك القواعد الآتي:

أ - حين نريد معرفة الحقائق في شؤوننا الاجتماعية، وحين نريد تحليل التاريخ واستخراج العبر منه، وحين نريد فهم واقعنا الأخلاقي والحضاري وتحديد ملامحه، فإننا نتحرك حينئذ في مناطق معتمة، ويكون إدراكنا للحقائق جزئياً ونسبياً، وعلى سبيل المثال، فإننا حين نقول: إلى أي مدى يُعدّ مجتمع المدينة الفلانية ملتزماً بالأحكام الإسلامية، فسنواجه في الوقوف على الجواب الصحيح مشكلة تعريف الالتزام، كما سنجد مشكلة في معرفة واقع الناس، وإذا سألنا الناس عن التزامهم، فهل سيعرفون على نحو جيد معنى الالتزام؟ وإذا عرفوه، فهل سيعبرون عن حقيقة أوضاعهم؟ من هنا نقول: إن علينا أن نبحث عن الحقيقة لأننا فعلاً لا نعرف، كما أن علينا أن ندرك أن الحقائق التي سنعثر عليها في الميادين التي أشرنا إليها هي حقائق هشة ونسبية وغامضة، ويجب أن نأخذ هذا بعين الاعتبار حين نعبر عنها، فلا نستخدم القطع والجزم والعبارات الحادة.

ب - كل واحد من المتخصصين والباحثين في المجالات الحضارية كافة يملك جزءاً من الحقيقة، وهناك أمور لا يعرفها أي باحث؛ حيث مضت سنة الله في خلقه أن يجعل في كل حقيقة من الحقائق الكبرى عناصر غيبية استأثر بعلمها وحجبها عن عباده؛ فقد نعرف - مثلاً - أن النوع الفلاني من السيارات يخدم ثلاث سنوات دون الحاجة إلى صيانة، ولكن لا يعرف أحد مقدار نسبة الذين يقودون ذلك النوع من السيارات بمهارة عالية وحكمة، ولا نسبة الذين يشعرون بالمتعة عند قيادتها، ولا نسبة الذين يستخدمونها في الدعوة إلى الله - تعالى - أو في الذهاب إلى الملاهي..... إذن سيكون البحث المشترك والحوار ومقارنة الآراء بعضها مع بعض... مطلوباً من



أجل تكامل معلوماتنا وخبراتنا حول تلك الحقائق.

ج - لا ننظر إلى الحقائق من أفق واحد، ولا من منطلق شروط واحدة؛ ولهذا فإن الحقيقة الواحدة تُرى بطرق مختلفة، وتترك في أذهاننا ونفوسنا آثارًا متباينة، وأعتقد أن اختلاف طبائع الناس واختلاف مصالحهم وتباين المعلومات والمعطيات المتوفرة لديهم، ودرجة الوعي الاجتماعي السائد... إن كل ذلك يجعلهم يختلفون تجاه الكثير الكثير من الحقائق، وعلى سبيل المثال فإن نظرة المسلم إلى ( العسل ) وإلى ( الحبة السوداء ) تنطلق من أفق النصوص الكريمة الدالة على ما يجعل فيهما من شفاء عظيم، أما غير المسلمين فإن نظرتهم إليهما تكون من أفق التحليل الكيميائي في المخبر. ولك أن تقول مثل هذا في ( الربا )؛ حيث إن الاقتصادي المسلم يرى فيه تخريبًا للاقتصاد وللحياة الاجتماعية ومجلبة لغضب الله - تعالى - أما الاقتصادي الرأسمالي فإنه يرى فيه عمادًا أساسيًا للنظام الاقتصادي؛ بل لا يتصور نهضة اقتصادية من غير ربا. وعلى صعيد المصالح نجد نظرة الناس للغيث مختلفة؛ فالفلاح ينتظره بلهف شديد، على حين أن الذي تعهد تعبيد طريق، وحفر فيه الحفر الكثيرة، يرى في المطر معوقًا كبيرًا عن عمله.

في حالات الإعراض عن الدين والانغماس في المعاصي ينظر كل واحد من الناس إلى أمور مثل البسمة في افتتاح الخطاب وإلقاء السلام وقول: ( إن شاء ) - على أنها أمانة على التدين والالتزام، ولا يكون الأمر كذلك في حالات إقبال الناس على التدين، والالتزام بتعاليم الإسلام، وإنما يتطلعون إلى أداء الفرائض والبعد عن المحرمات...

وقد عبر عن هذه الوضعية أحد الشعراء الأذكياء حين قال:

يُقضى على المرء في أيام محنته أن يرى حسنًا ما ليس بالحسن

الأزمات والعقبات من الأمور التي تتباين نظرة الناس إليها من زمان إلى زمان، وفي هذا السياق فقد كان معظم الخلق - إن لم نقل جميعهم - ينظرون إلى الأزمات والمعوقات على أنها شر خالص، ويجأرون بالشكوى منها، لكننا اليوم نرى فيها محرضًا على الإبداع، ومحفزًا لروح المقاومة - كما نرى فيها سدًا في وجه الترهل والتراخي والتسبب.. ما الذي يعنيه هذا الكلام؟

إنه يعني أن الحقائق تتلون بحسب الأفق الذي ننظر منه إليها، ومن هنا فإن علينا أن نفكر ونتحاور في كثير من المسائل، وكأنها لا تتمتع بحقيقة واحدة، وإنما بحقائق متعددة ومتباينة؛ فالعالم في نهاية المطاف ليس شيئاً غير ما نراه.

٦ - كثيراً ما تظهر أمانة المفكر من خلال تعامله مع الحقيقة وعرضه لها، وهذه المسألة في غاية الأهمية؛ لأن اكتشاف الزغل فيها صعب. المفكر إنسان أسلس له الكثير من العقول القياد، ليقدم لها الأفكار والمفاهيم والرؤى التي تنير طريقها وهذا يحتمله مسؤولية البحث عن الحقيقة بصدق وإخلاص وتقديمها في الأسلوب المناسب لها.

حين يتوصل المفكر إلى نظرية، أو مفهوم أو يصوغ مقولة... فإنه يطّلع في كثير من الأحيان على العديد من الآراء التي تخالفه فيما يقول ويطرح، كما أنه يدرك أحياناً أنه تسرع في إصدار حكم، أو عمم القول بأوسع مما يحتمله الواقع... وفي كل هذه الأحوال فإن الأمانة تقتضي إعادة الصياغة وتعديلها بما يتلاءم مع الوعي المتنامي.

ومن المهم في هذا السياق ألا نعرض ما نعتقد أنه يقيني في صيغة تفيد الظن، وأن لا نعرض ما هو موضع شك وتردد في صيغة جزم وقطع، كما أن من المهم أن نحترز أشد الاحتراز من ( التعميم )؛ وذلك لأن النفوس تنجذب إليه بصورة كبيرة جداً. المفكر يحترس، ويحاول أن يكون دقيقاً وأميناً فيما يعرضه؛ لأن هذا هو استحقاق الريادة الفكرية، وهو بهذا يخالف نمطين من عرض الحقائق، لا يخلو كل واحد منهما من شيء من الزغل وتشويه الحقيقة:

١ - الأسلوب الذي يتبعه المحامي المصّر على كسب دعوى موكله، إنه يُظهر كل الأدلة التي تساعد في الفوز بالقضية، ويُخفي كل ما يعثر عليه من أدلة تدعم وجهة نظر خصم موكله، والواقع يشهد أن المحامين الذين يرفضون الترافع في قضايا لم يقتنعوا بعادتها دائماً قليلون، والأكثرية تبحث عن نصوص قانونية وسوابق قضائية تدعم قضايا موكلهم، هذا الطريق في التعامل مع الحقائق بعيد عن طريق المفكر الحر والأمين.

٢ - الأسلوب الذي يتبعه بعض الساسة في التعامل مع الأحداث، وقد صار من المألوف القول: إن هذا الحكم الصادر في حق فلان ليس قانونياً، وإنما هو حكم سياسي، إننا حين نسيّس الحدث أو الواقعة أو الفعل، فإننا ننظر إليه بعيون المصلحة

أو بعيون العاطفة، وكلا النظرتين غير دقيق، ومن المؤلف أن يعتك جيشان عراقًا شديدًا ويحقق أحدهما نصرًا حاسمًا، ثم يدعي الجيش الآخر أنه هو المنتصر، وما ذلك إلا لأنه سييس المعركة وسييس نتائجها، فخرج الحكم من دائرة الاعتبار العسكرية إلى دائرة الاعتبار السياسية. والحقيقة أن هذا النوع من التعاطي مع الحقائق يبعث المرارة في النفوس، ويؤدي إلى حدوث شرخ كبير في القاعدة الشعبية العريضة، وينبغي الابتعاد عنه على مقدار ما نستطيع.

\* \* \*

منتدى مجلة الإبتسامه  
[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)  
 مايا شوقي

## ما التفكير؟



وهب الله ﷻ للإنسان دماغًا مختلفًا عن أدمغة باقي الحيوانات، وهذا الدماغ يظل في حالة من العمل المتواصل خلال أوقات اليقظة، لكن ما يشتغل عليه يتعلق غالبًا بتسيير أمور الحياة اليومية، وتحليل المواقف الصغيرة، وبعض التفكير هو عبارة عن تحريك للهموم وتحريك للمواقع ليس أكثر. الإنسان كائن ناطق، وحين لا يجد من يتحدث إليه يتحدث مع نفسه، والمحادثة مع النفس هي تفكير، وبهذا الوصف يمكن القول: إن كل إنسان هو مفكر، ويمارس التفكير، وهذا بالطبع ليس هو المقصود في بحثنا هذا، إنما المقصود ذلك النوع من عمل الدماغ الذي يستهدف حل مشكلة أو الوصول إلى شيء مجهول أو اكتشاف علاقة غير ظاهرة... ولعلي أحاول الجواب على السؤال الذي أثرته في العنوان عبر المفردات التالية:

### ١ - التفكير انتقال من حال إلى حال:

يقول ابن سينا عن التفكير: إنه انتقال الذات العارفة مما هو حاضر إلى ما هو ليس بحاضر. وهذا تعريف جيد ولتوضيحه نقول: إن الإنسان لا يرى سوى جزء صغير من الواقع، ونظرتة للماضي تخمينية، وهو يودُّ استشراف المستقبل من أجل التعامل معه والاستعداد له، ولدى كل واحد منا مشكلات يود التخلص منها ومعالجتها.... وهذا كله يتطلب شيئًا واحدًا، هو تجاوز ما هو موجود ومعلوم إلى ما ليس موجودًا ومعلومًا، وهذا التجاوز يتم عن طريق استخدام إمكاناتنا الذهنية فيما نملكه من معلومات ومعطيات وأفكار وملاحظات... إننا إذ نفكر نشبه الذي يخض اللبن ليستخرج منه (الزبد)، وكما أن اللبن قد يكون قليل الدسم، وبالتالي فإن ما سنحصل عليه من الزبد سيكون قليلًا، كذلك قد تكون المعلومات والخبرات التي لدينا حول ما نفكر فيه ضئيلة أو غير كافية، وحينئذ فإن الأفكار الجديدة التي سنحصل عليها ستكون ضحلة أو خاطئة. وإذا كانت إمكاناتنا الذهنية متواضعة، فإننا حينئذ سنشبه آلة

الخض للبن حين تكون غير مناسبة، وسنشبه الذي يقوم بالخض حين يكون ضعيفاً أو غير خبير، النتيجة أيضاً القليل من الزبد والقليل من الأفكار الجيدة.

## ٢ - التفكير استقصاء للخبرة:

التفكير في بعض الأحيان يكون عبارة عن عملية استقصاء للخبرة وتقليب لمحصلها من أجل اتخاذ قرار أو حل مشكلة أو إصدار حكم، هذا قاضٍ جاءه زوجان يريدان الطلاق، وأحب أن يسعى في الصلح بينهما، إنه بعد أن يسمع من كل واحد منهما ما لديه تجاه صاحبه، يقوم وعلى نحو سريع جداً باستعراض الكثير من الحالات المماثلة التي عُرضت عليه، ويحاول فرزها واستحضار أكثرها شبهاً بالحالة التي أمامه، ثم يقوم بانتقاء الحالة التي نجح فيها في الإصلاح بين الزوجين، ومع ذلك الاستحضار يحاول أن يتذكر الأمور التي نصح بها الزوجين في تلك الحالة حتى ينصح بها الزوجين اللذين أمامه، وفي الغالب يفلح في ذلك. ماذا لو لم يمر به مثل هذه الحالة؟ وماذا لو كانت قدرة القاضي على التذكر ضعيفة؟ إن النتيجة هي أن استقصاء القاضي لخبراته سيكون محدود الفائدة.

## ٣ - التفكير بناء للنماذج:

من أعظم ما يمكن أن نفكر من أجله ( بناء النماذج )؛ حيث إن عقولنا تكره الفوضى، وتكره الغموض، وتجد صعوبة بالغة في التعامل مع الأمور العائمة، وغير المتعينة؛ ومن ثم كان بناء النماذج عملاً عظيماً؛ لأنه يسهّل علينا عملية فهم العالم وعملية التربية والتعليم أيضاً، النموذج الذي نبنيه في عقولنا لشخص أو حالة أو وضعية... هو عبارة عن صورة عقلية نرى من خلالها الواقع، أو هو أشبه بخريطة معرفية، نزعّم أنها تحكي الواقع، وترشد إليه. النموذج مكوّن من عدد من العناصر، بعضها يتم التقاطه من الواقع المشاهد، وبعضها يتم استخراجها من الخبرة الشخصية، وبعضها يتم إحضاره عن طريق الخيال. دعونا الآن نقوم بمحاولة لبناء ( نموذج ) للشخص ( الكذاب )، فما سمات ذلك النموذج؟

١ - يميل إلى الإكثار من الكلام دون الشعور بالمسؤولية حيال دقة ما يقول.

٢ - يكثر من الأيمان حتى يقطع الطريق على من يتشكك، أو يشكك في صدقه.

٣ - مولع بسوق الغرائب، وميال إلى المبالغة.

- ٤ - ينظر إلى نفسه على أنه ذكي، ويعرف كيف يثير إعجاب الآخرين.
  - ٥ - لا يبالي بالعهود التي يقطعها على نفسه.
  - ٦ - تشعر وهو يحدثك أنه رجل المصادفات والمفاجآت الغريبة، فما يجري معه من أحداث لا يجري مع غيره.
  - ٧ - ماهر في سوق البراهين على صحة قوله بسبب استسهاله الكذب.
- هذه السمات المكونة لهذا النموذج الكذاب اجتهدية، وقد لا تتوفر مجتمعة لدى بعض الكذابين، لكن أعتقد أنها موجودة لدى معظمهم، وقد تكون هناك سمات أخرى لم أهتم إليها. النموذج الذي نبنيه قد يكون لأشخاص وقد يكون لمنتجات؛ فالمهندسون يبنون نماذج للأبنية الاقتصادية منخفضة التكلفة، كما بنوا نماذج للسيارات الفارهة.
- أنا هنا أدعو القارئ الكريم إلى أن يشحذ ذهنه وخياله، وينمي قدرته على التفكير والتركيب من خلال محاولة بناء عدد كبير من النماذج، ثم عرضها على بعض الأساتذة والزملاء من أجل مناقشتها، وما يمكن أن يكون فيها من نقص، وهذه بعض العناوين لنماذج يمكن العمل على بنائها:
- الطالب المجذّب.
  - الإنسان المتسامح.
  - الشخص المسوّف.
  - الشخص الجشع.
  - الإنسان الميال إلى النقد.
  - مدرسة ممتازة.
  - بيئة عمل يسودها التسبب والغموض.
  - أب حازم في تربيته.
  - ضيف ثقيل الظل.
  - مزرعة ناجحة.
  - طالب مهمل.

إن النموذج الذي نبنيه يشكل أداة لفهم صاحبه والاقتراب منه، ومن هنا فإننا من خلال العثور - مثلاً - على صفتين من صفات الإنسان الجشع لدى شخص من الأشخاص، يمكن أن نتأمل وندقق لتأكد من وجود باقي مكونات النموذج، فإذا لم نجد لها، قلنا: فلان لا يعد جشعاً، والعكس صحيح، وهكذا يكون فن بناء النماذج هو نفسه فن مكافحة العماء والغموض وفن تسهيل الإدراك والقبض على الحقائق.

#### ٤ - التفكير فن طرح الأسئلة:

طرح الأسئلة حول القضايا المختلفة من صميم عمل المفكر ومن صميم التفكير الراجي، وإنما كان طرح الأسئلة مهمّاً وحيويّاً؛ لأنه يفتح طريقاً جديدة للتبصر والفهم، ويكسر الاتساق المصطنع للثقافة. ومن الواضح أن أفكارنا حول الموضوعات المختلفة تتناسق في أشكال تحاول أن تكون منطقية ومفهومة، وهذا ملموس جدّاً في البيئات الأمية والبدائية؛ حيث تسود المعارف الضحلة، ويأتي المفكر ليوضح أن ما يُظن أنه منطقي ليس كذلك، وما يُظن أنه مكتمل ومفهوم ليس كذلك، إن السؤال الكبير يشبه حجراً كبيراً نلقيه في بحيرة صغيرة، والسؤال الصغير يشبه حجراً صغيراً نلقيه في بحيرة كبيرة، ولعل من الأسئلة التي تعبر عما نريده الأسئلة التالية:

- لماذا نجد أن معظم المسلمين فقراء مع أننا نملك أفضل نظرية اقتصادية في العالم؟
- لماذا تنفق المرأة المسلمة على الحليّ والزينة والملابس أضعاف ما تنفقه المرأة الأمريكية، مع أن المسلمة تعتقد أن الآخرة خير من الأولى، وتعتقد بأهمية الزهد وخطورة التبذير؟

- لماذا لا يستطيع معظم الشعوب الإسلامية التخلص من حكومة سيئة حتى لو أراقوا الدماء، وتستطيع الشعوب الغربية فعل ذلك دون أن تريق الدماء مع أن النزاهة في الحكم والشورى وتغليظ سفك الدماء والزهد في المناصب أمور أساسية في ديننا؟
- لماذا لا نجد لدينا من الأعمال الخيرية والتطوعية ما يداني ما هو موجود لدى بعض الأمم غير المؤمنة، مع أننا نملك عدداً كبيراً من النصوص والآداب التي تمجّد العمل الخيري؟

- لماذا ينتحر الناس بنسب مرتفعة في دول مرتاحة في معيشتها إلى حد الترف

كما هو الشأن في الدول الإسكندنافية؟

- كثيرًا ما نقول: إن تسلط الغرب علينا هو سبب ضعفنا.... لماذا لا نقول: إن

ضعفنا هو سبب تسلطه علينا؟

إن سؤالاً واحداً قد يفجر من المعرفة ما لا يفجره ألف جواب؛ وذلك لأن السؤال الجيد يبعثنا على إعادة النظر في بعض المقدمات والمنطلقات والمسلمات، وهذا ضروري جدًا للتقدم العقلي والحضاري.

٥ - التفكير من أجل تخطي الحلول القائمة:

كثيرًا ما يواجه الفرد - كما تواجه الشركات والحكومات - مشكلات عديدة، ويتم اعتماد بعض الحلول في مرحلة من المراحل، وكثيرًا ما يكون الحل غير ملائم أو يكون باهظ التكاليف، وحينئذ يأتي دور العقل الذكي ليجد بدائل للحلول المستخدمة، تفني بالغرض، وتكون أقل كلفة، أو تكون أكثر فعالية وأعظم جدوى، ولو كانت كلفتها أعلى. المعروف أن الإنسان لم يستخدم سوى جزء يسير من طاقاته وقدراته الذهنية، كما أن من الواضح أن ضعف الإمكانيات المادية في البلاد النامية أدى إلى قلة ( البرامج البحثية ) وضعفها، مما حرم عقول أبنائنا من العمل في أطر حيّة وملائمة.

المال الوفير أحيانًا يصرف العقل عن الإبداع والبحث عن حلول اقتصادية عن طريق البحث والتطوير، وهذا مشكل آخر، ومما يستشهد به في هذا السياق ما يُذكر من أن علماء وكالة الفضاء الأمريكية ( ناسا )، حين كانوا يجهزون الرحلات للفضاء الخارجي واجهتهم مشكلة كبيرة، هذه المشكلة تتمثل في أن رواد الفضاء لن يستطيعوا الكتابة بالأقلام بسبب انعدام الجاذبية، بمعنى أن الحبر لن ينثال من القلم على الورق، فماذا يفعلون لحل هذه المشكلة؟

قام العلماء ببحوث استمرت عشر سنوات، وتم إنفاق أكثر من اثني عشر مليون دولار من أجل تطوير قلم جاف تمكن الكتابة به في حالة انعدام الجاذبية، كما تمكن الكتابة به أيضًا على سطح أملس مثل ( الكريستال )، وحين واجه الروس هذه المشكلة حلوها بطريقة بسيطة جدًا، ومن غير إنفاق أي مال، إنهم قرروا استخدام



## أقلام الرصاص بدلاً من أقلام الحبر!

مثال آخر على تخطي الحلول الناجزة يأتينا هذه المرة من اليابان؛ فقد كان هناك مصنع عملاق لصناعة الصابون، وحدث أن وقع اختلاط كبير بين الصناديق المعبأة والصناديق الفارغة، فماذا فعلوا لحل تلك المشكلة؟ إنهم قاموا بصناعة جهاز يعمل بالأشعة السينية متخصص بالكشف عن الصابون بداخل الصناديق، ووضعوه أمام خط خروج الصناديق بقسم التسليم، وعينوا عمالاً جددًا، مهمتهم إبعاد الصناديق الفارغة التي كشفها الجهاز. بعد مدة حدثت المشكلة نفسها في مصنع للصابون أصغر من المصنع الأول، فما كان من القائمين على المصنع إلا أن ابتكروا بديلاً للأشعة السينية، هو عبارة عن مروحة إلكترونية، قاموا بضبط قوة دورانها بما يناسب وزن الصندوق الفارغ، وتم توجيهها إلى خط خروج الصناديق بقسم التسليم؛ حيث يسقط الصندوق الفارغ من فوق السير من تلقاء نفسه بفعل اندفاع الهواء. إنه حل أقل تكلفة، وأيسر، بسبب وجود عقل مبدع. في الهند تعمل إحدى شركات الحاسب الآلي على تخطي النماذج الحاسوبية السائدة، والتي يصعب اقتناؤها على كثير من أبناء الفقراء في العالم، وهذا التخطي سوف يتجسد في حاسب آلي بسيط يلبي الكثير من حاجات طلاب المدارس، ولا يتجاوز ثمنه خمسة عشر دولارًا!

هل نستطيع إذن القول: إن كل واحد منا يحمل فوق كتفيه منجمًا لأفكار لا تُقدَّر بثمن؟ نعم ولا شك، لكن بشرط أن ندخل إلى ذلك المنجم ونبدأ في الاستفادة منه.

## ٦ - التفكير والعواطف:

الإنسان وحدة واحدة، ولكن كثيرًا ما نجد أنفسنا مضطرين لتجزئته إلى أجزاء مختلفة بغية تسهيل الفهم، وإذا كان للجانب الروحي والنفسي تأثير في الجانب الجسمي، وكان للجانب الجسمي تأثير في الجانب الروحي والنفسي، فإن تبادل التأثير بين الجانب العقلي والعاطفي كائن من باب أولى.

العواطف والأحاسيس تتسم بالفوضى وبالغموض والقليل من العقلانية والمنطقية؛ فللقلب حين يحب ويغض ويفرح ويحزن... أسبابه التي لا يحتاج إلى الموافقة عليها من عقل أو خبرة أو تجربة.. وأعتقد أن من المهم لنا ونحن نحاول تكوين عقلية راشدة

وناضجة أن نحاول التعرف على طبيعة العلاقة التي تربط أفكارنا بعواطفنا؛ لأننا من غير الوعي بهذه العلاقة لا نعرف مدى صواب آلية التفكير والمحكمة العقلية لدينا ولعلي أشير إلى ذلك عبر النقاط الآتية:

أ - إذا تساءلنا عن المكنن الذي يكمن فيه الجوهر الإنساني: هل هو الفكر أو العواطف والمشاعر؟ فإنني لا أتردد في القول: إن عواطفنا وأحاسيسنا هي التي تشكل البنية العميقة لنا؛ فالإنسان يكون إنساناً ليس على مقدار تفكيره، ولكن على مقدار مشاعره وعواطفه؛ وعلى الصعيد العملي كثيراً ما يكون من الصعب أن نفكر أولاً، ثم نشعر، ومن المؤسف أن كثيراً من الناس الأذكياء يُصدرون حكماً فورياً بناءً على مشاعرهم، وبعد ذلك يحاولون استخدام ذكائهم في تسويغ ذلك الحكم ودعمه، ويذكرون في هذا السياق أن رجلاً كان يقود سيارته، فإذا بامرأة مطروحة أرضاً فنزل الرجل من سيارته ليسعفها، وجاءت بعده سيارة، فنزل السائق وضربه ظنّاً منه أنه هو الذي صدم المرأة. السائق خضع لشعوره، وتصرف تجاوزاً معه دون أن يحاول معرفة الشخص الذي صدم المرأة فعلاً. المشاعر كثيراً ما تكون صادقة، ولكن ليست على حق دائماً، فنحن نشعر في حدود إدراكنا، وبما أن إدراكنا محدود، فإن مشاعرنا قد تكون مبنية على معطى ناقص وحسير. ولا بد من الإشارة هنا إلى شيء آخر، هو أن العواطف والمشاعر ميالة إلى التطرف؛ فنحن قد نحب شخصاً أو شيئاً حتى إننا لا نتصور كيف تستمر حياتنا من غيره، وبعد مدة ننصرف عنه، حتى إننا لنعجب من تعلقنا به في السابق، ومن هنا جاء إرشاده ﷺ وتوصيته لنا بالاعتدال في حالتنا الحب والبغض حيث يقول: « أحب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما » (١).

ب - حين نُعمل عقولنا من أجل إنتاج بعض الأفكار، فإنها تتفاعل مع ما نراه أو نسمعه أو مع المعلومات التي نحصل عليها، أو مع ما لدينا من خبرات مختزنة، وحين نحصل على فكرة حول شيء ما فإن الفكرة التي نحصل عليها تثير من مشاعرنا وعواطفنا ما يتناسب معها، وهذا يعني أن الأفكار تولد المشاعر وتوجهها، كما أنها تغيّرها وتطفئها أيضاً، والحقيقة أن الشواهد على هذا أكثر من أن تحصى، ولدى كل

(١) حديث صحيح رواه الترمذي وغيره.

واحد من تجارب ثرية في هذا الشأن، ومع هذا فلا بأس بعرض بعض الأمثلة:

- حين تريد دولة مستكبرة ضرب شخص أو دولة أو مصالح جهة من الجهات، فإنها تمهد لذلك بفتح سجلاته وتوجيه الأنظار إليه، وهم بالطبع لا يقرؤون ولا ينشرون الحسنة والإنجازات، وإنما السلبيات والفضائح، ويسخرون لذلك آلتهم الإعلامية الضخمة ذات الوسائل المتعددة: في كل يوم خبر عن الفساد والرشوة، أو عن انتهاك حقوق الإنسان، أو البذخ والترف في الإنفاق، أو عن الجوع والمرض بسبب السياسات الغبية.... والهدف من ذلك واحد رسم صورة ذهنية قائمة لذلك المستهدف، وترسيخ تلك الصورة يستمر وقتًا طويلًا، والغاية من وراء كل ذلك هي حرمان من يستهدفونه من أي نوع من مشاعر المؤازرة والتعاطف؛ فهو شرير أو (محور من محاور الشر)، ولهذا فإنه يستحق كل ما يمكن أن يحل به من قتل وتشريد ونهب وحصار... وقد تزعمت الولايات المتحدة الغرب في حملات إعلامية عدة ضد العديد من الأشخاص والدول وحقت نجاحات لا يستهان بها.

- ركب رجل في قطار ومعه طفلان، وقد كانت حركة الطفلين داخل العربة مزعجة لكثير من الركاب، فاستكروا ذلك، وطلبوا من الأب أن يتحمل مسؤوليته، ويضبط أولاده، وكان جواب الأب عبارة عن دمعة حرّى نفرت من عينه حين قال: توفيت والدة الطفلين قبل ساعتين من الآن، ولا أستطيع في هذا الظرف العصيب أن أضغط عليهما. هنا حدث تغير مفاجئ في موقف الركاب؛ حيث صاروا يتسابقون إلى إكرام الطفلين، وملاعبتهما، وأحاطوهما بالكثير الكثير من الحنان والرعاية والاهتمام. لماذا كل هذا؟ إن ما سمعوه من الأب محا مشاعر الضيق التي كانت لديهم تجاه الطفلين، وأحلّ محلها مشاعر من نوع آخر. إن الواحد منا تنتابه مشاعر الأسى والحزن حين يفكر في موت أحد الأعداء، أو فقدان عمله، أو الفشل في تحقيق هدف شخصي مهم. وهو يشعر بالغضب حين يفكر في الاستغلال، أو العدوان، أو الظلم الذي تعرض له من قبل جهة من الجهات أو شخص من الأشخاص، وهو يشعر بالنقص وضعف الكفاءة حين يقارن نفسه بالزملاء والأصدقاء، وتنتهي به المقارنة إلى الاعتقاد بأنه ليس ناجحًا أو مثقفًا، ولا يملك شيئًا خاصًا يمتاز به على غيره... ما الذي يعنيه هذا؟

إنه يعني شيئًا مهمًا، هو أن نحذر كل الحذر من الأفكار والمفاهيم والتصورات

الخاطئة واليائسة والمحبطة والمشوّهة، فهي قادرة دائماً على جعل مشاعرنا تتجه الوجهة الخاطئة، أو تكون سوداوية تعكر حياتنا، وتسلبنا الطمأنينة والهناء وليس هذا السياق هو الموضوع المناسب لشرح ذلك.

ج - كما أن الأفكار تثير المشاعر، وتطفئها، وتغير اتجاهها، فإن المشاعر أيضاً تؤثر في الأفكار تأثيراً لا يستهان به، وقد أكدت بعض الدراسات الحديثة على هذا الصعيد أن المنظومة الوجدانية لدى الإنسان معقدة ومركبة وشديدة المقاومة للتغيير، وهي تحدد معالم شخصية الإنسان منذ وقت مبكر، وأكدت تلك الدراسات أن عدد الألياف العصبية المتجهة من المراكز الوجدانية في المخ إلى المراكز المنطقية، يفوق كثيراً التي تسير في الاتجاه المعاكس، وهذا يعني أن تأثير الانفعال والوجدان في السلوك والتعليم والمحكمة العقلية يفوق كثيراً تأثير الأفكار في المشاعر، ويمكن لنا الإشارة في هذا الإطار إلى الأمور التالية:

- تقوم العواطف بترتيب الأولويات الفكرية، وتوجه انتباهنا أكثر فأكثر للمعلومات الأكثر أهمية، وهكذا نجد أن الناس الذين طغى عليهم حب المال وجمعه يفكرون في الليل والنهار في استنباط طرق جديدة للربح وعقد الصفقات الناجحة، كما أنهم يهتمون بتحليل الأخبار المالية، ويطالعون الصفحات الاقتصادية في الجرائد والمجلات، ويحضرون بعض الدورات التدريبية التي تساعد في الحصول على عقود جيدة، ولك في هذا السياق أن تتخيل باحثاً في علم الأورام أصيب ولده الوحيد بورم خبيث؛ كيف استدعوه شفقتة على ولده إلى تركيز البحث في نوعية الورم الذي أصيب به ابنه وإلى مضاعفة عمله في سباق مع الزمن.

- تؤثر العواطف - ولا سيما المتأجج منها - في الأحكام التي تصدرها على الأشخاص والأشياء والأحداث، ونحن في حالة الحب والتعاطف لا نكاد نرى سوى الإيجابيات والمحاسن، وفي حالة النفور والكره لا نكاد نرى سوى السلبيات والمعائب، والظاهر أن العاطفة تجعل من نفسها ما يشبه الغشاء أمام عيون العقل، من هنا حذرنا الله - تعالى - من أن يحملنا بغض بعض الناس على الجور في الأحكام التي نُصدرها عليهم، حيث يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ

اللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿ [ المائدة: ٨ ] أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم. ومسألة تأثير العواطف في إصدار الأحكام معروفة في كل الثقافات الحية، وهي جزء من التجربة الإنسانية، ومما يروى عن العرب في المثل: ( حبك الشيء يعمي ويصم )<sup>(١)</sup>. إن الذي يسترسل في اتباع هواه لا يصبر قبيح أفعال من استرسل في حبه، ولا يستمع إلى نهي من ينصحه في ترك مصاحبته. ومما يروى عن الإمام الشافعي قوله:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة  
كما أن عين السخط تُبدي المساويا  
ويقول أحدهم:

إذا شئت أن تلقى المحاسن كلها  
ففي وجه من تهوى جميع المحاسن  
وحين قيل لجميل بثينة: إن من استغرقك حبها ليست حسناء؛ بل إنها تذكر  
بالسواد قال:

أحب لحبها السودان حتى  
أحب لحبها سود الكلاب

د - العواطف - كما أشرنا - ميالة إلى التقلب، على مستوى الاتجاه وعلى مستوى الشدة والحمود، وهذا التقلب موجود لدى كل الناس بدرجات متفاوتة، وقد تبين أنه يؤثر أيضًا في اتجاهاتنا الفكرية؛ حيث إن من الملموس أن الذين لديهم نوع من الجمود العاطفي تكون عقلياتهم أقرب إلى التصلب - على حين أن الحيوية العاطفية تبعث من يتمتع بها على تقبل بعض وجهات النظر المخالفة لمعتقداته. ومن المعروف أن إحساس الإنسان بالمرح والسعادة يساعده على الوصول إلى أفكار جديدة ومبدعة، كما أن أولئك الذين يفكرون وهم في حالة يأس وإحباط أو في حالة إرهاق أو في حالة خوف ينحون نحو إنتاج أفكار مطبوعة بطابع التشاؤم والسوداوية.

إن الذي نستفيده من هذه الملاحظات، هو إخضاع مشاعرنا قدر الإمكان للحكم العقلي، وإقامة نوع من الرقابة المستمرة عليها، ولا ننسى في هذا السياق ما للمعرفة من تأثير جوهري في إرشاد العواطف؛ فنحن حين لا نملك القدر المطلوب من المعلومات نتعاطف حيث لا ينبغي التعاطف، وننفر حيث لا معنى للنفور، وهذا يجعل أحكامنا أيضًا من غير أساس صحيح.

(١) أورد بعض المحدثين هذا المثل بين الأحاديث المرفوعة وحكموا عليه بالضعف، وبعضهم قال: هو موضوع.

## ٧ - التفكير واللغة:

نعمة الإيمان ونعمة العقل ونعمة الكلام، نَعَمْ ثلاث تتَوَجَّعُ نِعَمُ الخالق ﷻ علينا، وبهذه النعم الثلاث يصبح للحياة معنى، ونمتاز عن سائر المخلوقات.

علاقة التفكير باللغة لا تخلو من شيء من الغموض، وهناك الكثير من الاختلاف والتساؤل: هل التفكير سابق على اللغة أو اللغة سابقة على التفكير؟ هل اللغة متصلة بالتفكير أو هي منفصلة عنه؟ تساؤلات كثيرة وإجابات قابلة للنقاش والظن... وبما أنني لا أنزع في هذا الكتاب منزعة فلسفيًا، فلندع التعليقات والخلافات جانبًا، ولنتحدث عما هو عملي وقريب الفهم:

١ - من السهل دائمًا أن نقول: إن اللغة هي مرآة العقل والقلب، ولهذا كان سقراط يقول: « تكلم حتى أراك » وكانت العرب تقول: « تكلموا تُعرفوا » اللغة هي أداة التعبير الأساسية عما نريد التعبير عنه، وهذا ما كان القدماء يرونه بوضوح تام، وقد عرّف ابن جني اللغة بأنها « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »، وهذه الوظيفة للغة موضع اتفاق، لكن لا بد من القول: إن النظام اللغوي هو نظام نام على نحو مستمر؛ ولهذا فإن سيطرتنا على اللغة تكون دائمًا غير كاملة ووعينا بمفرداتها وأساليبها ودلالاتها ورمزياتها يظل ناقصًا، ورحم الله الإمام الشافعي إذ يقول: « لا يحيط بلغة العرب إلا نبي »، وهذا في الحقيقة ليس خاصًا بلغة العرب؛ فاللغات الحية كلها عصبية على الخضوع الكامل للأغين بها، وهذا يعني أننا سنظل نعاني من قصور تعبيراتنا عن أفكارنا ومشاعرنا، وسنظل نعاني في أحيان كثيرة من قصور فهمنا لما نسمع ونقرأ؛ ولذا فإن سوء الفهم شيء رائج ومنتشر في كل مكان، وهذا يتطلب من المفكر أن يحاول توضيح طروحاته ومقولاته، كما يتطلب من كل واحد منا أن يحاول التأكد من أنه فهم ما قرأه وسمعه على نحو جيد قبل برمجته في عقله أو إصدار حكم عليه.

إن اللغة تمارس نوعًا من العنف ضدنا، فنحن أسرى لنظامها وإملاءاتها، فأنا حين أود أن أعبر عن إعجابي بذكاء شخص ما - مثلاً - أجد نفسي مضطراً لاستخدام الكلمات التي تُستخدم عادة في الثناء واستخدام الأساليب المعهودة في ذلك، وإذا قلت ما هو شائع، ظهر كلامي وكأنه مكرور وخالٍ من الإبداع، وإذا أسرفت في المديح، ربما ظن بعض الناس ذلك أنه مجاملة زائدة، وإذا اقتصدت في الثناء فسنجد من

يقول: إنه أثنى من غير رغبة، أو لم يعط ما أثنى عليه حقه... اللغة فضاء واسع ومملوء بالرموز والمعاني والدلالات، وسوف نجد أنفسنا تائهين فيه ما لم نحاول تحسين مستوى استخدامنا للغة بجدية ومثابرة على مستوى التعبير وعلى مستوى الفهم والتفسير.

٢ - اللغة وسيلة لتخزين الأفكار والمفاهيم والمعلومات ووسيلة لاسترجاعها من الذاكرة أيضًا. إننا حين نودع ذاكرتنا ما امتلكناه من معاني نودعه مجسّدًا في كلمات وجمل وتعبيرات وقصائد وأمثال وحكم، فأنا إذا أردت أن أتذكر ما جرى بيني وبين زيد من الناس في المجلس الفلاني من تبادل للأفكار والمشاعر، أحاول أن أتذكر الكلمات والتعبيرات التي سمعتها منه، والتي قلتها له، وهذا طبيعي؛ فاللغة هي التي أتاحت لنا فرصة الوعي بأفكارنا، ولولاها لكان ما في عقولنا عبارة عن خليط من التهويمات الغامضة والمختلطة. ومن الواضح أنه كلما وقّقنا لصياغة أفكارنا في تعبيرات جميلة ورصينة ومبدعة كان اختزاننا لها واسترجاعنا إياها يتم بطريقة أسهل، وهكذا فإن الحكم والأمثال والمقولات الأخاذة والمبتكرة تظل على طرف الألسنة وفي متناول اليد، وحين يكون التعبير ضعيفًا أو متنافرًا، فإن الذي ينتظره هو الغوص في أعماق الذاكرة ثم الضياع الأبدي. ومن وجه آخر فإن منطقية الأفكار وترباطها يجعل استدعاءها من الذاكرة أيسر وأسهل، كما أننا كلما كنا أكثر انتباهًا وحضورًا وقت اختزانها صار الاسترجاع أسهل، والعكس صحيح.

٣ - اللغة أداة لصنع الأفكار، إن الفكرة تتمتع - ولا شك - بدرجة من الاستقلال النسبي عن اللغة، وذلك حين تكون في طور التخمير والتكوّن الأولي، وهذا بسبب ما حبانا الله به من نعمة الخيال الذي يحرك القوى الذهنية نحو فهم المدركات المختلفة، لكن الأفكار في هذه المرحلة - مرحلة التخمير - تكون جنينية غير واضحة الملامح، أو كما يقول (دي سوسير): عبارة عن كتلة من الضباب لا شيء فيها يبدو متميزًا. وقد أثبت علم نفس الطفل أن الأطفال يتعلمون التفكير في الوقت الذي يتعلمون فيه اللغة، إن الطفل في شهوره الأولى يرى العالم من حوله لكنه لا يصير شيئًا، وحين يبدأ باكتساب الكلمات يبدأ العالم أمامه بالتمايز، ويبدأ عقله بالاشتغال. ومن الملاحظ أن الواحد منا حين تلتصع في ذهنه فكرة ما، فإنه يبحث عن كلمات يعبر بها عنها، والحقيقة أنه حينئذ لا يبحث عن كلمات، لكن يبحث في

الفكرة نفسها لشعوره أنها لم تبلغ حد البلورة والنضج، وتكون الكلمات والجمل هي الأدوات التي يستخدمها الدماغ في عملية البحث هذه. وقد كان (هيجل) من أكثر الفلاسفة الذين اهتموا ببحث العلاقة بين اللغة والفكر، وهو يرى أن التفكير بدون كلمات محاولة عديمة المعنى؛ لأن الكلمة تمنح الفكرة وجودها الأسمى والأصح. ماذا يعني تقرير هذه المسألة؟

إنه يعني الآتي:

أ - إذا كان توجه الفكر مرتبطاً إلى هذا الحد باللغة التي نتحدث ونكتب بها، فإن هذا يعني أن علينا أن نعطي لحصيلتنا اللغوية الشخصية المزيد من الاهتمام؛ فالمتمكن من اللغة يستطيع أن يصل إلى أفكار دقيقة ومنظمة؛ بل إن المتمكن في اللغة يستطيع أن ينمي اللغة نفسها من خلال إبداعه لأساليب واستخدامات جديدة، ومن خلال إثرائه الصور والتشبيهات المتداولة.

ب - الحفاظ على العربية ورفدها بالجديد من مسؤوليات المفكرين والمثقفين عامة، وذلك من خلال محاولة الارتقاء والتقدم في استخدام اللغة والإصرار على نقائها من العامية والكلمات والأساليب الأعجمية.

ج - في بعض الأحيان نشبه الفكر بالروح ونشبه اللغة بالجسد، وهذا التشبيه صحيح، ولكننا نعرف أن الروح مهما كانت متوثبة ومنطلقة تظل في النهاية محدودة بحدود الجسد، وهكذا فإن اللغة ترسم لتفكيرنا حدوداً لا يستطيع تجاوزها، وهذا يعني أننا لا نستطيع أن نتج من الأفكار إلا ما تسمح به اللغة التي نستخدمها، وإن درجة خصوبة الفكر تتحدد بمستوى نمو اللغة؛ ومن هنا فإن الشخص الذكي جداً لو فكر في مسألة من المسائل، وكان أمياً، أو كانت مهارته اللغوية ضعيفة، فإنه لا يستطيع الاهتداء إلى حلٍّ معقد لما يفكر فيه بسبب قصور معرفته باللغة، وإذا فرضنا أنه اهتدى إلى حلٍّ عظيم فإنه لا يستطيع التعبير عنه، وهذا يشكل خسارة كبيرة جداً للشخص ولأمتة، وهكذا نجد أن الجهل باللغة أكبر قاتل للموهبة؛ لأنه يُفقرها، بل يجعلها أشبه بالعدم.

د - إن المرء حين يفكر في واقعه الشخصي، أو يفكر في واقع مجتمعه وأمتة، فإنه في الحقيقة يقوم باستحضار ذلك الواقع من خلال الخيال ومن خلال اللغة، ونحن حين نستحضر الواقع، نستحضر أحداثه وأشخاصه وأشياءه، وما يجري فيه من تطورات



متلاحقة، وإن اللغة هي التي تساعدنا على تنظيم كل ذلك، وجعله في وحدة متماسكة قابلة للفهم والتفسير، وحين تكون الحصيلة اللغوية لدى من يفكر في الواقع ضعيفة فإن الواقع يبدو له في صورة ظواهر مشتتة ملفوفة بظلام دامس، وحينئذ فإن رؤيته لذلك الواقع تكون مشوهة ومضطربة، وتكون أحكامه المبنية على تلك النظرة كذلك.

كيف سأرى الحرية في مجتمعي وأنا لا أعرف ماذا تعنيه الحرية؟ وكيف سأحكم على مجتمعي بأنه صالح وملتزم بتعاليم الإسلام، وأنا لا أستطيع تعريف الصلاح، ولا أعرف حدود مدلولاته؟

من هنا نقول: إن اللغة ليست عبارة عن رموز ومواصفات فنية لقدرتنا على النطق، وإنما هي أسلوب وتصور وطريقة نظر إلى الحياة والأحياء، وعلى مقدار مهارتنا وصدقنا بها تتحسن منهجية تفكيرنا.

هـ - التمكن من اللغة يتطلب معرفة نحوها وصرفها، ويتطلب معرفة معاني عدد كبير من ألفاظها، إن المفكر قد يحتاج إلى معرفة معاني عشرين أو ثلاثين ألف كلمة، على حين أن الإنسان العادي لا يستخدم أكثر من خمسة آلاف إلى ستة آلاف كلمة. إن القراءة في كتب المفكرين وكبار الروائيين والأدباء والقراءة في دواوين الشعراء العظماء... إن كل ذلك يثري معرفتنا باللغة، ويزيد في سيطرتنا عليها، وإن على الشباب الطامحين لأن يكونوا مفكرين كباراً أن يجعلوا من اكتساب المهارات اللغوية شيئاً مهماً في تكوينهم المعرفي.

#### ٨ - التفكير والعقل الجمعي:

يولد الطفل وهو لا يملك أي شيء من أي نوع ولا سيما على صعيد المعارف والمشاعر، كما قال - سبحانه - ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨]. المجتمع هو الذي يمنحنا أسماءنا التي نحملها، وهو الذي يعرفنا على ذواتنا، ويمنحنا النظارات التي نرى بها العالم، ولهذا فإن سطوته علينا أكبر من أن توصف.

للمجتمع تصورات ومفاهيم وعادات وتقاليده وانطباعاته وتقييماته الخاصة للأشياء، والتي تراكمت عبر الكثير من السنين، وهي على درجة من الرسوخ تجعلها تشكل

ضمير الفرد ووجدانه وعقله وروحه التي تسري في كل كياناته، ومن اللافت أن كل ذلك قد تكوّن بطريقة غير واعية، ويصعب جدًا تحديد مصادر ذلك التكوين، وتحديد المسؤولين عنه.

السؤال الذي يطرح نفسه أولاً هو: ما الطبيعة العامة للعقل الجمعي؟  
يمكن أن نذكر من طبيعة العقل الجمعي الآتي:

١ - مجتمعاتنا العربية والإسلامية تعاني معاناة شديدة من انخفاض مستوى التعليم، ومن وجود أعداد كبيرة من الأميين، الذين تزيد نسبتهم في المتوسط على ( ٣٠ ٪ )، وهذا يعني أن معظم الناس لا يستطيعون فهم تركيبة العقل الجمعي الذي يرمج عقولهم، ولا معرفة ما فيه من قصور ومن خلل، ولهذا فإن انصياعهم له سيكون شديداً، وإنما نقول هذا لأن عقل الفرد يقيم نوعاً من الحوار والجدال مع عقل المجموع، وحين تكون الإمكانيات العلمية محدودة لدى الأفراد، فإن ذلك الحوار يضعف إلى حد العدم، وهذا ما نشاهده في كل أنحاء العالم؛ حيث نجد أن الناس في المجتمعات المتعلمة أقل رضوخاً لما هو سائد من أفكار ومقولات وعادات، على حين أنهم في المجتمعات التي تغلب عليها الأمية وضحالة المعرفة، يستكينون لما هو عام ومسيطر، ويظهرون نوعاً من المباهاة بتلك الاستكانة. النتيجة لهذا وذاك تتمثل في تقدم المجتمع وجموده؛ فحين يكون التفاوت بين وعي الفرد ووعي مجتمعه واضحاً وقوياً، فإن درجة التحرر والتغير تصبح أكبر؛ لأن تأثير الأفراد حينئذ يكون أعظم، ويستجيب العقل الجمعي لهم أكثر. أما حين يقل التفاوت فإن العقل الجمعي يصاب بالجمود والتكلس، وتزداد بذلك مساهمته في تكريس التخلف.

٢ - يعاني العقل الجمعي - على نحو عام - من السطحية وانخفاض مستوى الفهم، كما يعاني من نوع من المجافاة للتحليل والتفصيل والتفلسف، ولن نعرف على وجه الدقة الأسباب الجوهرية لذلك، لكن ربما كان حرص العقل الجمعي والثقافة الشعبية على التلاحم والتضامن الأهلي - هو الذي يجعل الناس يسيرون بسير الأضعف فيهم، ويخفّضون مستوى الفهم لكل الأمور، ويظهرون الكثير من المراعاة والمراعاة والمجاملة، مع التقليل من النقد لمفردات العقل الجمعي، وكل ذلك من أجل تعزيز الشعور التضامني والظهور بمظهر التوحد. ومن الملاحظ في هذا السياق أن

الأفكار والمفاهيم والمقولات الأكثر سهولة وسطحية هي التي تظفر بنصيب الأسد من الانتشار والتغميم والتداول، مما يكبح أي فكر عميق لدى الأفراد، ويدفع بالصفوة إلى العمل في مجال خاص ومحدود. هذا يعني أن التيار العريض في المجتمع ليس هو التيار الأكثر علمًا أو فهمًا أو صلاحًا...، ويمكن أن نستشف ذلك من قول الله - تعالى -: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. وقد أشار القرآن الكريم في كثير من المواضع إلى أن أكثر الناس لا يعلمون ولا يشكرون ولا يعقلون، كما أن أكثرهم للحق كارهون، وعنه معرضون..

٣ - موقف العقل الجمعي من العقل الفردي قائم في معظم الأحيان على الاستحواذ وعلى الخوف من التفلت والابتعاد، وهو بذلك يشبه الأم الرؤوم التي لم تنجب سوى ولد واحد، فهي متعلقة به إلى حد الهوس والولع، وتعتبر كل من يقترب منه منافسًا لها بوجه من الوجوه، وكلما كانت سيطرة الجهل على المجتمع أشد كان خوف العقل الجمعي من شذوذ العقل الفردي عنه أكبر وأعظم؛ ولهذا نجد أن كثيرًا من الناس عندنا لا يرتاحون للجديد، ولا يحبون من أحد أن يجرب، أو يحاول شيئًا غير مألوف، وإذا حاول أحدهم ذلك انتظروا إخفاقه حتى يقدموا له النصيحة بعدم التكرار، وكل هذا من أجل استمرار التشابه وبقاء كل شيء على حاله!.

#### أمثلة على توجهات العقل الجمعي لدينا:

أ - يسيطر على عقلنا الجمعي أن العرب يخضعون لمؤامرة كبرى من قبل العالم الغربي على وجه الخصوص، ويتبع هذا الاعتقاد بأن الغرب لو تَرَكَنا وشأننا لكنا بخير، ولتخلصنا من الفرقة والتخلف، ومع أنه ليس بوسع أحد أن ينكر أن الغرب يتحرك عبر العالم كله لتحقيق مصالحه - والتي قد تتنافى مع مصالح غيره - وكما أنه ليس في وسع أحد أن ينكر أن الغرب قد ألحق بنا الكثير من الأضرار إلا أن من الواضح أن بداية المشكلة كانت في ضعفنا، وضعفنا هو الذي أعطى المجال للغرب كي يتدخل في شؤوننا، ويعوّق مسيرتنا؛ ولهذا فالحل لن يكون في رفع الغرب يده عنا؛ لأن هذا غير وارد، وإنما يكون في تخلصنا من القصور الذاتي والأسباب الداخلية للتخلف.

ب - يرى معظم الناس لدينا أن غير المسلمين في العالم يد واحدة على المسلمين، ويلخصون هذا بقولهم: «الكفر ملة واحدة»، ويرون كذلك أن غير المسلمين يمكن

أن يختلفوا في كل شيء إلا في عداوتنا والإساءة إلينا...

أهل الرأي والخبرة والعلم لا يرون هذا، ويختلفون مع العقل الجمعي في هذا الطرح؛ حيث إن معظم الدول اليوم لا تقيم علاقاتها مع بعضها على أساس عقدي، وإنما على أساس المصالح، ولنا أن نقول: إن الغرب المسيحي أقرب إلينا على مستوى العقيدة - وكذلك اليهود - من اليابان والصين، لكن الوضع يختلف كثيرًا على الصعيد السياسي، وحين وقع العدوان الإسرائيلي على غزة قطعت ( فنزويلا ) علاقاتها مع اليهود في فلسطين، على حين كان موقف الغرب مختلفًا جدًا.

ج - العقل الجمعي المسيطر على الجماعات الإسلامية يميل إلى منح نوع من القداسة للعمل الجماعي، ولهذا فإن معظم أفراد تلك الجماعات ينظرون باستخفاف لأي جهد دعوي يبذله أفراد، وهذا الموقف لا يقوم على قراءة الواقع، وإنما ينطلق من نظرتهم للعمل الجماعي على أنه غاية في حد ذاته وليس وسيلة. أنا شخصيًا لا أهوّن من شأن أي جهد جماعي على أي مستوى كان، لكنني أنظر إليه على أنه وسيلة، وشأنه كشأن كل الوسائل؛ فقد ينجح، وقد يخفق، كما أننا جميعًا نلمس بقوة أن في العلماء والدعاة والمفكرين أشخاصًا تركوا في ساحات الصحوة من التأثير ما يزيد على ما تركته جماعات بأكملها.

د - في العقل الجمعي لدينا اعتقاد بأن النجاح مرادف لتفوق الإمكانيات الذهنية، وبناء على هذا ينظر معظم الناس إلى الفشل على أنه نوع من الغباء مع أن ما يترسخ اليوم في الدراسات والبحوث المتعلقة بالذكاء والنجاح، هو أن التفوق الذهني ليس سوى سبب واحد من أسباب النجاح، ومن هنا فقد ينجح الإنسان لأنه درس في جامعة ممتازة، أو لأنه أتاحت له فرصة نادرة، أو لأنه يتمتع باستقامة عالية، أو يتمتع بذكاء اجتماعي أو عاطفي غير عادي... وهذا هو التفسير المقبول لما نراه من إبداعات واختراعات عظيمة لأشخاص عاديين، لكنهم يملكون قدرة عالية على المثابرة على البحث وإجراء التجارب، ويعملون في مراكز بحثية ممتازة.

ما العمل تجاه هذا؟

لا بد للمفكر ومن يسير على طريقه أن ينظر إلى علاقة وعيه وعقليته بالعقل

الجمعي على أنها معقد من معاهد الابتلاء والاختبار؛ فالواحد منا مطالب بعلاقة متوازنة مع العقل الجمعي، وهذه العلاقة ينبغي أن تقوم على فهم تركيبة العقل الجمعي وفهم أوجه الخلل فيه، ثم البقاء على مسافة محسوبة منه؛ حيث إن تجاهله على نحو تام مشكلة تشبه مشكلة الاندماج فيه. ولعلي أشير في سياق التعامل مع العقل الجمعي إلى الأمور الآتية:

١ - ميزة المفكر كثيرًا ما تتجلى في تمكنه من بلورة وعي فردي مستقل، يمكنه من اتخاذ موقف متميز مع الموقف الاجتماعي العام، وهذا التمايز هو الأساس الذي تقوم عليه الرؤية النقدية للمجتمع، وقد دعا القرآن الكريم إلى شيء من هذا التمايز حين قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ شُحْرِ وَفَرَدَيِّ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] هذه دعوة من الله - تعالى - لمن يريد الوصول إلى الحقيقة بأن ينزل بوعيه وجسمه عن الوسط الذي يعيش فيه وعن أفكاره ومفاهيمه ورواسبه ومقولاته، ثم يقوم بالتفكير والتأمل ليرى الأشياء بعيدًا عن سلطة الجماهير وسلطة العقل الجمعي القاهر، ولا بأس أن ينزل اثنان عن ذلك الوسط من أجل التحوار وتلقيح الأفكار في سبيل استبانة الحق وفهم الأمور على ما هي عليه. هذه العملية ليست سهلة، إنها أشبه بانفصال الرضيع عن أمه؛ لهذا فإنها تحتاج إلى طاقة روحية، ويصحبها الكثير من الآلام وأحيانًا الكثير من المخاطر، لكن ليس أمام المفكر من أجل تحرير فكره من سلطان العادات والتقاليد والمفاهيم الرائجة أي طريق آخر.

٢ - الخروج من صندوق البيئة لنفكر خارجه - أمر مطلوب، وينبغي أن يصحبه في الوقت نفسه انفتاح على الخبرات العالمية، ومن الواضح كما نقول دائمًا: أن معرفة نقائص بيئاتنا تتطلب مقارنتها بالبيئات الأخرى، إننا من خلال المقارنة نعرف ما لدينا من أخلاق ومن عادات وتقاليد وما لدينا من تعليم وصناعة وبحث علمي...

المشكل أن بعض الناس يرفضون المقارنة؛ لأنها تضعهم أمام المرآة، فيرون عيوبهم وأنواع قصورهم، فيقومون بنوع من الالتفاف والتشويش: إذا قلت: لدى اليابانيين جدية منقطعة النظير جاء من يقول لك: إنهم جادون حتى لا يموتوا من الجوع، فهم شعب من غير موارد، وهو بهذا يريد أن يقول: لا تقارن، فنحن لسنا بحاجة إلى جديتهم؛ لأن

عندنا موارد. وما درى هؤلاء أن في إفريقيا جوعاً كثيراً ولم يصنع منهم الجوع أشخاصاً جادين؛ بل إن في إفريقيا ثروات هائلة تحتاج إلى تنظيم وجهد وعلم وجدية حتى يستفيد أهلها منها، ولم نر شيئاً من ذلك عند السواد الأعظم منهم!

وإذا قلت: زعماء اليهود تمكنوا خلال نصف قرن من تجميع اليهود من أكثر من ( ١٢٥ ) دولة لينوا بهم دولة متقدمة ومزدهرة ومستقرة، وينتجوا آلات في غاية التطور.... جاء من يقول لك: لولا مساعدات الغرب لم يستطيعوا فعل أي شيء من ذلك، ونسي هؤلاء أن من المسلمين من دخل خزائهم أضعاف أضعاف ما تسلمته إسرائيل من مساعدات، ولم يصنعوا طائرات ولا صواريخ، كما أن اليهود لا يشكون من حرب أهلية داخل كياناتهم، على حين أن أكثر من دولة عربية وإسلامية منغمسة في صراعات داخلية دامية منذ سنوات طويلة....

الصدق مع الله - تعالى - ومع النفس يقتضي منا أن لا نحاول الالتفاف على المعطيات التي لا تعجبنا؛ بل نرضخ لها ونعقلها ونستفيد منها.

٣ - في مجتمعاتنا الإسلامية - ككل المجتمعات - قيم وعادات وتقاليد ورموزيات ومفاهيم.... بعضها قديم يعود إلى عشرات القرون وبعضها حديث يعود إلى سنوات قليلة، والوعي الجمعي يستوعب الجديد ويركم به القديم، وبعد مدة كافية يجد نفسه منخرطاً في الدفاع عنه بوصفه الناظم الجامع للحياة الاجتماعية في بعدها النفسي والعقلي والقيمي، ولا شيء في هذا، وإلا كيف يمكن للناس أن يشعروا بالتضامن وبوحدة المصير وضرورة العمل المشترك...؟

لكن الشيء الذي يحتاج إلى علاج بعيد المدى هو أن العقل الجمعي لا ينظر إلى الأحكام والآداب الشرعية على أنها شيء قادم من خارج خبرته، وأنه ليس من وضع البشر، وإنما ينظر إليه على أنه جزء من الثقافة الاجتماعية العامة؛ صحيح أن بعض الناس يميز بين الوحي وبين العادات والتقاليد، لكن معظم الناس يتعاملون مع الدين على أنه جزء من ثقافتهم أو يحاولون دمجهم في حياتهم العامة، مع أن مهمة الدين هي توجيه العقل العام وبناء الثقافة العامة والحكم عليها، ونحمد الله حمداً كثيراً أن وهبنا منهجاً واضحاً وشاملاً نستطيع من خلاله نقد العقل الجمعي وإعادة تشكيله.

على أهل الوعي والفكر القيام بأمرين مهمين: الأول: هو الخروج من دائرة سيطرة

العقل الجمعي ثم الإسهام في ترشيد ذلك العقل من خلال تعريفه على ذاته ونقد اعوجاجه وإثرائه بالآداب والأخلاق الإسلامية السامية، والثاني: دفعه في اتجاه الانفتاح على الفضائل التي لدى الآخرين والاستفادة من خبراتهم وتجاربهم، وهذا هو ميدان جهاد الفكر المستنير والعلم النافع.

\* \* \*

## تنمية الإبداع



قد صار في إمكاننا اليوم أن نقول: إن الإنسان كائن مبدع؛ حيث يزداد يقيننا يوماً بعد يوم بأن الخالق ﷻ قد زود كل واحد منا بإمكانات كافية لجعله يبدع في جانب من جوانب الحياة أو في موقف من المواقف... قد كان الناس يظنون أن الإبداع شيء مرادف للذكاء أو العبقرية، وقد كانوا يظنون أن الذكاء هو شيء وهبي مرتبط بتفوق ذهني غامض، وليس في يد المرء تجاهه أي حيلة؛ ولهذا فلا معنى في سبيل التمتع به لأي جهد يبذل، كل هذا قد تغير الآن؛ حيث إن من الواضح أن الإبداع في شيء أو مجالٍ ما قد لا يتطلب أكثر من التدريب أو التركيز، أو مجاهدة النفس أو التضحية أو الشعور بالمسؤولية... ومن هنا جاز لنا أن نتحدث عن الإبداع بوصفه شيئاً موجوداً وقابلاً للتنمية والتعزيز، وهذا يتناسب تماماً مع ما نعتقده من تكريم الله - تعالى - للإنسان، ومن اعتقادنا بحب الإنسان للحرية، والتي يشكل الإبداع واحداً من عوامل توسيع نطاقها، لكن لا بد من الإشارة هنا إلى أن الإبداع يظل عبارة عن إمكانية واستعداد كامن، وما لم يستغل الإنسان تلك الإمكانية، ويستثمر ذلك الاستعداد، فإنه سيجد له متسعاً في مقابر الموهوبين الذين خرجوا من هذه الحياة دون أن يعرفوا عن مواهبهم، ودون أن يعرف العالم عنهم أي شيء!.

إن الإبداع ليس شيئاً معقداً أو كبيراً على نحو مستمر؛ فقد تُبدع امرأة في تنظيم أثاث بيتها، وقد يبدع رجل في إضفاء لمسة جمالية على علاقته بأحد أصدقائه، وقد يبدع محاضر في تقديم محاضرة مبهرة في موضوع من الموضوعات، وقد تبدع امرأة في تربية ابنتها اليتيمة، ويبدع معوق في التعامل مع إعاقته، وقد يبدع مكروب في التعامل مع كربه...

أنا أرى أن ننظر إلى الإبداع على أنه إبداع في موقف أو في وضعية، أو في حالة من الحالات، تماماً كما نظر بعض الأصوليين إلى مسألة الاجتهاد حين قرّروا وجود



( مجتهد المسألة )؛ حيث إن العالم قد يتخصص في باب من أبواب العلم، فيملك فيه أدوات الاجتهاد والترجيح ويكون مقلداً في علم آخر؛ لأنه لم يعطه من العناية والدرس والتأمل والتمحيص ما يستحقه.

الإبداع هو المجيء بشيء غير مسبوق، والوصول إلى نتائج لم تكن معروفة من قبل، وصور الإبداع ومظاهره أكثر من أن تحصى - كما أشرنا - لكن مساراته الأساسية تتمثل في نقد الأفكار القديمة وتحليلها وفي تقديم أفكار حديثة وإضافة تفاصيل جديدة للمعلومات السابقة في أمر من الأمور، أو ما يمكن أن نسميه ( توسيع مدى المعرفة ) ومن المهم هنا أن ألقت النظر إلى أن الفكرة الإبداعية أو الشيء الإبداعي كثيراً ما يركز على إبداعات وعطاءات سابقة، لكن تكون فيه إضافة جديدة صغيرة أو كبيرة، وبما أن الإبداع عمل إنساني، وبما أن كل ما يتصل بالإنسان هو نسبي - باعتبار من الاعتبارات - فإنه يمكننا القول: إن الواحد منا قد يُفتن بصورة بيانية في بيت شعري على حين أن شخصاً آخر لا يرى فيها ذلك الإبداع المثير، ومن هنا تم إنشاء الهيئات والمنظمات التي تسجل الأرقام القياسية وبراءات الاختراع من أجل الحد من مسألة النسبية التي أشرنا إليها، وإذا كان هذا ممكناً في الأمور المادية، فإنه مستحيل في الأمور الرمزية والمعنوية، وما ذلك إلا لأن ما يجعلنا نرى الإبداع فيها ليس الخصائص المتوفرة في العمل أو الشيء البديع، وإنما ما لدينا من اعتبارات ومنظورات شخصية. لا يصبح الإنسان مفكراً بمعنى الكلمة إلا إذا كان فعلاً يمارس الإبداع، ومجاله محدد جداً، إنه صناعة الأفكار والمفاهيم الجديدة التي تفتح آفاقاً جديدة، وتدل الناس على حقول جديدة للعمل، وتساعدهم على فهم واقعهم على نحو أفضل، ومن هنا فإن على من يسير في طريق المبدعين أن يجعل من الإبداع أحد مشاغله الأساسية، عليه أن يقرأ ويتعلم ويناقش ليقول وليكتب وينظر، وعليه أن يضيفي على كل ذلك مساحة إبداعية ذات نكهة شخصية.

### التغلب على المعوقات أولاً:

مشكلة الإنسان مع الأوهام التي تحول بينه وبين أن يبدع مشكلة قديمة جديدة، والحقيقة أن هناك الكثير من المفاهيم والمشاعر الخاطئة التي تتحكم بنا في هذا الأمر، إنها أشبه بالنظارة التي نرى من خلفها الأشياء، أو المرأة التي نرى بها وجوهنا، وحين

تكون المرأة محدّبة أو مقعّرة، فهذا يعني أننا لا نرى وجوهنا على حقيقتها، ويؤسفني القول: إن السواد الأعظم من الناس يحتاجون إلى تغيير مآياهم! ولعلي أحاول المرور على أهم الأوهام التي تحول دون تنمية الإبداع ودون استثمار الطاقات المبدعة التي في حوزتنا، وذلك من خلال الحروف الصغيرة الآتية:

#### ١ - ضعف الثقة بالنفس:

إن ضعف الثقة بالنفس باب كبير من أبواب الشرور التي نفتحها على أنفسنا؛ لأن الذي لا يثق بقدراته ومواهبه يُحجم عن تحمل المسؤوليات، ويخشى من القيام بأي مبادرة أو مخاطرة، ولهذا فإنه يفضل أن يبقى في الظل وفي المقاعد الخلفية... ضعف الثقة بالنفس يجعل المرء يبتعد عن تجرب أي شيء جديد؛ وذلك خوفاً من الإخفاق ولوم الرؤساء والزملاء وشماتة الأعداء.. ومصدر ضعف الثقة بالنفس قد يكون التجارب الفاشلة التي خاضها الإنسان في حياته؛ فالذي عقد عشر صفقات تجارية، وخسر فيها جميعاً، والذي حاول أن ينظم قصيدة، أو يكتب كتاباً أو يصلح بين زوجين... محاولات كثيرة، وكانت عاقبة كل محاولة أسوأ من الأخرى... هؤلاء وأشباههم كثيراً ما ينتهون إلى انطباع واحد: أنا غبي، أنا فاشل، أنا لا أصلح لأي شيء، أنا غير محظوظ، لو عثرت على وظيفة آمنة لكان خيراً لي من الأعمال الحرة... قليلون أولئك الذين يبحثون في أسباب إخفاقهم، وقليلون أولئك الذين يعتقدون أن الإخفاق في مجال من المجالات لا يعني نهاية العالم، وأن عليهم تجرب شيء جديد أو بذل الجهد في مجال آخر على حد قول الشاعر:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه      وجاوزه إلى ما تستطيع

الخبر السار في هذا الشأن هو ما كان مدرّكاً من قبل لدى كثير من الناس، لكن لم يكن مبلوراً واضحاً بالقدر الكافي، وهو ما انطوت عليه نظرية (الذكاءات المتعددة) والتي نشرها (هوارد جاردن) في كتابه (أطر العقل) منذ نحو ربع قرن من الآن، وقد كان الرجل يعتقد أن الإنسان يمتلك سبعة أنواع من الذكاءات، ثم أجرى عليها بعض التعديلات ليصل بها إلى تسعة أو عشرة، ومن تلك الذكاءات:

- الذكاء اللغوي، ويعني حساسية المرء نحو اللغة والقدرة العالية على تعلمها

واستخدامها...

- الذكاء المنطقي الرياضي، ويعني امتلاك القدرة على تحليل المشكلات منطقيًا وتنفيذ العمليات الرياضية، كما يعني القدرة على اكتشاف الأنماط والاستنتاج والتفكير المنطقي.
- الذكاء الاجتماعي، وهو يعني القدرة على فهم الآخرين ومعرفة رغباتهم، مما يعني العمل معهم بكفاءة عالية والتأثير فيهم.
- الذكاء الشخصي الذاتي، الذي يمكن صاحبه من فهم ذاته وفهم مشاعره ومخاوفه ودوافعه الشخصية.
- الذكاء العاطفي، والذي يعني إدارة العواطف المختلفة وتوجيهها والتحرر من إغوائها...

الرسالة التي تبعث بها إلينا هذه النظرية هي: لدى كل واحد منا فرصة لأن يبدع في مجال من المجالات؛ فالمحرومون من كل أنواع الذكاء قليلون جدًا، والذين فازوا بكل أنواعه أيضًا قليلون جدًا. الثقة بالنفس والإيمان بأن الله - تعالى - يعين ويوجب السائلين، ولا يضيع أجر العاملين، كما لا يحرم أحدًا من ثمار جهده.... هذه المعاني أساسية في اجتياح السدود التي تحول بيننا وبين أن نبدع في كثير من المجالات.

٢ - الإسراع في تقبل الأفكار:

هذا عائق كبير من عوائق الإبداع؛ حيث إن معظم الناس لا يميلون إلى بذل الجهد في استقصاء الإمكانيات أو اختبار البدائل؛ ومن ثم فإنهم يتخلصون من عناء التفكير بقبول أي طريقة يجدونها أو أول حلّ يعثرون عليه؛ مع أن من الثابت أن الأفكار العظيمة تأتي متأخرة عادة بعد أن نكون قد عصرنا أدمغتنا عصرًا، إن الفكرة البديعة لا تكون في الغالب عبارة عن ومضة ذهنية خلاقة، وإنما تكون أشبه بنبته عزيزة تحتاج إلى سقاية ورعاية وحماية حتى تشتد ويكتمل نموها، وإذا رجع الواحد منا إلى القرارات الخاطئة في حياته، فسوف يجد أن كثيرًا منها كان بسبب العجلة وعدم التروي وقلة الصبر على البحث عن بدائل أخرى.

كثيرون منا يسوِّغون ما لديهم من عجلة بضيق الوقت وتسارع وتيرة الحياة، وهذا في الحقيقة ليس عذرًا؛ فالإنجازات الكبرى في تاريخ البشرية مدينة للعمل الدؤوب مدة طويلة من الزمان.

### ٣ - التبعية للآخرين:

الإبداع سلوك لطرق جديدة، والولوج من مداخل مبتكرة، والتفكير بعقلية حرة، وهذا كله يتطلب درجة من الاستقلال الفكري والنفسي عن المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، ومن المعروف أن الثقافة الشعبية لدينا تتمحور حول التلاحم والتضامن الأهلي، ولهذا فإن معظم الناس يستوحشون ممن يتعد بطروحاته ومرئياته عنهم، وربما سَفْهُوه، وإن شواهد التاريخ تدل على أن كثيرًا من العباقرة والمبدعين كانوا في نظر الجماهير أشخاصًا غير طبيعيين، وهذا تعبير مهذب، ومن هنا قالوا: إن بين العبقرية والجنون شعرة رفيعة.

ليس هناك شيء من غير ثمن، وإن من جملة ثمن الإبداع والتجديد سلوك الطرق الموحشة، والإتيان بالأفكار التي قد لا تكون مستساغة أو موضع ترحيب من قِبَل معظم الناس. إن العاديين من الناس يسألون: من أين نبدأ؟ وأين الطريق؟ أما المبدعون والرواد، فإنهم يعلمون أنه ليس أمامهم طريق، فخطاهم هي التي ستشق الطريق!.

### ٤ - ضالة المحصول المعرفي:

مهما كانت قدراتنا الذهنية والنفسية عظيمة وممتازة، فإنها لن تغنينا عن أن نكتسب المزيد من العلم وأن نطلع على الأفكار والآراء ووجهات النظر التي تتصل بالقضية التي حاولنا، ونحاول أن نصل فيها إلى شيء غير مسبوق، وهذا واضح جدًا في الأعمال العلمية والأدبية العظيمة، فكتب الرواية الشهيرة جدًا يقرأ حول محاورها وأشخاصها وأحداثها عشرات وأحيانًا مئات الكتب المختلفة، وذلك من أجل تكوين خلفية ثقافية ثرية لما يريد الكتابة فيه، والذين يريدون اختراع شيء يطلعون على كل المحاولات السابقة التي تتصل به وبأشباهه، وحين سئل المخترع الأمريكي الشهير (أديسون) عن السر الذي يقف خلف مخترعاته التي تجاوزت الألف - قال: العبقرية ( ١٪ ) موهبة، والباقي عرق جبين. أي: علم وبحث وتجربة وتفكير. إن المعرفة كما أشرت سابقًا - هي عتاد العقل، وإن الإنسان الذكي جدًا يبدو أشبه بالأبله حين يفكر في موضوع ليس لديه أي معلومات عنه، من هنا كان التعلم المستمر شيئًا يتطلبه الإبداع، وكان الإعراض عن العلم هو العدو الأول له.

## طريق الإبداع:

ما دام كل واحد من الناس يملك نوعًا من الذكاء، يمكنه من خلال الاستفادة منه أن يكون مبدعًا ومبتكرًا، فلماذا نجد أن معظم الناس عاديون أو أقل من عادين؟

الجواب يكمن في رغبة الناس في أن يكونوا متميزين ومبدعين، وفي تخلصهم من الأوهام التي تحول بينهم وبين رؤية ما يمكنهم إبداعه بجدارة واقتدار، ولا شك أن للبيئة التي ينشأ فيها الواحد منا أكبر الأثر في إعدادة للسير في طريق الريادة والتفوق؛ ومن ثم كان علينا جميعًا أن نهتم بالناشئة، وأن نمحنهم من الرعاية ما يساعدهم على ذلك. الآن عليّ أن أوضح ما تتطلبه تنمية الإبداع، وما يقتضيه السير في طريقه؛ وذلك عبر المفردات الآتية:

## ١ - وجود الدافع:

طريق الإبداع هو طريق العمل والجهد، وهو طريق طويل وغير ممهد؛ ولهذا فلا بد من وجود الرغبة في السير فيه، ولا بد من وجود الحافز والدافع على بذل الجهد، ولا شك في أن أرقى الدوافع هو ذلك الذي يتصل برضوان الله - تعالى - إنه يدفع المسلم إلى إضافة شيء جديد للحياة حتى يساعد الناس على أن يحيا حياة أطيب وأكرم، وحتى يتمكنوا من التغلب على المشكلات التي تواجههم، وعلى مقدار ما نُخلص لله - تعالى - في مقاصدنا، نجد من توفيقه ومعونته...

الدوافع متنوعة، منها القوي، ومنها الضعيف، ونحن نحتاج إلى الدافع القوي... الذي يحركنا دائمًا نحو الأمام، وهذا الدافع يمكن لنا أن نولّده وندعمه باستمرار من خلال تذكر الثواب العظيم للعاملين المثابرين، ومن خلال تذكر المشاعر الجميلة والفوائد العظيمة التي نتمتع بها حين نكون في المقدمة، ومما يذكر في هذا السياق أن شابًا جاء إلى حكيم، وسأله: كيف يمكن أن أكون ناجحًا؟ فقال له: عليك أن تمتلك الدافع لذلك. قال الشاب: وكيف أمتلك ذلك؟ هنا قال الحكيم للشاب: اقترب، فاقتراب منه، وكان إلى جوار الحكيم بحيرة صغيرة، فما كان منه إلا أن أخذ برأس الشاب وغمسه في الماء، وبعد ثوانٍ قليلة أخذ الشاب يتضايق، ويشعر بنفاد الهواء من رئتيه، وصار يحاول رفع رأسه والتخلص من ضغط يد الحكيم، وقد نجح في ذلك بعد

لأي، فقال له الحكيم: هذا هو الدافع، إنه الشعور بضرورة القيام بعمل ما للانتقال من الوضعية الراهنة إلى وضعية أفضل.

## ٢ - التركيز والاهتمام:

إذا سئلت عن الجناحين اللذين يطير بهما الإنسان في آفاق الإبداع لقلت من غير تردد: إنهما الاهتمام والتركيز، إنهما فضيلتان متداخلتان؛ فالواحد منا إذا اهتم بشيء، فإنه يركز عليه، وإذا ركز على شيء استنفذ كل طاقاته للاهتمام بكل ما يتعلق به، السؤال هو: كيف يُثبت الإنسان لنفسه ولغيره أنه فعلاً صاحب اهتمام بما يريد الإبداع فيه وصاحب تركيز عليه؟

الجواب هو الآتي:

- يقرأ ويطلع حوله، ويتتبع الكتب والأفكار الجديدة، ويشترك في المجلات المتخصصة فيه.
- يسأل المتخصصين، ويناقشهم، ويحضر الدورات والندوات والمؤتمرات التي تُعقد حوله.
- يحدد ما يريده بالضبط، ولا يهمله ما إذا كان صغيراً أو كبيراً، المهم هو المحي به شيء جديد نافع.
- يفكر فيه ويتأمل، ويسجل كل الخواطر التي تخطر له حوله.
- يتخيل باستمرار المكافأة العظيمة التي يحصل عليها إذا ما نجح في خطته.
- يدخل إلى عالم أحد الناجحين المبدعين في مجال اهتمامه، ويحاول الاستفادة من أسلوبه في ممارسة الإبداع.

## ٣ - المجال الرحب:

مجال الإبداع رحب للغاية وفسيح أكثر مما نتصور، وذلك لأننا إذا تأملنا في أسلوب عيشنا اليومي، وفي الأدوات التي نستخدمها وفي الأفكار والمفاهيم التي نمتلكها... وقارنا كل ذلك بما كان عليه الناس قبل مئة عام لوجدنا أن بين الزمانين مسافة واسعة في كل شيء، وهذه المسافة صنعها في الحقيقة عشرات الملايين من المبدعين الصغار والكبار، ومن هنا فإن على من يريد أن يسير في طريق الإبداع أن

يعتقد أن معظم ما في حياتنا من أشياء وأعمال وعلاقات... يمكن أن يوجد ويؤدي بطريقة تقليدية عتيقة، ويمكن أن يؤدي بطريقة إبداعية مبتكرة، وإليك بعض الأمثلة على ما نقول:

- أنت مدرس لمادة الفيزياء، وتحاول ممارسة تدريسك لطلابك بطريقة إبداعية غير مسبوقة.

- جاءت والدتك لزيارتك بعد انقطاع طويل، وأحببت أن يكون استقبالك لها بشكل غير مسبوق فيما تعلم.

- كلفت برئاسة أحد الأقسام في شركتك، وعزمت على إدارته بطريقة إبداعية.

- تريد أن ترفع نسبة استغلالك لأوقات فراغك بنسبة ( ٤٠ % ).

- وجدت نفسك مسؤولاً عن رعاية يتيم، فأحببت أن تتبع في رعايته أسلوباً نموذجياً مدهشاً.

- ستذهب غداً إلى مكة المكرمة وتقيم فيها يومين، فأحببت أن تستثمر إقامتك فيها في طاعة الله على أفضل وجه ممكن، فكيف يكون ذلك؟

- أنت مستشار إداري، وقد طلب منك وضع خطة لتحويل شركة من الخسارة إلى الربح دون إنفاق أي مال إضافي.

- لديك سيارة قديمة، أحببت أن تتمتع بشعور من يقود سيارة جديدة، فما الذي يمكن أن تفعله؟

- أنت مهندس مدني في بلد فقير، كيف تستطيع تصميم منازل شعبية للفقراء بتكاليف تقل ( ٣٠ % ) عن التكاليف المعروفة الآن على هذا الصعيد؟

- أنت مستشار للإصلاح بين الزوجين، كيف ترفع نسبة نجاحك في الإصلاح بنسبة ( ٢٠ % )؟

إن في إمكاني أن أعدّ عشرات النماذج الشبيهة بما ذكرته، وذلك حتى أرسخ في وعي القارئ شيئاً مهئاً، هو أنه ما من شخص في أي مجال يعجز عن أن يمارس عمله أو شيئاً منه بطريقة إبداعية لو أحب.

## ٤ - تعامل خاص مع المعرفة:

يُطلع الطالب في الجامعة ومراحل التعليم التي قبلها على الكثير الكثير من المعلومات والنظريات والأفكار، ويكون همُّه في الغالب هو النجاح في الاختبارات والحصول على درجات عالية، وهذا شيء جيد في المجمال، لكن هذا ليس هو طريق المبدعين، وليس هو الشيء الذي يستحوذ عليهم. إن معظم الناس عاديون لأسباب كثيرة، وإن تدهور مستوى التعليم في كل المراحل ووجود عدد قليل جدًا من المؤسسات التعليمية الممتازة، على علاقة وثيقة بضمور الإبداع والاختراع في أمتنا؛ فالمدرسة الرديئة والجامعة المتآكلة تخفض سقف الطموحات لدى طلابها؛ بل تجعلهم في حالة من اليأس والإحباط والسأم، كما أن الإرشاد النفسي والأكاديمي فيها يكون في الغالب ضعيفًا، وهي لذلك لا تستطيع الأخذ بيد الطالب في اتجاه كسر المألوف وفتح أفق جديد، ومن هنا فإني أؤكد وأشدّد على أن نختار لأبنائنا أفضل المؤسسات التعليمية المتوفرة، وعلى أن ننفق على ذلك بسخاء بالغ، ونعطيه الأولوية على أي مشروعات أو استثمارات أخرى؛ فالاستثمار في الأبناء هو أعظم جدوى من أي استثمار آخر. المدرسة الجيدة والجامعة الجيدة توفر لمنسوبيها جوًا نفسيًا مريحًا، وتفتح أذهانهم على توظيف المعرفة التي يحصلون عليها من خلال كثرة التطبيقات والتجارب العلمية التي تتيحها لهم، وبذلك تدلهم على استثمار المعرفة، وتدلهم على إمكانات توظيفها في خدمة الإنسان، ومن هنا أقول: إن الإبداع لا يحتاج إلى تحصيل علمي رفيع ومتميز بمقدار حاجته إلى ارتفاع المرء من الاهتمام بالذاكرة والحفظ والنجاح في الاختبارات إلى مرتبة الفهم والتحليل والاستنباط والتوظيف الجديد للمعرفة المتاحة؛ ولهذا فإننا نرى أن كلاً من المبدع والسائر في طريق الإبداع يتعامل مع المعرفة على النحو الآتي:

أ - كلما اطلع على معلومة جديدة سأل نفسه السؤال التالي: كيف يمكن أن أستفيد فائدة عملية من هذه المعلومة؟ وما متطلبات ذلك؟

ب - لا يكتفي بالدراسة المنهجية، وإنما يحاول الاطلاع على بعض المراجع والمصادر والمجلات والتحقيقات الصحفية التي تناولت المسألة التي يهتم بها.

ج - يحضر الدورات والندوات والمؤتمرات التي تُعقد في مجال اهتمامه.



د - يتتبع أخبار الإبداعات والاختراعات ويحضر المعارض المعنية بذلك.

هـ - يحاول الاحتكاك بالأشخاص الذين عُرف عنهم الاهتمام أو الإبداع بما يحب أن يبدع فيه.

تبدو هذه الأمور في نظر الإنسان مكلفة لأول وهلة، وهذا صحيح، ومن الذي يقول: إن طموح المرء لأن يكون مبدعًا يمكن أن يتحقق من غير أي جهد ومن دون دفع أي ثمن؟ طريق المعالي مفروش بالأشواك لكن نهايته سعيدة وعظيمة ومثمرة.

و - الانتباه للأفكار الصغيرة؛ حيث إن عصر الأفكار الكبرى وعصر القادة والعلماء العظام الذين يغيرون مجرى الحياة قد انتهى، وجاء عصر الأفكار والإبداعات الصغيرة التي تتراكم، فتغيّر ببطء معالم الحياة وملامحها، كما أنه جاء عصر الأبطال الصغار الذين يسدون الثغرات، ويحققون النجاحات المحلية.

المبدع إنسان لمّا يحاول التقاط الأفكار العابرة والإشارات السريعة التي تصدر من هنا وهناك، إن هناك مئات الملايين من الناس الذين شاهدوا الأشياء وهي تسقط من الأعلى إلى الأسفل دون أن يفكروا في القانون الذي يحكم تلك الظاهرة إلى أن جاء (إسحاق نيوتن) فاكتشف قانون الجاذبية، وعانت النساء قرونًا كثيرة من كنس الأرض وظهورهن محنية بسبب كون المكانس قصيرة، إلى أن جاء إنسان مبدع فرأى إمكانية الخلاص من ذلك بإضافة عصا طويلة إلى المكينة، فتكنس المرأة وهي واقفة، إنها فكرة صغيرة جدًا لكنها غيرت حياة الملايين! حين نسمع أن شركة صينية سجلت عام (٢٠٠٨ م) ما يزيد على (١٧٠٠) براءة اختراع في مجال الاتصالات أدركنا أن تلك الاختراعات متناهية الصغر، وهي تجسيد لأفكار صغيرة جدًا، والحقيقة أن المبدع يهتم بما ينظر إليه غيره نظرة استخفاف، ومن هذا الفارق بين هذا وذاك تتخلق الأفكار والإبداعات الصغيرة، وبها تستمر مسيرة التطور.

## التفكير النقدي



رسخ في أذهان الناس أن التفكير الناقد عبارة عن نشاط ذهني يستهدف إبراز النقائص والعيوب والأزمات التي يشاهدها الناقد على مسرح الحياة، وهذا في الحقيقة غير صحيح، وربما كان سببه هو أن معظم ما يرونه من ملاحظات وتعليقات صادرة عن أطراف متعددة - يميل فعلاً إلى ذلك، ومن هنا فإن الناس ينظرون إلى النقد على أنه نوع من الشكوى والتظلم والتعبير عن السخط تجاه قضايا لا يملكون تجاهها أي حيلة، وهذا يشكل في الحقيقة نوعاً من الصد عن ممارسة النقد والاهتمام به.

إن النقد في جوهره هو مجموعة من العمليات الذهنية التي تستهدف تقييم بعض الحقائق والمعلومات والأفكار والظواهر... وتمييز ما فيها من خير وحق وصواب وجمال عما فيها من باطل وخطأ وقبح، إن المفكر وهو ينقد يستخدم ما لديه من قيم ومعايير وأفكار ومعلومات، وهذا الاستخدام كثيراً ما يكون عبارة عن تطبيق وتوظيف للمعارف والأفكار الجديدة في فهم الواقع وتحديد المشكلات الاجتماعية؛ بالإضافة إلى تفسير التناقضات التي يعيش فيها الناس. ومن هنا فإن التفكير النقدي عمل متفوق جداً؛ لأن الناقد يُثبت أن وعيه متحرر من سلطان البيئة والنماذج الشائعة ومتحرر من برمجة التيار الاجتماعي العام، والذي لا يكون في الغالب رشيداً وواعياً. الذي يمارس النقد يدرك أنه يعبر عن فهم مقارب لما ينبغي أن تكون عليه الأشياء وفهم مقارب لما هي عليه الآن، وعمله الأساسي هو توضيح ذلك الفارق وتثريته وبيان خطورته، وحين يجد الناقد الاجتماعي صوراً متفوقة وخيرة، فإنه يعبر عنها ويشجعها، كي يرسخها، ويمكن لها في الحياة العامة، وكي ينشر روح البشر والاستبشار في نفوس الناس.

أهمية الممارسة النقدية:

إن القرآن الكريم هو الذي أسس لممارسة النقد في المجتمع الإسلامي؛ فقد كانت

الآيات تنزل على نبينا ﷺ متتابعة ومتتبعة لتقلبات المجتمع وأنشطته وأحداثه العامة، ونجد - على سبيل المثال - أنه ما من غزوة أو معركة كبرى إلا كان هناك بيان قرآني يتحدث عن منة الله - تعالى - على المسلمين بالنصر والتثبيت وعن سلوك الصحابة رضي الله عنهم خلال المعركة، وما يستلزمه من إرشاد وتوجيه ومعاتبه، ونحن نعرف أن القرآن الكريم عاتب النبي ﷺ شخصيًا على بعض اجتهاداته، كما هو الشأن في قبول فداء الأسرى والإعراض عن عبد الله بن أم مكتوم وغير ذلك...

المجتمع إذن في أمس الحاجة إلى النقد؛ وذلك لأن هناك عوامل كثيرة تؤدي إلى وجود مفارقات بين التنظير والتطبيق وبين الاعتقاد والسلوك العملي، وأنا أود هنا أن أؤكد على أهمية الممارسة النقدية بالنسبة إلى المفكر والساعين في طريقه، وبالنسبة إلى المجتمع أيضًا وذلك عبر المفردات التالية:

١ - الرؤية النقدية للمجتمع وأوضاعه بما فيها من إيجابيات وسلبيات، هي الشيء الجوهرى الذي يميّز (المفكر) عن (العالم)، و (الداعية)، و (المختص)؛ لأن صناعة المفاهيم هي الشغل الشاغل للمفكر، والمفاهيم التي يصنعها تتمحور على نحو أساسي حول الواقع الاجتماعى وحول إمكانية تطويره والارتقاء به، ومن هنا فإن في الإمكان القول: إن امتلاك المرء لعدد كبير من الأفكار والملاحظات حول واقع الأمة، والفرص التي أمامها، والتحديات التي تواجهها، وحول جذور كل ذلك، وحول العلاقات التي تربط بين المسارات الحضارية المختلفة... هو الذي يرشح العالم والمختص لنيل لقب (مفكر)؛ وذلك لأن العالم قد يصبح عالمًا؛ لأنه يحمل في رأسه الكثير من المعلومات، ومع ذلك يكون مقلدًا لغيره في تحليل الواقع الحضارى المعيش، أما المفكر فهو مجتهد وذو نظرة مستقلة - نسبيًا -، كما أنه يسعى باستمرار إلى تفحص مقولاته وإعادة النظر في طروحاته، كي يمنحها المزيد من التماسك والنضج.

٢ - المفكر يقوم بدور (الجراح) وهو في هذا بحاجة إلى أمر مهم، هو برهنته على أنه يملك مساحة فاصلة بين وعيه ووعى مجتمعه، أي أن وعيه ليس مندمجًا في الوعى الجمعي، وبسبب ذلك يستطيع المفكر تقويم المجتمع ونقده وقيادته فكريًا وثقافيًا؛ وإن الذي يدعو إلى هذا الكلام ما نلمسه من حرص المجتمعات على أن تكون منسجمة مع ذاتها وعلى الملمة شؤونها، لتبدو وكأنها منطقية وصحيحة،

والدافع لذلك هو تحقيق التلاحم الأهلي ودفع شرور الفتن والانقسام الداخلي، والناس في سبيل ذلك يتسترون على كثير من المشكلات الهائلة، وعلى كثير من الأمراض والعلل الخلقية التي تفتك بهم، إن أوضاعهم تكون فعلاً أشبه بالجرح الذي التأم على فساد، وهم يستخدمون في ذلك المجاملة والمداهنة والمداراة والتعاطف الاجتماعي... هنا يأتي دور المفكر ( الجراح ) لينكأ الجرح، ويخلصه من الجراثيم المتجمعة فيه، والتي قد تكون في مرحلة من المراحل خطرة جداً وقاتلة.

لك أن تنظر - على سبيل المثال - إلى ما ابتليت به بعض المجتمعات المسلمة من التعصب للقبيلة؛ حيث التقديس لتاريخها ورجالها وعاداتها وتقاليدها؛ وحيث التستر المتعمد على كل العيوب والمشكلات التي تعاني منها، إن هذه الظاهرة تحتاج إلى نقد وعلاج مستمر من أجل التخفيف منها، وتعميم الرؤية الموضوعية عند تلك القبائل قدر الإمكان.

٣ - تحتاج الأمم دائماً إلى من يفحص لها مساراتها، ويتحسس مآلات أعمالها، ومن يمدّ لها قرون الاستشعار في جوف المستقبل؛ حتى تضبط إيقاع حركتها اليومية برؤيتها المستقبلية، وهذه المهمة العظيمة من المهام الجوهرية للمفكر؛ بل إن المفكر يكاد يكون هو المؤهل الوحيد للقيام بذلك، والمرء كثيراً ما يكتسب أهميته من أهمية الأشياء المكلف بإنجازها، كما هو الشأن هنا. وإن المفكر بما يعرفه من طبائع الأشياء وسنن الله - تعالى - في الخلق، وبما يعرفه من طبيعة الأفكار السائدة وطبيعة القوى المؤثرة في الساحات المحلية والعالمية... يستطيع أن يحذر الناس من كثير مما هو قادم من التحديات، كما يستطيع تبصيرهم بالفرص والإمكانات المستقبلية، وقد قال سفيان الثوري رحمته الله: « الفتنة حين تدبر يعرفها كل الناس، لكن حين تقبل، فإنه لا يعرفها إلا العالم ».

وكثيراً ما حذر المفكرون المسلمون الأمة من مغبة إعراضها عن القراءة ومغبة وهن مؤسساتها التعليمية، كما حذروها من عواقب ضمور الجانب الروحي في شخصيات شبابها ومن انتشار الكذب والرشوة والفساد المالي والإداري؛ بوصف هذه الأوبئة عوامل نخر في وجودها المعنوي، كما أن المفكرين المسلمين كثيراً ما شرحوا للأمة الفرص التي تلوح أمامهم، وذلك حين أكدوا على أهمية الالتزام بالمنهج الرباني الأقوم والاستفادة من العنصر البشري المتكاثر بقوة في ديار المسلمين، وذلك من خلال

تعليمه وتدريبه، كما أكدوا على أهمية الوحدة الإسلامية، والاهتمام بالتربية الأسرية وتجديد الصحوة وتحقيق العدالة الاجتماعية...

٤ - إن المجتمعات كثيرًا ما تجد نفسها في حمأة الرتابة والجمود على الموروث، وكثيرًا ما تجد نفسها غارقة في تقليد الآخرين، وتجد نفسها أيضًا مستكنة أمام التحديات ومستسلمة للمشكلات والأزمات، وهنا يأتي دور النقد الاجتماعي البناء ودور المفكرين العظام الذين يجددون المفاهيم وينقدون السلوكيات، وعلى سبيل المثال فإن المفكرين المسلمين يحثون الناس على الانفتاح على الآخر، وعلى محاولة الاستفادة مما لديه من رؤى وخطط وبرامج، كما أنهم يحاولون إحياء روح المبادرة في الأمة من خلال التأكيد على معنى جوهري، هو أن في إمكان الأمة أن تقدم ملايين القادة والمبدعين والعلماء المحليين الذين يقدمون نماذج صغيرة جيدة ويسجلون نجاحات محدودة، ومن خلال تراكم إنجازاتهم يتغير حال الأمة نحو الأحسن، كما نلاحظ أن المفكرين المسلمين يُشيعون في الأمة روح الاستبشار والأمل بغد مشرق وواعد من خلال بث الثقة في نفوس الناس وبيان مكاسبهم خلال الخمسين سنة الماضية، وكيف أنهم اليوم في حالة أفضل مما مر على المسلمين عبر القرون السبعة السابقة على أقل تقدير... النقد هو الرئة التي تتنفس بها الأمة، وهو المصباح الذي يضيء لها الطريق، وهو لا يؤذي إلا الحالات المريضة، ولا يتضايق منه إلا من لديهم نوع من الاعوجاج والتفريط!

### كيف نؤسس للعقلية النقدية؟

من الواضح أن النقد يعطي لصاحبه تفوقًا فوريًا على جلسائه؛ حيث يستطيع من يمارسه خطف الأضواء بسرعة فائقة، على حين أن ثمار التفكير الإيجابي لا تظهر إلا ببطء شديد، ويظل الناس غير متأكدين من وجودها، لكن المشكل لدينا، هو ميل معظم الناس إلى إطلاق العبارات النقدية دون تدقيق ولا تحديد، ودون قدرة على البرهنة على ما يقولونه أو تعليله، مما جعل مجالسنا العامة عبارة عن محافل للتذمر والشكوى والانتهاام والكثير من الكلام غير الدقيق وغير المسؤول، وكم سمعنا من يقول: المجتمع فاسد، الغزو الفكري حطّم الناس، الأمة تتدهور، الشباب ضاع، ليس هناك أي أمل في الإصلاح، الغرب هو سبب بلائنا، الجامعة الفلانية فاشلة، العالم

الفلاني مدهن للحكومة... إن هذا النوع من النقد يزيد الطين بلة بسبب ما فيه من تعميم وعجلة، وبسبب افتقاره للبرهان والتفصيل، وهذا كله بسبب عدم وجود عقل نقدي عام راشد وحذر وخبير، ومن هنا فإن على الواحد منا أن يبذل الكثير من الجهد حتى لا يقع في مصيدة ( النقد المطلق )، ولعل من أهم ما ينبغي القيام به من أجل ذلك هو تأسيس العقلية النقدية وتغذيتها بالأفكار الواضحة على نحو مستمر، ومما يساعد على هذا الآتي:

#### ١ - الشعور بالمسؤولية:

حين يتفضل الله - تعالى - على عبده بدرجة حسنة من الوعي والفهم والإدراك، وحين يمكنه من محاكمة الأمور على نحو جيد، فإن عليه أن يقدم شكره على ذلك، وشكره يكمن في كشف الزغل والانحراف في الحياة العامة، سواء أكان ذلك في الأفكار والمفاهيم أو كان في المواقف والسلوكيات، المصلحون يعرفون أنهم إذا لم يتكلموا، فقد لا يتكلم غيرهم، وقد يتكلم من يهرف بما لا يعرف، ومن يسيء ويؤذي، ولهذا فإنهم يحملون على كواهلهم همومًا لا يشعر بها الكثير من الناس... الشعور بالمسؤولية هو ذلك الشعور النبيل الذي يحوّل الصغير إلى كبير، والهامشي إلى محوري، إنه فيزياء العظمة، وما أجمل قول ( مارتن لوثر كينج ) : « لست فقط محاسبًا على ما تقول، أنت محاسب أيضًا على ما لم تقل، حيث كان لا بد لك أن تقول ». نعم، إن الفرض الكفائي قد يتحول في لحظة ما إلى فرض على شخص بعينه، فأنت إذا رأيت شخصًا يغرق، وكنت أقرب الناس إليه، فإن عليك أن تبذل كل ما تستطيع من أجل إنقاذه. نحن حتى نشعر بالمسؤولية نحتاج إلى صدق مع الله - تعالى - وصدق مع النفس وشيء من أصالة الشخصية والشعور بالاستقلال الذاتي النابع من عمق الإحساس بالكرامة.

#### ٢ - رؤية ما هو خارج المؤلف:

العاديون من الناس يرون كل شيء عاديًا؛ لأن بنيتهم العقلية والمعرفية هشة وضحلة؛ ولهذا فإنهم لا يفرّقون بين ما هو متفوق وما هو عادي، وبين ما هو طبيعي وما هو غير طبيعي، وهم لذلك محرومون من الشعور بالدهشة الذي يتمتع به المبدعون والمثقفون الكبار. في المجتمع صور رائعة من البذل والعطاء والتفوق والسمو والإبداع،

يستحق أصحابها الإشادة والتشجيع والمؤازرة، وفي المجتمع صور من الانحراف والتقاعس والتخريب... تحتاج إلى من يسلط الضوء عليها، وينقدها حتى لا تستمر وتنتشر، والمفكرون أصحاب البصيرة النقدية هم الذين يجب عليهم القيام بذلك.

المطلوب في نظري هو بذل جهد واسع لإدراك حدود الأمور الطبيعية على المستويات الأخلاقية والعلمية والسلوكية، ويحتاج من يحاول ذلك إلى أن يستخدم المقارنة بين الأشخاص والأسر والمدارس والشعوب... إنها مقارنة بين أي شيء يريد فحصه والحكم عليه وبين نظرائه؛ بالإضافة إلى شيء من الدراسة الكمية، أي معرفة نسبة انتشار هذا الشيء؛ فالشيء الطبيعي - بمقياس من المعايير - كثيرًا ما يكون منتشرًا ومتقبلًا من غير نكير، كما أن الشيء النادر جدًا يُدهش له كثير من الناس، وأعتقد أن معرفة الأشياء الشاذة والخارجة عن المؤلف تحتاج إلى نوع من الدربة ودرجة من الإبداع، ومع الدراسة والملاحظة والتدريب يحصل الإنسان على الكثير الكثير من الأشياء في هذا الحقل وفي غيره.

### ٣ - فن التساؤل:

إن طرح الأسئلة حول أي شيء نريد فهمه ونقده، يشكّل أداة نقدية مهمة للغاية؛ لأننا من خلال الأسئلة ومحاولة الإجابة عليها نمتلك نوعًا من الإحاطة الشاملة بكل جوانب المسألة أو القضية أو النص الذي نود نقده، وأنا سأذكر نموذجًا توضيحيًا لذلك.

وهذا النموذج هو عبارة عن قول أحد الكتاب: « دلت إحدى الدراسات على أن متوسط ما يقرؤه العربي في اليوم هو ( ٦ ) دقائق يوميًا، على حين أن الأوروبي يقرأ ما متوسطه ( ٣٨ ) دقيقة، والحقيقة أن العرب لا يقرؤون وإذا قرؤوا لا يفهمون... وهذه الوضعية بسبب انتشار الأمية والفقر، والذي يجعل قضاء الحاجات الأساسية في نظر الناس مقدّمًا على شراء الكتب، كما أن المدارس أخفقت في تحبيب الكتاب إلى الطالب ».

ما موضوع هذا النص؟ وما الرسالة التي يود الكاتب إيصالها إلى القارئ؟

موضوع النص هو: إعراض العرب عن القراءة، والرسالة الخفية للكاتب عبارة عن حث للناس على تجاوز الأسباب التي منعت كثيرًا منهم من القراءة؛ فالحصول على المعرفة يستحق التضحية.

عن أي نوع من القراءة يتحدث الكاتب؟

من الواضح أنه لا يقصد ذلك النوع المعمق من القراءة، والذي يتناول تحليل النص ومحاورة الكاتب ونقده، وإنما يقصد أساسًا النوع البسيط من القراءة الذي يمارسه عامة الناس.

كيف ننظر إلى الأرقام الواردة في النص؟

في النص رقمان يتحدثان عن متوسط مدة القراءة اليومية لدى العرب ولدى الأوروبيين، والرقمان واضحان، ولكن إلى أي مدى يمكن أن يكونا دقيقين؟ وهل يتناولان كل أنشطة القراءة لدى الفريقين؟

هناك شيء نسميه ( بلاغة الرقم )؛ حيث إن التحديد الذي تمنحنا إياه الأرقام في إدراك الظواهر، لا يمنحنا إياه أي شيء آخر، لكن علينا أن نشير إلى شيئين مهمين: الأول: هو أن وضوح دلالة الأرقام يجعل الطلب عليها شديدًا، ويجعل تداولها واسعًا جدًا، وهذا يؤدي إلى أمرين: الأول: تعرض الأرقام للتحريف الشديد، وعلى سبيل المثال فإن ما ذكر في النص من أن متوسط قراءة العربي في اليوم هو ( ٦ ) دقائق قد تم تحريفه في بعض الكتب أثناء التداول إلى ( ٦ ) دقائق في السنة، وهو تحريف خطير للغاية!. الأمر الثاني: هو المتاجرة بالأرقام؛ حيث إن كشف الكذب في الأرقام كثيرًا ما يكون صعبًا للغاية، ولهذا فإن بعض الجهات تحاول تحقيق أرباح ومكاسب ومصالح عن طريق تضخيم بعض الأرقام وتقليل أرقام أخرى؛ ولهذا فلا بد من الانتباه الشديد، وإلا كان وعينا وإدراكنا هو الضحية القادمة.

الثاني: هو أن الرقمين الموجودين في النصين يشيران إلى ظاهرتين كبيرتين، لهما علاقة بـ ( ٧٠٠ ) مليون شخص، ودلالة الأرقام على الظواهر الكبرى دائمًا ظنية، ويشوبها الكثير من القصور؛ ولهذا فإننا ننظر إلى أرقام من هذا النوع على أنها مؤشرات مرنة أكثر من أي شيء آخر. وهذا كله على افتراض أن الدراسة علمية وجادة، وعلى افتراض أنها حديثة، فإذا اختل أحد هذين الأمرين كان من حقنا أن نتوقف أمامها أكثر وأكثر.

أما ما أوردناه من التساؤل عن شمول الدراسة لكل أنشطة القراءة، فجوابه هو: أن



الدراسة ركزت - على ما يبدو - على نشاط القراءة الحرة، فهي لا تشير إلى نشاط القراءة داخل المدارس والجامعات، كما أنها لا تشير إلى زمن القراءة الذي يمضيه الموظفون في أعمالهم، وإلا لتغيرت الأرقام.

هل الإعراض النسبي عن القراءة لدى العرب ذو علاقة بطبيعة الإنسان العربي وتركيبه الجيني؟ وهل العربي وحده هو الذي يفقد الشهية للقراءة؟

من الواضح جدًا أنه ليس هناك أي علاقة بين الموروث الجيني للإنسان وبين رغبته في التعلم والاطلاع، وإن في العرب من يقرؤون أكثر من اليابانيين والأوروبيين، وإن التفسير الملائم لظاهرة ضعف القراءة لدينا هو أن نعزو ذلك إلى (التخلف الحضاري) الذي يجثم على صدورنا منذ ما يزيد على ثمانية قرون، التخلف يجعل الإنسان لا ينتفع بمبادئه ولا بترائه لأنه يجعله يفقد الحس والحدس التاريخي، ويجعله لا ينتفع بمعطيات زمانه؛ لأنه يُفقد روح المعاصرة والوعي بالفرص التي تتيحها، وحين يذهب الشاب العربي إلى الغرب، فإنهم ينخرطون في الدراسة والتعلم كما ينخرط زملاؤهم الغربيون... ومن هنا نجد أن الشعوب المتخلفة في أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، هي الأخرى تفقد الشهية للقراءة مع أنها ليست عربية ولا مسلمة، مما يعني أن التخلف الحضاري فعلاً هو أساس المشكلة.

- هل صحيح ما ذكره الكاتب من أن العرب إذا قرؤوا لا يفهمون ما قرؤوه؟ هذا غير صحيح؛ فالعربي لا يقرأ لأنه يعاني من التخلف، لكنه حين يقرأ، فقد يفهم وقد لا يفهم، شأنه في ذلك شأن كل القراء من كل الأمم؛ حيث إن الفهم مرتبط بالخلفية المعرفية للإنسان وبمستواه العلمي، كما أنه مرتبط بمدى ما لديه من دربة في قراءة النصوص وبطريقته في القراءة، ومدى نجاحه في اختيار الكتاب المناسب له.

- هل ما ذكره الكاتب من أسباب تفصيلية لإعراض العرب عن القراءة صحيح؟ وهل هي الأسباب الوحيدة؟

إن ما ذكره الكاتب صحيح في الجملة، حيث إن (٣٠٪) من العرب هم حتى هذه اللحظة أميون؛ فهم طبعاً لا يقرؤون، وكثير منهم لا يعرفون قيمة العلم ولا قيمة القراءة، ولا يحفظون أسرهم على المطالعة، ولا يساعدون أبناءهم في شراء الكتب، أي أنهم يوسعون دائرة الإعراض عن القراءة.

أما الفقر فإنه يشكل سببًا ثانويًا في الحقيقة؛ حيث إننا نجد كثيرًا من الأثرياء لا يقرؤون، كما أن المكتبات العامة كثيرًا ما تكون خاويةً على عروشها، على الرغم من أن المطالعة فيها مجانية، كما أن كثيرًا من الفقراء الذين لا يقرؤون ينفقون الأموال الطائلة على الأكل والشرب واللباس وأمور مظهرية كثيرة.

أما إخفاق المدارس في تحبيب الكتاب إلى الطلاب، فهذا ثابت وملحوس، وهو يعود إلى تخلف البيئة التعليمية وإلى كون أساليب التعليم تقوم على التلقين وتهميش دور الطالب في عمليات التعلم، كما أن قلة التطبيق والورش العملية وقلة المعامل والمختبرات والتجهيزات المدرسية وضعفها من الأمور التي تورث السأم، وتجعل التعلم عبئًا ثقیلاً.

وعندي أن هناك سببًا آخر للإعراض عن القراءة، وهو يتعلق هذه المرة بسياسات الحكومات في التنمية وتوفير فرص العمل؛ حيث إننا نجد أن معظم الوظائف لا يتصل بالمعرفة من قريب أو بعيد، ولا يتطلب ممن يشغلها الاستمرار في القراءة والبحث؛ ولهذا فإن الإنسان العربي لا يجد في وظيفته - غالبًا - ما يدفعه إلى القراءة أثناء ممارسة الوظيفة في الصباح ولا بعد عودته إلى بيته في المساء، وقد أفاد بعض الدراسات أن ( ٤٠ ٪ ) من الوظائف في أوروبا على صلة بالمعرفة، وتحفز على التزود المستمر منها. العمل الذي لا يتصل بالعلم يتطلب - في كثير من الأحيان - جهدًا عضليًا عاليًا، مما يجعل المرء يأوي إلى بيته كي يرتاح بعد أن استنفد كل طاقته في وظيفته. السؤال الأخير في مسألة الإعراض عن القراءة هو: إذا صحَّ أن الناس يُعرضون عن القراءة بسبب التخلف، وكان الإقبال على القراءة يساعد على التقدم. فإن النتيجة قد تكون: الناس يعرضون عن القراءة لأنهم متخلفون، وهم لا يتقدمون حتى يقرؤوا، وبهذا نكون قد وضعنا أنفسنا فيما يشبه الدائرة المغلقة؟

هذا في التنظير العام صحيح إلى حد ما، لكن إذا جئنا إلى التفاصيل، لا يكون صحيحًا؛ حيث يمكن للناشئة أن يحبوا الكتاب والمطالعة إذا ظفروا بأسرة مهتمة بالعلم أو درسوا في مدرسة جادة أو عملوا حين يكبرون في شركات ( متعلمة ) أو ذات صبغة بحثية أو تقنية عالية... إذن دائمًا هناك مخرج، وهناك إمكانية لعمل شيء جيد.

لدينا مجال واسع لطرح المزيد من الأسئلة ومحاولة الإجابة عليها، ولكن لا أريد

الاستطراد في هذا؛ حيث اتضح أننا إذا تعلّمنا كيف نسأل، فإننا سنجد في الأسئلة محفزًا قويًا للخيال كي يعثر على بعض الأجوبة، والمهم أن ندرك أن كل ما قلناه هو عبارة عن مقارنة ومحاولة اجتهدية مبدئية تحتل النقد والمراجعة والتصحيح.

#### ٤ - السعي إلى الوضوح:

السعي إلى الوضوح والحرص عليه وسلوك كل السبل المؤدية إليه، هو دأب كل المفكرين؛ وذلك لأنهم يشعرون أن الغموض والانبهام متصلان بنقص المعرفة أو نقص الإدراك أو بهما معًا، ومن هنا لسنا نبالغ إذا قلنا: إن المفكر يعمل على امتداد حياته على مكافحة العماء و ( اللاتكوّن ) مع أنه يدرك تمامًا أن الجلاء التام قد لا يكون متاحًا في كل الأحيان؛ ولهذا فالمطلوب أعلى درجة من الفهم والرؤية والإحاطة، ولعلي أشرح ما أريده عبر الآتي:

أ - حين نود أن نفكر في شيء تفكيرًا نقديًا صحيحًا، فإن هذا يتطلب أن نقوم بتحديد ذلك الشيء وتصور ماهيته بدقة؛ لأننا ما لم ننجز هذا، فإن كل الجهود اللاحقة قد تكون غير ذات معنى، ولهذا قال المناطقة: « الحكم على الشيء فرع عن تصوره ». والمشكل أن الوصول إلى تعريف وتشخيص واضح ومتفق عليه للأشياء والأحداث التي نهتم بها، ليس بالأمر السهل، وكلما كان الشيء الذي نحاول تعريفه وتحديد ضخمًا أو معقدًا أو كثير التفاصيل - وجدنا أنفسنا منقسمين تجاهه على نحو يئس، وهكذا فقد قام بعض الشباب بقتل أشخاص من غير المسلمين ممن يعيشون في بلاد إسلامية، وحين قيل لهم: إن هؤلاء ذميون أو مستأمنون، ولا يصح قتلهم قالوا: هؤلاء ليسوا ذميين ولا مستأمنين، إنهم عبارة عن محتلين ومستعمرين، أو هم عملاء وجواسيس يعملون ضد مصلحة البلد؛ ولهذا فإنهم يستحقون القتل، وكلنا نعرف الارتباك الذي حصل بين أتباع معاوية حين تناقل الناس قول رسول الله ﷺ لعمار ابن ياسر: « ويح ابن سمية تقتله الفئة الباغية »، وقد كان عمار في جملة من قُتل من جيش علي - رضي الله عنهم جميعًا - وقد وجد معاوية مخرجًا لذلك حين قال: نحن لم نقتله، وإنما قتله من أخرجه - يقصد عليًا - وكان الرد عليه: إذا كان ما تقوله صحيحًا، فهذا يعني أن كل من قُتل مع النبي ﷺ ومع غيره من قادة الجيوش لم يقتلهم الكفار، وإنما قتلهم من كان أميرًا عليهم!

اللغة بطبيعتها حمالة أوجه، وقابلة لكثير من الاستخدام غير النزيه، والشيء المهم هو أن ندرك أن ( التعريفات ) ستظل قابلة للتحيز والتعبير عن وجهات النظر الشخصية؛ ولهذا فإن علينا أن نتحدث عنها في بداية كل بحث وكل نقاش... وأن نسعى إلى أعلى درجة ممكنة من الوضوح والتحديد.

ب - حين يتحدث أماننا شخص في قضية ما، فإن من المهم أن نعرف مدى قدرة ذلك الشخص على الفصل بين أفكاره وعواطفه؛ حيث إن من الثابت أن الأفكار تؤثر على العواطف؛ فنحن حين نسمع ثناء عاطفياً على شخص يتحسن موقفنا الشعوري تجاهه، وحين نتعاطف مع شيء، فإن تعاطفنا يحرض العقل على إنتاج الأفكار الإيجابية نحوه - كما أشرنا سابقاً - ومن الملاحظ أن سيطرة العاطفة على النساء أكبر من سيطرتها على الرجال، كما أن العاطفة تكون أشد كلما كان المستوى المعرفي للإنسان منخفضاً، والعكس صحيح؛ إن الإنسان حين يتحدث عن خطأ فادح وقع فيه أحد أبنائه يتحدث بلهجة مختلفة عن اللهجة التي يتكلم بها فيما لو كان المخطئ شخصاً غريباً أو معادياً، وهذا من جملة الضعف المستولي على البشر.

ج - دائماً هناك تساؤل مشروع حول جوهر الكلام الذي يستخدمه الكاتب أو المتحدث أو المحاور...

هل ما يقوله عبارة عن حقائق ثابتة متفق عليها؟ وهل تلك الحقائق منقولة عن أشخاص آخرين، أو أنه شاهدها أو سمعها بنفسه؟ أو أن ما يقوله عبارة عن رأي وتحليل شخصي؟

كثير من الناس لا يدركون الفروقات بين ما ذكرناه، ولهذا فإنهم يتحدثون بطريقة مبهمه وغامضة، حين يرى الإنسان وقوع حدث ما بنفسه، فإن إمكانية تصديقه تكون أكبر، لكن حين يقول: أنا لم أشاهده، لكن حدثني من شاهده، فإن القضية تصبح مختلفة؛ فقد يكون الذي شاهد غير قادر على تفسير ما شاهده على نحو صحيح، وقد يكون غير صادق فيما يقوله، وكلما طالت سلسلة الإسناد صارت إمكانات الوهم والخطأ والتخليط أكبر، ومن هنا برزت قيمة الأسانيد العالية لدى علماء الحديث. أما حين يكون ما يطرحه الكاتب أو المتحدث عبارة عن رأي شخصي، فإن التأكد من صحته يصبح غير ممكن؛ فالذي نتأكد من صحته هو الحقائق المشاهدة من قبل شخص

والمنقولة عن أشخاص آخرين، أما التحليل الشخصي فإنه يحتاج إلى محاكمة عقلية منطقية؛ لأنه قد يكون مبنياً على أسس صحيحة، وقد يكون مبنياً على أسس غير صحيحة، وقد وضع علماءنا قاعدة جميلة تشير إلى ما ذكرناه حين قالوا: « إن كنت ناقلًا فالصحة، وإن كنت مدعيًا فالدليل ».

د - من المهم ونحن نسعى إلى الوضوح أن نبحث عن العلاقة التي تربط راوي الحديث أو صاحب الرأي بما يرويهِ ويطرحة، وأنا دائماً أقول: إن تجرد الناس من أهوائهم وغضب طرفهم عن مصالحهم ليس بالأمر اليسير، إننا لو نظرنا إلى ما تنشره الصحف اليومية تجاه الأحداث المختلفة، فإننا سوف نصاب بالفرع؛ لأن تفسير الصحف الموالية للحكومات للأحداث متباين إلى حد بعيد لتفسير صحف المعارضة، ومن المؤسف أن ما يقال اليوم سوف يصبح جزءاً من تاريخ هذه الأمة، وسوف يأتي من يتخذ منه مادة يوظفها في فهم أوضاعنا وأحوالنا، مع أننا نعرف أن موضوعية معظم الصحف ليست مرضية بالقدر الكافي؛ ومن هنا فإن نقد أي شيء مسموع أو مكتوب ينبغي أن يهتم بفهم مصلحة صاحب الكلام في الطرح الذي يطرحة، وإلا فإننا لن نفهم الأمور على الوجه الصحيح.

عقبات أمام الممارسة النقدية:

لا تحدث الأشياء المهمة والمطلوبة في حياة الناس بيسر وسهولة؛ فالوعي النقدي مع أنه هو الذي يوقظ حس المجتمع على مشكلاته وقضاياها وأشكال قصوره... إلا أن ممارسة النقد ليست بالأمر السهل.

النقد نقدان: ذاتي وغيري؛ النقد الذاتي يشمل نقد الذات - بما هي شأن شخصي، ويشمل نقد الذات بما هي جزء من أمة وجزء من ثقافة وتاريخ وحضارة؛ أما النقد الغيري فهو موجّه إلى ( الآخر ) القريب، والذي قد يكون أختاً أو ابناً أو صديقاً أو واحداً ممن ينتمي إلى ثقافة الناقد، كما أنه قد يكون بعيداً ينتمي إلى حضارة مغايرة أو منافسة... ولا أود هنا أن أخوض في تفاصيل هذا الموضوع، لكن لعلني أتحدث عن أهم ثلاث عقبات تواجه الممارسة النقدية:

١ - المحيط الثقافي الذي يغلف عقولنا ومشاعرنا، ويمدها بالأفكار والرموز

والمفاهيم... يشكل أكبر عائق أمام نضج الوعي وممارسة النقد. الناس يميلون دائماً إلى التفكير في إطار الثقافة التي تشبعوا بها منذ الصغر، وهم يجدون أنفسهم - من غير وعي منهم - منخرطين في دفاع مستميت عن صواب تلك الثقافة وجمالها؛ بل تفرداها بين الثقافات وتفوقها عليها... من هو الشخص الذي يستطيع استعراض كل مفردات ثقافة قومه ليغربلها، ويميز بين غناها وسمينها؟ ومن أين يأتي بالأسس والأدوات التي يحتاجها في كل ذلك؟ هذه هي المشكلة. في بعض البلدان الإسلامية أفكار خاطئة بل مميتة تغير نكهة العيش وأسلوب الحياة على نحو كامل، وعلى سبيل المثال فإن جزءاً من مواطني إحدى الدول العربية الواقعة على المحيط يعتقدون أن ( السمك ) طعام العبيد، ولا يليق بالأحرار وبما أنهم ليسوا عبيداً، فهم لا يأكلون السمك، ويظهرون استعداداً قوياً لمعاناة الجوع والمسغبة!. وفي بعض البلدان لا يُطلب من المرأة حسن التبعّل لزوجها فحسب؛ بل عليها إلى جانب ذلك أن تعامل أبوي الزوج وإخوته وأخواته كما تعامل الأمّة سيدها، وعليها أن تتحمل كل ما لديهم من انحراف في المزاج وكل ما يعانونه من عُقد نفسية، وهذا جزء من واجباتها اليومية مع أننا نعيش في القرن الحادي والعشرين!

في بعض البلدان الإسلامية يعامل الخدم في المنازل من رجال ونساء معاملة لا تراعى فيها حقوق الإنسان؛ بل يعاملون معاملة أدنى من المعاملة التي يحظى بها الحيوان في بلدان أخرى؛ فليس هناك ساعات محددة للعمل ولا للراحة، وليس هناك أي تقدير للمشاعر، مع أن أولئك الخدم مسلمون موحدون. والمجتمع يغض الطرف عن كل ذلك، ويتعامل معه على أنه شيء عادي، وقد لا يخلو من مصلحة!

أمثلة كثيرة تفوق الحصر تدل على أن الوعي النقدي مهما كان عظيماً ويقظاً إلا أنه في النهاية محدود بحدود البيئة والمجتمع والثقافة؛ ومن هنا فإن المفكر يكون مفكراً حقيقياً بمقدار تحرره من وطأة الثقافة الشعبية التي يتغذى عليها، ويكون مفكراً على مقدار مده نظره إلى خارج الصندوق الذي ولد فيه، وعلى مقدار تحكيمه الأصول الشرعية والمبادئ الأخلاقية وتحكيم المنطق السليم في المفاهيم والتقاليد السائدة.

٢ - الخوف عقبة أساسية أمام ممارسة النقد؛ وذلك لأن كثيراً من الناس - كما أشرنا سابقاً - يُعدون أنفسهم حراساً على الثقافة السائدة ومدافعين عنها، وهم في

حمأة الحماسة؛ لذلك لا يميزون بين الجيد من مفردات تلك الثقافة وبين رديئها؛ ومن ثم فإنهم يُظهرون نوعًا من الهلع تجاه من يوجه سهام النقد إلى ما يعدون أنفسهم مسؤولين عن حمايته، وأذكر أنني كنت أتناور مع بعض الزملاء والأصدقاء حول بعض الانكسارات في تاريخنا الإسلامي، وإذا بي أفاجأ أن هناك مثقفين يفتقرون إلى الحد الأدنى من الموضوعية، فهم إذا وجدوا نصًا يشير إلى موقف مجيد أو نصر مؤزر أو براعة لقائد من القادة أو نجاح لتجربة... قبلوه دون أي تردد أو مناقشة، وإذا ذكر أمامهم نص يفيد ما هو مغاير لهذا، قالوا: وما أدراك أن هذا النص صحيح؟! وأذكر أنني قلت وقتها: إذا كان تاريخنا عبارة عن أمجاد وانتصارات، فإن علينا أن نجيب عن الأسئلة حول أسباب تراجع أمة الإسلام من مقدمة الأمم، لتبحث عن مكان في المؤخرة!. نحن مع الحمية للثقافة والتاريخ، لكن الحمية من غير نقد ومن غير مراجعة قد تفضي بالثقافة وأهلها إلى مزيد من الانحطاط!

هناك خوف من قبل الأشخاص المؤهلين لممارسة النقد؛ فالمنافحون عن استمرار ما هو سائد أشكال وأنواع، فمنهم أخيار طيبون، ونواياهم حسنة. لكنهم مبتلون بشيء من عدم الاطلاع وشيء من ضيق الأفق، وهؤلاء يهاجمون على نحو شرس كل من يوجه سهام النقد إلى أي شيء سائد الآن، أو كان سائدًا في يوم من الأيام، وأقل ما يمارسونه هو عزل الناقد والتحذير منه واتهامه بشتى أنواع التهم، وقد منحت شبكة ( الإنترنت ) هؤلاء أدوات إضافية لذلك؛ وإلى جانب هؤلاء هناك أشخاص مستفيدون من كل أزمات الواقع ومشكلاته، إنهم ما بين ظالم ومستبد ومتاجر بعقول الناس وأرزاقهم. إن هذه الفئات من الناس تتضايق من النقد كما تتضايق بعض المخلوقات من الروائح الطيبة؛ ولهذا فإنهم يحاولون إبقاء كل شيء على حاله، ويمارسون في سبيل ذلك نوعًا من الإرهاب والتخويف لكل من يحاول فتح وعي الناس على الظلم الذي يتعرضون إليه. المؤسف حقًا أن هذه الفئات التي تنحط أحيانًا إلى درجة ( عصابات المافيا ) موجودة في شتى أنحاء العالم، وإمكاناتهم في الضغط كبيرة جدًا، وتجاهلهم صعب ومكلف؛ ولهذا فإن على المجتمع كله أن يسعى إلى أن يكون لديه قضاء نزيه وسريع في حسم القضايا، وأن تكون لديه صحافة تتمتع بالصدق والحرية والمسؤولية، حتى يشعر الناس بالأمن والطمأنينة.

٣ - هذا العائق يتعلق بالقصور الذاتي للمفكر / الناقد؛ حيث إن المرء قد يدرك تمامًا ما الذي عليه أن يقوله، لكن يمنعه من ذلك ليس الخوف من العزلة أو الأذى، ولكن الخوف على المكاسب التي حصل عليها أو الخوف من عدم تحقيق الطموحات المادية التي يتطلع إليها.

إن هناك حقيقة ساطعة، هي أنه حين تشتد رغباتنا، وتتسع دائرة مصالحنا يخفت صوت عقولنا، فيتحول الصوت الجمهوري إلى همس خفي لا يكاد يسمعه أحد غير صاحبه، لا أحد يطالب المفكر بالتخلي عن همومه الشخصية والمعيشية من أجل هموم الأمة، لكن الجميع يطالبونه بأن لا يزيد في طموحاته إلى درجة يصبح تحقيقها رهناً بتخليه عن مبادئه ورسالته ودوره المرتقب. نحن لا نستطيع أن نحصل على كل شيء، ولا بد من التضحية ببعض الأشياء حتى نحصل على بعضها الآخر، والمهم في كل الأحوال أن يسعى المفكر لأن يكون في وضعية لا تحمله على قول الباطل إن لم يستطع قول الحق.

\* \* \*



## كيف نفهم الواقع؟

أشرت فيما مضى إلى أن امتلاك العالم والمتخصص لرؤية نقدية للواقع والمجتمع هو الذي يرتقي به إلى درجة ( مفكر ) ومن الواضح أن القدرة على نقد الواقع تعني توفر درجة حسنة من فهمه والوعي به لدى الذي يقوم بالنقد، وإنما كان فهم الواقع على هذه الدرجة من الأهمية والخطورة؛ لأن المفكر والعالم والداعية والمصلح والباحث جميعاً يستهدفون في نهاية المطاف شيئاً واحداً، هو تطوير الواقع وإصلاحه والارتقاء به وتجاوز عقباته وحل مشكلاته، وعلى مقدار تمكننا من تشخيص الواقع وتحديد ملامحه يكون نجاحنا في كل ذلك. ومن الملاحظ أن كثيراً من المصلحين والدعاة باتوا يركّزون على نحو واسع على مسألة ( فقه الواقع ) وهذا منهم مؤشر إلى النضج والوعي بمتطلبات المرحلة.

### بداية الفهم:

أخبرنا الله - تعالى - بأننا نولد ونحن جاهلون بكل شيء حيث قال - سبحانه - : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، لكنه - سبحانه - زودنا بالأدوات التي في إمكانها التقاط الكثير من صور الواقع ومعطياته والكثير من المعارف والخبرات والتجارب التي تراكمت لدى البشرية، وتلك الأدوات هي الحواس الخمس: السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وقد كانت العرب تسميها ( المدارك الخمس )؛ لأننا بواسطتها ندرك الوجود، وكل ما يحيط بنا. إن الأذن ليست هي التي تسمع، كما أن العين ليست هي التي تبصر، وإنما الذي يقوم بهذا وذاك هو الدماغ، والحواس الخمس عبارة عن وسائل أو قنوات لتمرير الإشارات والمعطيات والصور إلى الدماغ، ومن الواضح أن قدرة هذه الحواس على التقاط الواقع وتمريره محدودة، وهي جميعاً تعمل في ظل شروط محددة، كما أن هناك أشياء كثيرة لا تقع في مجال عمل أي حاسة من الحواس الخمس، لكننا

نؤمن بوجودها ولنلمس آثارها بل إننا نستخدمها ونستفيد منها، أضف إلى كل هذا أننا لا نرى سوى جزء صغير جدًا من الأحداث الجارية، ولا ندرك سوى جزء محدود من الأوضاع السائدة، فإذا كنت تسكن في مدينة كبرى - مثلاً - فإنك لا ترى ولا تسمع إلا القليل جدًا من الأحداث والوقائع والتطورات الجارية فيها مهما بذلت من جهد، ومهما امتلكت من وسائل.

ما الذي يعنيه هذا؟

إن هذا يعني شيئًا مهمًا، هو أننا سنحاول فهم بعض ما يجري في الواقع وبعض ما هو سائد فيه، وسنحاول فهم نماذج عنه، أما الإحاطة به، فهي فوق طاقة أي بشر. وهذا يقودنا إلى شيء آخر، هو أن كثيرين منا يطلعون على أشياء لا يطلع عليها غيرهم، ويجهلون أشياء كثيرة يعرفها غيرهم، مما يعني أننا لن نحصل أبدًا على رؤية واحدة وموحدة للواقع، وهذا من جملة القصور البشري.

### الخريطة الإدراكية:

حين تستقبل حواسنا البيانات والمعلومات والمشاهدات والمسموعات عن ظاهرة من الظواهر أو حدث من الأحداث... فإنها تنقل ذلك إلى الدماغ، وهنا يقوم الدماغ في النظر فيها من خلال ما لديه من مبادئ ومفاهيم وانطباعات سابقة، ويحاول بالتالي إصدار حكم عليها أو تحديد موقف منها أو تنظيم رد فعل معين تجاهها، ومن الواضح أن الإنسان مع الأيام تصبح لديه قنوات ومسلّمات وأفكار راسخة حول عدد كبير من القضايا المترابطة، ومن هذه المسلّمات... يتشكل لدى الإنسان ما يمكن تسميته ( الخريطة الإدراكية )؛ الخريطة الإدراكية يتخذ منها صاحبها مرجعًا وإطارًا لفهم ما يراه ويسمعه، ويشعر به ومرجعًا وإطارًا لتفسير الأحداث الجارية... بل يمكن القول إن الخريطة الإدراكية التي يمتلكها الواحد منا هي نموذج الشخص الذي يجعله يركّز على بعض التفاصيل التي يطلع عليها، ويهمل تفاصيل أخرى لأنها تافهة أو غير مهمة، ولا شك في أن الجهات الأساسية التي تسهم في رسم الخريطة الإدراكية لدى الشعوب والأفراد، ثلاثة: الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام. ولنضرب بعض الأمثلة الشارحة لمسألة الخريطة الإدراكية:

أ - يذكرون أن ( ماري أنطوانيت ) ملكة فرنسا قبل الثورة كانت تحيا حياة مترفة ومرفهة ومعزولة تمامًا عن العالم الخارجي، وقد حدث أن وجد بعض الحراس فلاحًا مغمى عليه من شدة الجوع، فأتوا به إليها، فأشفقت عليه، وقالت: لا يصح لك أن تتبع هذا ( الريجيم ) القاسي!. وفي رواية أخرى أن بعض حاشيتها أخبروها أن بعض الفلاحين مضى عليهم أسبوع دون أن يتناولوا شيئًا من الخبز، فقالت: لماذا لا يأكلون ( الجاتو )؟!

إن الجوع والفقر ليسا موجودين في خريطتها الإدراكية؛ ولهذا فإنها استبعدتهما في تفسير ظاهرة إغماء الفلاح وفي ظاهرة عدم عثور الفلاحين على الخبز.

ب - لدى كثير من الجماعات الصوفية ارتباط قوي بين المريد وشيخه؛ فهو يحدثه عن كل شيء، ويسمع منه عن كل شيء، وإن الخريطة الإدراكية لدى كثير من المريدين تقوم على اعتقاد قوي بمعرفة الشيخ وحكمته وصلاحه وحسن تديره لأمر طلابه ومريديه... وهذه المسلّمات جعلت المريد يلتمس كل الأدلة والبراهين التي تؤيد صواب ما يسمعه من شيخه، كما جعلته يُعرض إعراضًا شبه تام عن كل نقد يوجّه إلى الشيخ؛ لأن وقوع الشيخ في الخطأ، وقيامه بشيء غير لائق أو مجافٍ للحكمة ليس داخلًا في خريطته الإدراكية، وقد عبروا عن هذا المعنى بعدد من المقولات، منها: من قال لشيخه: ( لِمَ ) لم يفلح أبدًا. ومرادهم: أن من سأل شيخه - في الطريق والسلوك - عن سبب تصرف من تصرفاته على وجه الاعتراض لم يستفد منه، ولم يرتق في مراتب السالكين! ومنها قولهم: على المريد أن يكون بين يدي الشيخ كالميت بين يديّ المغسّل. أي أن يستسلم لتوجيهاته استسلامًا كاملاً كاستسلام فاقد الإرادة! ومنها قولهم: المريد بين شيخين كالرجل بين سيفين، وهذا كناية عن الضرر العظيم الذي يلحق المريد إذا ما تلقى التوجيهات من شيخين؛ حيث إن الأصل أن لا يكون له سوى شيخ واحد حتى لا يمزقه التشتت والتجاذب بينهما. وقد اعترض كثير من المريدين على بعض شيوخهم حين طلبوا العلم الشرعي مما أدى إلى تغيير في خرائطهم الإدراكية، وصاروا يرون الأخطاء الشنيعة التي كانت لدى بعض أولئك الشيوخ.

ج - لدى القبائل المعزولة في الصحراء خرائط إدراكية متشابهة، فقلة اختلاطها

بالأغراب وضعف اتصالها بالمدينة جعلها تنظر إلى العالم بأسره عبر عدد من المفاهيم القليلة القائمة على التعصب للقبيلة وعلى اعتقادها بحياسة كل الفضائل؛ حيث يعتقد أفراد القبيلة أن هواءهم هو أنقى الهواء وطعامهم أصح الطعام، وعاداتهم وتقاليدهم واجبة الاحترام، كما أن حياة البادية هي الحياة الطبيعية الصحيحة... وحين يأتي من يشكك في شيء من هذه الأمور فإنه قد يُنظر إليه على أنه عدو أو جاهل... لكن حين يذهب أبناء تلك القبائل إلى المدن، ويدرسون في الجامعات يرون أنماطاً جيدة وفاضلة مغايرة لما ألفوه، وحينئذ تبدأ خرائطهم الذهنية في التغير. ما هو موجود عند القبائل المعزولة موجود أيضاً عند الصهاينة وموجود لدى المذاهب والتنظيمات السرية، والذي يجمع بينها جميعاً هو العزلة والتحيز والشعور بالفردة.

د - اعتقاد المسلم الحق يسهم في رسم خريطته الإدراكية على نحو واضح؛ فإيماننا بالقضاء والقدر، وإيماننا برحمة الله وحكمته البالغة إلى جانب إيماننا بأن هذه الدنيا دار ابتلاء، وأن الابتلاء تارة يكون بالخير وتارة يكون بالشر... إن كل هذا يجعل الواحد منا ينظر إلى كثير من الأحداث نظرة مختلفة عن نظرة الآخرين ممن لا يعتقدون مثل عقيدتنا، ويكفي في هذا المقام أن نستحضر دلالات قوله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» (١).

إن المسلم حين يفقد ماله أو ولده، أو يصاب بمرض من الأمراض فيحمد الله على ما أصابه، ويشني عليه، ويتحصن بالصبر، ويبت همه إلى ربه - سبحانه - وهو حين يفعل ذلك ينتظر من مثوبة الله - تعالى - وتعويضه أفضل وأبقى مما فقد، وحين يُنعم الله - تعالى - على عبده بنعمة من نعمه التي لا تحصى فإنه يشعر بفضل الله عليه وتوفيقه له؛ ومن ثم فإنه يسعى إلى شكره وحمده واستخدام نعمه فيما يرضيه، وهذا التصور يولد لدى المسلم حالة من التوازن الشخصي في حالة النعمة وحالة النعمة، ومن هنا وجدت تلك الظاهرة العالمية، ظاهرة أن المسلم لا ينتحر...

ما الذي يعنيه كل هذا؟

إنه يعني الآتي:

١ - الخريطة الإدراكية التي يملكها كل واحد منا ينسجها عقله، لكنها فيما بعد تصبح أشبه بالسياج الذي يحول دون عمل العقل بطلاقة وحرية.

٢ - يظل العقل قادرًا على تغيير خريطته بشرط أن يفهم القصور الذي تسببه له تلك الخريطة.

٣ - تغيير الخريطة الإدراكية يكون بقيام الواحد منا بدراسات موسّعة حول آرائه وأفكاره العامة في الحياة، وإن للمقارنة نصيب الأسد في تطوير الخريطة الإدراكية؛ بل في امتلاك أعلى درجات الوعي بأنفسنا وبالعالم من حولنا.  
الواقع طبقات:

حين نريد دراسة الواقع وفهمه على نحو جيد، فإن من الضار الاستهانة بهذا الأمر؛ لأن اعتقادنا بأن فهم الواقع سهل ميسور، سوف يحول دون بذل جهد جيد في سبيل فهم ما نريد فهمه، وحين تنظر إلى مداولاتنا في واقع الأمة على الصعيد الشعبي - وأحيانًا على الصعيد الأكاديمي والنخبوي - تجد أننا نتكلم كلام الواثق العارف بدقائق الأمور، لكن نفاجأ بعد نقاش طويل أننا لم نملأ أكفنا من أي شيء، وأننا بدأنا مختلفين في رسم حدود الظاهرة موضع البحث، وانتهينا كذلك مختلفين، مما يدل على أنّ تبسيط الأمور هو الطريق إلى الإخفاق في فهمها!

لا بد من التسليم من أن محاولة اجترار الواقع وامتلاك صورة واضحة وموثوقة عنه تشبه محاولة رجل يريد حفر بئر لاستخراج الماء منه، وقد وجد ذلك الرجل أنه كلما تعمق في الحفر أكثر، جابهته طبقة صخرية أصلب وأعتى من سابقتها، والفارق بين الحالتين هو أن بحثنا في الواقع سوف يوصلنا في نهاية المطاف إلى حزمة من الأسئلة التي لا نملك أي إجابة عليها؛ حيث إن من الثابت أن في كل ظاهرة من الظواهر عنصرًا غيبّيًا استأثر الله - تعالى - بعلمه، وحجّبه عن جميع الناس، كما أن في كل ظاهرة كبرى عناصر يعرفها بعض الباحثين ويجهلها آخرون، وأنا هنا لن أشرح ما أريد توضيحه من خلال الحديث عن الوضع الأخلاقي لدولة أو مدينة أو قرية،

وإنما أود أن أطرح بعض الأسئلة حول واقع أسرة من الأسر المسلمة: أسئلة حول مدى صلاحها وترابطها في الحياة لنعرف مدى صعوبة معرفة الواقع...  
أسرة زيد مكونة من سبعة أشخاص: الأبوان وثلاث بنات وابنان، وهذه معلومة يقينية.

السؤال: هل يمكن وصف هذه الأسرة بأنها صالحة ومترابطة؟ وهل يمكن وصفها بأنها ناجحة في مهماتها المختلفة؟

الجواب: علينا أولاً أن نعرف المقصود بـ (الصلاح)، وهنا سندخل في منطقة اجتهادية، فأنا شخصياً أعتقد أن الشخص الصالح هو الذي يؤدي الفرائض والواجبات، ويتعد عن الكبائر والموبقات، وإذا قصّر في واجب، أو وقع في كبيرة، سارع إلى التوبة النصوح. هذا رأيي، وهناك من قد يخالفني فيه، لكن لو فرضنا الاتفاق على هذا، فسوف يثور في وجهنا موضوع تعريف الكبائر؛ حيث إن من أهل العلم من يقول: إنها إلى السبعين أقرب منها إلى السبع الواردة في الحديث، ومن هنا فإننا إذا عرفنا أحوال تلك الأسرة على نحو حسن، فسوف يبرز لنا الخلاف في تعريف الكبائر، وبناءً على ذلك الخلاف فقد يحكم عليها بعض الناس بالصلاح، وبعضهم سيقولون: إن صلاحها منقوص...

سؤال: إذا قلنا: إننا لا نعرف عن وضع أسرة زيد إلى الخير فيما يبدو لنا، لكن ما العمل إذا كنا نرى اثنين من أبنائها يسافرون مع أصدقائهم (العزاب) إلى بلاد موبوءة بالجرائم الجنسية ومعروفة بالتحلل الأخلاقي؟ أليس في هذا ما يشير الشكوك حول صلاحها؟ طبعاً سيكون الجواب: إن هذا مؤشر غير جيد، لكن لا يصلح للاحتجاج، فإذا جاء من يقول: إن للشاين هناك مصالح تجارية، فإن الموقف سيختلف اختلافاً كبيراً، وسنجد أن نقاش مثل هذا الموضوع يدخل في حيز سوء الظن وتتبع عورات المسلمين، لكن هذا لا يعني أن الشكوك قد انقطعت على نحو نهائي...

أما السؤال عن ترابط تلك الأسرة ونجاحها فإن الجواب عليه سيكون أصعب؛ لأن مسألة الصلاح مسألة شرعية، ولها حدود شبه واضحة، أما الترابط والنجاح فهما من الأمور الغامضة التي سنلاقي الكثير من العنت في تعريفها؛ ولهذا فإن أي جواب على هذا التساؤل سيكون ظنيّاً، وكل ما سيذكر في هذا الشأن سيكون عبارة عن شيء

نسبي يختلف باختلاف الناظرين. نستطيع أن نطرح الكثير من تلك الأسئلة حول وضع تلك الأسرة، دون أن نجد عليها أي جواب بسبب غموض التعريفات للأمور التي نسأل عنها أو بسبب عدم توفر المعلومات الكافية، وهكذا سنجد أننا كلما طرحنا سؤالاً جديداً وجدنا أنفسنا أمام طبقة أعمق من طبقات واقع تلك الأسرة، مما يجعلنا نتقلب في الظنون والأوهام.

ما الذي يعنيه هذا الكلام؟

إنه يعني الآتي:

١ - لدينا دائماً معرفة سطحية بما يجري، والإحاطة الجيدة تحتاج إلى المزيد من التعمق.

٢ - إذا كان لواقع كل ظاهرة من الظواهر طبقات، بعضها فوق بعض، فإن المهم أن ندرك أن اختراق أي طبقة من طبقاته يحتاج إلى وسائل جديدة، وأحياناً إلى منهج جديد، وهكذا يكون التعمق في فهم الواقع مشروطاً بوفرة ما لدينا من مناهج ووسائل تسعفنا في ذلك.

٣ - مهما كانت قدرتنا على فهم الواقع عظيمة، ومهما كانت مناهجنا وأدواتنا فعالة، فإن كثيراً من النتائج التي سنحصل عليها سيكون غير حاسم؛ ولهذا فإن علينا أن نكون حذرين في إطلاق الأحكام المتعلقة بها، وإلا كنا مجازفين وغير موضوعيين.

٤ - الواقع يحتمل دائماً اجتهادات مختلفة ووجهات نظر متباينة؛ فلنعذر المخالف في ذلك، وليعذرنا أيضاً من يخالفنا.

مفاهيم تساعد على مقارنة الواقع:

تدرك عقولنا الواقع، وتحلل أحداث الماضي، وتستشرف أحداث المستقبل عبر ما في حوزتها من تعريفات ومصطلحات وأفكار ومفاهيم ومعلومات، وطبيعة إدراكها لكل ذلك تنسجم إلى حد كبير مع طبيعة المفاهيم... من حيث الصحة والوثاقة والدقة... وبما أن الواقع عبارة عن بحر متلاطم الأمواج، كما أنه ذو طبيعة زئبقية، فإن من المهم أن نمتلك أكبر قدر من المفاهيم التي تساعدنا على الاقتراب منه وملاسته قدر الإمكان، ولعل من أهم هذه المفاهيم الآتي:

## ١ - الواقع ليس انعكاسًا للقيم:

يعتقد الناس في كل مجتمع من المجتمعات عددًا من المبادئ والقيم، وإن الذي يتبادر للذهن في أول الأمر أن الذي يرى أن الصدق فضيلة من أمهات الفضائل، يصر على أن يكون صادقًا، كما أن الذي يعتقد أن التبسم في وجوه الناس محبوب من محبوبات الله - تعالى - يحرص على أن يكون بسامًا دائمًا، كما أن الذي يرى حرمة شرب الخمر، يمتنع عنه على نحو قطعي وهكذا... وهذا الذي يتبادر هو الشيء المنطقي، وهو المأمول، لكنه ليس واقعياً، والسبب أن وضوح هذه القيم ورسوخها في عقول الناس ونفوسهم لا يكون دائماً على الدرجة المطلوبة، ومع أن الناس يحاولون تحقيق مصالحهم في إطار المبادئ والقيم التي يحترمونها، لكن بما أن مطامع الناس ومخاوفهم ورغباتهم كثيراً ما تكون غير محدودة بحدود، فإن معظم الناس قد تعودوا تجاوز القيم التي يؤمنون بها، أو الضغط عليها أو تأويلها وإيجاد نوع من التكيف معها...

ومسألة التأويل هذه مهمة في هذا الشأن؛ حيث إن من السهل على أي إنسان أن يقول: أنا رب أسرة كبيرة ومرتبتي قليل؛ ومن ثم فإن من حقي أن أقبل ( الرشوة ) حتى أطعم أولادي وأعلمهم... كما أن في إمكان أي إنسان أن يقول: أنا كذبت لأنني إذا صدقت فسوف تنزل بي عقوبة ظالمة، لا أستحقها، ولهذا فإن الكذب بالنسبة إليّ مشروع، أو هو ارتكاب لأخف الضررين، وقد كان بعض السلف يقولون: إنا لنعجب لطالب علم لا يقوم الليل! وذلك لأن طالب العلم هو أعرف الناس بفضل هذه العبادة، لكن الواقع يدل على أن كثيراً من العامة الطاعنين في السن يحرصون على قيام الليل أكثر من كثير من طلاب العلم. إن الظروف المعيشية الصعبة التي يمر بها الناس تجعل وعيهم يتجه إلى البحث عن وسيلة للبقاء أحياء، ولتأمين الحد الأدنى من حاجاتهم الضرورية، وهذا يجعل قيمهم تتوارى، وتبتعد عن سطح الوعي؛ ومن ثم يكثر خروجهم عليها، وهكذا فقد ذكرت بعض الدراسات أن في إحدى العواصم الإسلامية ما يزيد على مئتي ألف فتاة يكسبن رزقهن من وراء احتراف الرذيلة مع إيمانهن بحرمة الزنا ومع رفض المرأة بطبيعتها لمعاشرة الرجال على هذا النحو البهيمي، لكن الفقر الأسود يحمل الناس على ارتكاب المحظورات واستساغة ما لا يُستساغ! هذا كله يعني شيئاً واحداً هو أن لا نفسّر الواقع على أساس القيم المعلنة لدى



الذين يعيشون فيه مع أننا نسلم بتأثير القيم - ولو على نحو جزئي - في سلوك الناس، لكن لا بد مع ذلك من قراءة الواقع على نحو مباشر.

## ٢ - التغير سمة كل واقع:

الناس لا يحبون التغيير لأنه موحش ومكلف، إنهم يريدون لكل شيء أن يظل على حاله، وحين يصل المرء إلى الثلاثين يبدأ في التحديق في المرأة مراقباً صفاء بشرته وسواد شعره، يريد لكل شيء أن يظل في القمة، لكن هيهات فقد مضت سنة الله - تعالى - في العالمين أن ينتقلوا من حال إلى حال في مضمار الابتلاء الطويل، ومن هنا فإن ما نتمناه، ونظنه ثابتاً تخترقه تحولات داخلية عميقة، لكنها بطيئة ومتدرجة، حين ننظر في المرأة قد لا نجد أي فرق بين ما تعكسه من ملامح وجوهنا اليوم وبين ما عكسته من خمسة أيام، لكن سنجد فرقاً واضحاً إذا كانت المدة الفاصلة عشر سنوات. هكذا الواقع يتغير على نحو بطيء، وحين تود معرفة حجم التغير الذي حدث، فحاول مراقبة التغيرات عبر عشرين سنة: كيف كان حال التعليم في البلد - مثلاً - قبل عشرين سنة، وكيف أصبح الآن؟ وستجد قطعاً تغيرات بعضها جيد وإيجابي، وبعضها سلبي ومحزن... حين تغيب عن بلدك عشرين سنة، وترغب في العودة إليه فإنك تتخيل بشوق بالغ لحظة وقوع عينك على مواقع الصبا ومعاهد الطفولة، وتتخيل بشوق أشد لحظة عناقك مع أهلك وأقربائك وأصدقائك، لكن حين يتحقق الحلم وتجلس مع الناس يوماً أو يومين، تجد أن كل شيء قد تغير، وأن ما كان يجمعك بالأصدقاء من حميمية وقيم ومفاهيم مشتركة لم يبق على حاله؛ بل أتت عليه يد الزمان، فغيّرت فيه ما شاء الله أن يتغير، وبعض الناس عادوا إلى أوطانهم بعد ثلاثين سنة من الغربة، وندموا على العودة؛ لأنهم وجدوا واقعاً اجتماعياً لا يسر، فتمنوا أنهم لم يعودوا حتى يظلوا محتفظين بالذكريات الجميلة عن تلك الأوطان! لننظر معاً إلى العربية الفصحى؛ فهذه اللغة العظيمة والجميلة مقعدة على نحو دقيق على مستوى النحو والصرف، فنحن حين ننطق بجملة فصيحة نرفع وننصب ونجر... على النحو الذي فعله الأجداد قبل ألف وخمسمائة عام، لكن هل كثرة القواعد وشمولها استطاعت حماية العربية من التغير والتحول؟ تستطيع معرفة الجواب من خلال مقارنة الأسلوب الذي تلمسه وأنت تقرأ هذا الكتاب مع أسلوب كتاب

( الرسالة ) للشافعي، أو كتاب من كتب الجاحظ أو ابن رشيق... كما تستطيع معرفة الجواب من خلال مقارنة أسلوب قصيدة لعمر أبي ريشة مع قصيدة لحسان بن ثابت أو الفرزدق... لا شك أنك ستلاحظ فروقًا كبيرة، وستجد صعوبة بالغة في فهم نثر السابقين وشعرهم حتى لو وضعت بين يديك معجمًا كبيرًا مثل ( لسان العرب ) لابن منظور. نعم الواقع يتغير لأن التقنية التي نستخدمها تتغير وتغيرنا معها وعلى مدار التاريخ كانت التقنية ذات اليد الطولى في تغيير الناس والواقع. رؤيتنا للأشياء تتغير وطموحاتنا، أيضًا تتغير، ومع تغير هذه وتلك يتغير العالم أيضًا.

ما الذي يعنيه هذا؟ إنه يعني:

- ١ - كل واقع يتغير، لكن بوتيرة مختلفة بحسب العوامل المؤثرة فيه.
- ٢ - البحث عن أمور تظل ثابتة غير منطقي ولا واقعي.
- ٣ - إذا أردنا فهم اتجاهات تغير أي واقع، فلننظر إلى طبيعة القوى المحركة له.
- ٤ - تغير الواقع قد يكون نحو التحسن وقد يكون نحو التدهور.
- ٥ - حتى لو رأينا الشكل ثابتًا فإن المضمون يتعرض للتطور.
- ٣ - من ظروفهم تعرفونهم:

أنا لا أسلم بوجود الحتمية في القضايا الإنسانية والاجتماعية؛ فالخالق ﷻ فطر الإنسان على الشعور بكرامته وعلى المقاومة للمكاره، كما أنه منعمه بنعمة الإرادة الحرة؛ ولهذا فإنه يحاول دائمًا أن يعيش وفق اختياره وقناعاته كما أن الوتيرة الروحية حين ترتفع لدى الإنسان، فإنه يجد نفسه قادرًا على التضحية بكل شيء - حتى حياته - من أجل هدف نبيل أو سلامة شخص عزيز - كما يفعل الشهيد - هذا كله صحيح وثابت وملحوس، لكن علينا أن نقول أيضًا: إن الناس يخضعون في معظم الأحيان للظروف التي يعيشون فيها والمعطيات التي تطرأ على حياتهم الشخصية، هذا ما أود توضيحه هنا. إن اهتمامنا بفهم الواقع هو في الأساس من أجل فهم واقع الناس حتى نتمكن من مساعدتهم والتعامل معهم وتوجيههم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، وهذه بعض المؤشرات في هذه القضية:

أ - للمكان الذي يسكن فيه الإنسان تأثير في نفسيته وأخلاقه وعلاقاته ومدى

تنظيمه لشؤونه، كما أنه يؤثر في طموحاته وتطلعاته... في الأحياء الراقية من المدن الكبرى تلاحظ الآتي:

- يشعر الناس أكثر بالرفاهية.
- طموحاتهم واسعة؛ لأن ما هم فيه من رخاء يُغريهم بطلب المزيد.
- يميلون إلى العزلة عن المحيط، وتمتد عزلتهم أحيانًا إلى التقصير في التواصل مع الأرحام وأداء الصلاة جماعة في المساجد.
- يتحدثون في الكماليات وفي الصفقات الكبيرة.
- لا يميلون إلى سماع أخبار الكوارث وحالات الفقر الشديد، وكل ما يعكّر المزاج.
- لا يتدخلون كثيرًا في شؤون الآخرين.
- يحبون الدقة في المواعيد ويميلون إلى اللقاءات القصيرة.
- أما في الأحياء الشعبية المزدهمة فيختلف الكثير مما ذكرناه، ومن ذلك:
- يعرف الناس الكثير عن بعضهم بعضًا، وتربط بين الكثير منهم قرابات وصلات نسب.
- كثيرًا ما يشتغل السكان هنا بالحديث عن أسعار المواد الاستهلاكية، وكثيرًا ما يتحدثون عن النقص في الخدمات الأساسية.
- يتدخل الناس في شؤون بعضهم كثيرًا، ويكثر بينهم التحاسد.
- يفتح الناس على بعضهم في الأحياء الشعبية أكثر، كما أن تعاونهم وتلاحمهم في السراء والضراء أشد.
- يكون للعرف قوة ضاغطة وموجّهة للسلوك، ويخشى الناس كثيرًا على سمعتهم من أن تلحقها أي شائبة.
- المستوى المعرفي والثقافي يكون في العادة أقل، ونسبة البطالة تكون أعلى.
- المشاعر الدينية أقوى ولا سيما تلك المتعلقة بأحوال المسلمين وقضاياهم الكبرى.
- كثيرًا ما تكون الطموحات محدودة بسبب صعوبة الظروف المعيشية وبسبب قلة النماذج الناجحة.

- يستمدون كثيرًا من سعادتهم من بساطة عيشهم وانفتاحهم على بعضهم، ويميلون إلى أن تكون أفراحهم جماعية، ويبحثون عن أسباب للاجتماع المتكرر والمتواصل.

ب - للغنى والفقر تأثير كبير في حياة الناس، ومع أن الله - سبحانه - ابتلانا بالرخاء والشدة والعطاء والمنع، إلا أن كل واحد منهما يترك تأثيرًا مختلفًا عن تأثير الآخر في حياة البشر، وهذه بعض الإشارات السريعة في هذا:

- من المهم أن نفرّق في نظرنا للفقير والغنى بين الثراء الفاحش وبين الغنى المعتدل، كما أن علينا أن نفرّق بين الفقر المدقع وبين الفقر الخفيف الذي يكون الفقير معه قادرًا على اقتناء بعض الكماليات وعاجزًا عن اقتناء بعضها الآخر، وفي هذا الإطار يمكن أن نقول: إن المجتمع حين يشتمل على كتلة صغيرة من الأثرياء الكبار وكتلة كبيرة من الفقراء المدقعين يكون مجتمعًا مريضًا، والمجتمع الجيد هو الذي تشكل الكتلة الكبرى فيه تلك الفئة التي تجد كل حاجاتها الضرورية من مطعم وملبس ومسكن وتعليم وعلاج؛ بالإضافة إلى شعورها بالقدرة على الحصول على بعض الكماليات والمرفّهات، وهذه الكتلة هي الطبقة الوسطى، وتذكر (اليابان) بوصفها نموذجًا للدولة التي تقل فيها الفروق في الدخل بين كبار الموظفين وصغارهم، وهذا ما على مجتمعاتنا السعي إليه. إذن نحن سنتحدث هنا عن تأثير الثراء الفاحش والفقر المدقع بوصفهما مصدرًا لتشكيل بيئة متكاملة للأثرياء والفقراء، وهذه مقاربة سريعة في هذا الشأن:

- لا بد أن نفرّق بين الآباء الذين صنعوا الثروة وبين الأبناء والأحفاد الذين يستمتعون بها، الذين صنعوا الثروة يتمتعون بروح عصامية، ويكونون أكثر توازنًا في الإنفاق، وقد يميلون إلى الإمساك، أما الذين يستمتعون بالثروة فلهم شأن آخر؛ حيث إن الثروة تصبح مصدر إفساد لكثير منهم، ولهم في بعض الأحيان أخلاق المتواكلين عديمي الأهداف.

- إذا نظرنا في تفاصيل الحياة الأسرية للأثرياء جدًّا، فإننا نجد أنهم لا يعرفون الكثير عن أطفالهم؛ حيث إن الكبار مشغولون في تجميع الأموال تارة والاستمتاع بها تارة أخرى، وكثير من شؤون الصغار موكول للخدم والسائقين والمساعدات... ولهذا فإن الترابط الأسري بينهم أقل، وإن كانت هناك درجة عالية من احترام الصغار للكبار، ودرجة عالية من تدليل الكبار للصغار، وحين تحدث مشكلة كبرى لأحد

الأبناء يدركون أنهم قد فرطوا وغفلوا عن أسرهم أكثر مما هو مألوف. أما في الأسر الفقيرة جدًا، فإن الترابط الداخلي يكون على أشده، وبسبب الحيرة في تدبير الشأن اليومي وبسبب البطالة الجزئية أو الكلية الضاربة أطنابها لدى الأسرة، فإن الكبار يعرفون كل شيء عن الصغار، ويتدخلون في كل تفاصيل حياتهم، كما أن رقابتهم عليهم تكون صارمة، مما يجعل الفرصة أمام نمو الوازع الداخلي لدى الأطفال ضعيفة.

- الحساسية نحو الإهانة واستخفاف الآخرين لدى الأثرياء تكون أعظم، وهذا الشيء طبيعي؛ لأن الثروة تصونهم عن الحاجة إلى الناس، وتدفع الآخرين إلى أن يكونوا في خدمتهم، كما أن طبيعة الأعمال التي يمارسونها تمنحهم التميز في المجتمع والكثير من النفوذ، أما الفقير فقرًا مدقعًا، فإنه يشعر بأنه في أمس الحاجة إلى مساعدة الآخرين وإحسانهم، كما أنه قد يجد نفسه وقد افترش الرصيف، أو سكن في خيمة في أحد مخيمات اللاجئين، كما أنه كثيرًا ما يجد نفسه في عمل طفيلي أو عمل بسيط يخدم من خلاله الموظفين وغيرهم على نحو مباشر، وهذه الأوضاع كلها تجعله في وضع مهين، وتجعل إحساسه بالكرامة التي يشعر بها الأثرياء أقل، ولك حتى تعرف صواب ما أقول أن تتأمل في التاريخ والواقع؛ إذ إن الإنسان لا يشعر بالكرامة، ولا يصون نفسه من إهانة الآخرين له بمجرد تقديره لذلك أو بمجرد حشائه على أن يكون كذلك؛ فالروح مهما كانت عظيمة ومتوثبة تظل محدودة بحدود الجسد، والمشاعر لا تعيش في فراغ؛ بل لا بد لها من معطيات تغذيها، وتمدها بأسباب البقاء، ومن هنا نجد أنه - عليه الصلاة والسلام - سأل الله - تعالى - التقى والغنى، واستعاذ به من الكفر والفقر وعذاب القبر. إن الفقر ظل ينهش في كرامة كثير من المسلمين في كثير من بقاع الأرض قرونًا متطاولة، مما رسّخ لديهم فكرة الاستسلام للظروف الصعبة والرضوخ للظالمين من كل الأشكال والألوان!

- لدى الأثرياء وعي صحي أفضل، وهم يجدون العلاج الممتاز، كما أن هناك مؤشرات تدل على أن اهتمامهم بالطعام الصحي أكبر، وأحيانًا يأكلون أقل، ومن هنا نجد أن الناس في البلدان الغنية والمتقدمة يعيشون أكثر، وهذا من الأخذ بأسباب الصحة. أما الفقراء فوعيهم الصحي أقل، وكثير منهم يدخنون بشراهة، كما أنهم في

أحيان كثيرة لا يجدون ثمن الدواء، كما لا يجدون الطبيب الجيد، ولهذا تفشو فيهم الأمراض، ويعيشون أقل<sup>(١)</sup>.

- الشراء يعطي الشعور بالقوة والنفوذ، وهذا هو الذي يجعل كثيرًا من الناس - على ما يبدو - يسعون من غير ملل ولا كلل إلى تكديس أموال لا يعرفون كيف ينفقونها، ويوقنون أنهم لا يحتاجون إلى كثير منها، والغريب العجيب أنه من أجل هذا الشعور يُبدي عدد كبير من أثرياء المسلمين الاستعداد للخروج عن الطرق المشروعة في جمع الثروة، ويدخلون في منطقة المحذور غير آبهين بالعواقب الوخيمة لذلك!

الثروة توسّع الخيارات أمام أصحابها في كل مجالات الحياة، وامتلاك الخيارات الكثيرة يجعل الإنسان يشعر بأنه حر؛ لأن الحرية في جوهرها ليست شيئًا غير القدرة على الاختيار؛ ولهذا فإن الثري يستطيع أن يُدع ويستثمر، وينتقل من مشروع إلى مشروع، كما أن كثرة الخيارات هي اختبار جدّي للواحد منا؛ حيث يكون عليه الابتعاد عن الخيارات السيئة والمنحرفة، كما يكون عليه محاولة اختيار أفضل الخيارات، وقد رسب كثير من الناس في اختبار السراء وفتنة الرخاء. أما الفقير فإنه يجد نفسه دائمًا في عالم الضرورة؛ فقلة المال في عصر يُعدّ المال محوره الأساسي، جعلت الفقراء يشعرون بالعجز عن تأمين حاجاتهم الضرورية، وإن من المحزن أن نقول: إن لدينا مئات الملايين من المسلمين الذين يكافحون من أجل الحصول على دولار واحد في اليوم! العجز عن تأمين الأساسيات جعل معظم الفقراء يشعرون بالحرمان والدونية وهبأهم لاستغلال الأثرياء والأقوياء أسوأ استغلال؛ والعاقبة الأشد ضراوة للفقير الشديد تكمن في شعور الفقير بأنه محاصر، وأنه لا يجد الفرصة للقيام بأي عمل عظيم؛ ولهذا فإنك حين تحدّث أحدهم عن النجاح الباهر والتفوق العظيم والسعي لنيل أعلى الشهادات... فإنه يضحك في سره مما تقول، ويتهمك بجهل الوضعية المساوية التي يعيش فيها!

إذا كانت الثروة الطائلة تملّك صاحبها أسباب القوة والمكنة، وتمنحه الشعور بالتفوق والنفوذ، فإنها في الوقت نفسه تهدده بالبغي والطغيان والعدوان، وهذا واضح

(١) هذا الكلام لا يتعلق بالأفراد وإنما بالشعوب والبلدان؛ فقد يكتب الله - تعالى - طول العمر لفقير مدقع؛ فيعيش مئة سنة، وقد يموت أثرى الأثرياء في الخمسين من عمره.

جداً في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۚ ﴾ [العلق: ٦، ٧]، وقوله: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٧]، والحقيقة أنه بمجرد أن تخف الرقابة على طرق جمع الثروة، وبمجرد أن يضعف القضاء في تأمين حقوق الناس والدفاع عن المظلومين تتعاضم الثروات غير المشروعة، وتزيد سطوة البغي والعدوان على الضعفاء والمساكين، وليس لهذه القاعدة أي ظاهرة استثنائية. أما الفقير، فإن الفقر المدقع الذي يعاني منه يهدده بشيئين خطيرين: العيش على هامش الحياة من غير تأثير يذكر في مساراتها، وأنى له أن يؤثر في غيره وهو يبحث عما يسد رمقه!! الثاني: قبول المهانة والذلة؛ لأن الحاجات الأساسية تلح عليه بأن يقبل بأي شيء في سبيل تلبيتها؛ إذ إن بقاء المرء منوط بذلك، والواقع في كل مكان من العالم يشهد بهذا وذاك.

- الثراء العريض كثيراً ما يسبب لأصحابه نوعاً من الشعور بالسأم والملل ما لم يكن الإيمان قد ملأ العقول والقلوب، كما أن الثري يشعر بنوع من الهشاشة والضعف في مواجهة الشدائد والحن. الشعور بالسأم والملل سببه أن المال بمفرده لا يستطيع تلبية الأشواق الروحية للإنسان، فيمضي للتعويض عن ذلك خلف المزيد من متع الجسد، والتي من طبيعتها التكرار والتشابه. أما الهشاشة في وجه الحن، فسببها أن المترف يتذوق طعم الرفاهية والدعة ونعومة الحياة، كما أنه يعدّ كل ما يحصل عليه من أنواع المتع حقاً مكتسباً، ومع الأيام يتحول إلى ما يشبه الضرورة، ثم إن الثراء الكبير يوسّع طموحات المرء، ويجعله يطلب المزيد من كل شيء، وكل خسارة تثير الأسى، ومن هنا فإن في الدول الثرية والمتقدمة أكبر نسبة من المنتحرين، على حين أن نسبة الانتحار في الدول المتخلفة، حتى لو كانت غير إسلامية تُعد متدنية.

أما الفقير فإنه أصعب عوداً في مواجهة الأزمات والشدائد؛ وذلك لأنه يرضى بالقليل في الأحوال العادية، وعند حصول مشكلات كبرى يجد أنه ليس لديه الكثير مما يمكن أن يخسره، كما أن الفقير قد تعود الشدائد؛ ولهذا فإنه لا يرى فيها شيئاً جديداً.

الشيء الذي سأعيد التأكيد عليه هو أننا نتحدث هنا عن ظواهر عامة، لها استثناءات كثيرة، لكن مع كثرة الاستثناءات، فإن من المهم أن نعي ما يحدثه المال والحرمان منه في حياة معظم الناس.

#### ٤ - الامتثال للنظم والقوانين:

أرسل الله - تعالى - الرسل، وأنزل الكتب ليوضح للناس المنهج الذي ينبغي أن يسيروا عليه، والقواعد التي يجب أن يلتزموا بها في تعاملهم مع خالقهم وفيما بينهم، وجعل العدل وصون الدماء والأموال والأعراض وتكافؤ الفرص من الأمور الجوهرية التي لا يصح المساس بها، ولو نظرنا في دساتير الدول والنظم المدونة لديها، فسنجد أنها في الجملة منطقية ومعقولة، ويمكن شرحها والدفاع عنها من وجهة نظر كثير من الناس، إذن لماذا نشاهد شعوبًا تغلب على حياتها ومعاملاتها الاستقامة والنزاهة، وشعوبًا ينهش الفساد في كل جوانب حياتها؟ المشكلة لا تكمن في عدم صلاحية القوانين، ولكن في عدم تطبيقها والتحايل عليها أو تطبيقها على أناس دون أناس بشكل انتقائي. النبي ﷺ شدد على مسألة شمولية التطبيق للأحكام والعقوبات في كثير من المواقف، ومن أوضحها ما روي في الصحيح من أن قريشًا أهمهم شأن المرأة الخزومية التي سرقت، فكلّموا أسامة بن زيد رضي الله عنه ليشفع عند رسول الله ﷺ فكلّمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله؟» ثم قام فخطب، فقال: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» <sup>(١)</sup>.

الآن كيف يمكن أن يؤثر تطبيق النظم والقوانين، وكيف يمكن أن تؤثر عدالة القضاء في أخلاق الناس وأوضاعهم وعلاقاتهم..؟ وكيف يمكن أن يؤثر الفساد الإداري والمالي والظلم والجور في كل ذلك..؟

أ - حين تُطبق النظم والقوانين بعدل وشمولية وأمانة، فإن الناس يمتلكون جرأة عالية في قول الحق، إنهم يعرفون أنهم لن يؤذوا بسبب نصحتهم لهذا أو ذاك من العباد، كما يعرفون أنهم لن يُهمّشوا، ولن تضيع مصالحهم إذا نقدوا الأوضاع السيئة؛ ولهذا فإنهم يعلنون عن آرائهم دون خوف أو وجل، وهذه سنة مطردة؛ حيث إن من الواضح أن الخوف من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو ناتج من نواتج الظلم والفساد؛ وذلك لأن الفاسدين يملكون النفوذ والقدرة على إسكات خصومهم من

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.



الأشراف وأهل الاستقامة. الناس في حالة الخوف لا يسكتون، لكنهم يتحدثون بكل شيء في السر وفي المجالس الخاصة والمحدودة، أما في العلن فيكون نقدهم غامضاً وملفوفاً، ومشوباً بكثير من الاعتذار ومسبوقاً بكثير من المقتبلات والمسوغات، وإذا أردت أن تعرف ظروف الناس في بلد في الشأن الذي نشير إليه، فيكفي أن تطالع صفحة واحدة في جريدة لتفهم كل شيء.

ب - في حالات الاستقامة الإدارية يتحسن وضع الاقتصاد، وتنشط حركة الاستثمار؛ وذلك لأن من طبع الناس أنهم لا يُدخلون ما لديهم من مال في الدورة الاقتصادية إلا إذا كانوا مطمئنين على سلامته من النهب والاستيلاء من قبل الآخرين، وهذا واضح في كل الدول التي نجحت في النهوض باقتصادها على نحو قوي، كما أنه واضح لدى الدول التي نجحت في استدراج استثمارات أجنبية ضخمة، كما هو الشأن في ماليزيا والصين وتايلند وسنغافورة وغيرها... أما حين ينتشر الفساد المالي والإداري، وتصبح القوانين والنظم عبارة عن هياكل مجوّفة، فإن الناس يعزفون عن الاستثمار في المشروعات الضخمة، وأحياناً يهاجر رأس المال الوطني، ليعمل في دول أخرى.

ج - حين يشعر الناس بأن حقوقهم مصونة، وأن قضاءهم عادل ونزيه، ويشعرون أن الفرص أمامهم متكافئة... تترعرع فيهم مشاعر الوطنية والانتماء للبلد، وليست الوطنية في الحقيقة سوى الشعور بشرف الانتماء للوطن والمكان. أما حين ينتشر الفساد... فإن الأوطان تفقد قدرتها على جذب مشاعر المواطنين إليها، أي إن الشعب يفقد آنذاك الناظم الشعوري الموحد، وتلاحظ حينئذ بروز الطائفية والقبلية والعائلية بوصفها محاور صغيرة تستقطب كل أولئك الذين فقدوا القواسم العظمى التي تشكل الأرضية العامة لمشاعرهم ومصالحهم.

د - يشعر الناس في حال سيادة القانون بشعورين عظيمين ومهمين، هما: الشعور بالتفاؤل، والشعور بالكرامة.

الشعور بالتفاؤل، مصدره إحساس الناس بأن بلدهم يسير في الطريق الصحيح، وشعورهم بوجود فرص للعمل وآفاق للنمو والازدهار؛ وذلك بسبب قوة النشاط الاستثماري، أما الشعور بالكرامة فهو الشعور الذي يبحث عنه الناس فطرياً ودون الحاجة إلى أي تحريض من أحد، ومن أعظم الدلالات عليه ندرة المديح الكاذب

واضحلال الشاء بلا رقيب ولا حسيب. أما في حالات الفساد فإن اختلاق الفضائل والحديث عن الإنجازات الوهمية يصبح بابًا من أبواب الارتزاق لكثير من الناس. أؤكد مرة أخرى أن كل ما ذكرناه على مستوى تأثير الظروف في الناس لا يشمل كل الناس؛ حيث إن هناك دائمًا من يملك إرادة المقاومة لكل الرذائل الاجتماعية، ولكن من يقوم بذلك لا يمثلون في العادة سوى شريحة صغيرة قد لا تتجاوز في أحسن الأحوال نسبة الـ ( ٢٠ ٪ ).

وإذا أردنا أن نعرف واقع العالم الإسلامي بالنسبة إلى الاستقامة الإدارية والمالية لدى موظفي الدول، فإن في إمكاننا العودة إلى تقرير منظمة الشفافية الدولية لعام ( ٢٠٠٨ م )؛ حيث إننا نجد أن التقرير تحدث عن الأوضاع في ( ١٨٠ ) دولة، ونجد أنه ليس بين الدول العشر الأولى الأكثر نزاهة أي دولة عربية، أو إسلامية، ونجد أن أفضل دولة عربية في الشفافية تحتل المرتبة الثامنة والعشرين عالميًا، على حين أننا نجد أن أربعًا من الدول العربية والإسلامية موجودة في القائمة التي تضم ثماني دول، هي الأكثر فسادًا في العالم!! ومهما قلنا في نزاهة تلك المنظمة ودقة عملها، فإنها تظل منظمة غير حكومية، ويكفي أن ننظر إلى ما تنشره على أنه مؤشرات، وليس محددات، وليس لدينا دراسات أو مؤشرات مناقضة لها.

##### ٥ - العيش على هامش الحياة مصدر للتحلل الذاتي:

أوجدنا الخالق ﷻ على هذه الأرض، لنعمل ونأخذ ونعطي، ونؤثر ونتأثر... وجعل استقامة معاشنا وحياتنا كلها رهناً بذلك؛ ومن ثم فإن تعطيل هذه الفعاليات يُخل بتوازننا العام، ويؤثر سلبًا في كل شيء لدينا. أود أن أشرح هنا ما أقصده من العيش على هامش الحياة وعلى مستوى الأفراد وعلى مستوى الشعوب عبر النقاط الآتية:

أ - لا أعتقد أننا نختلف في أن الدول الصناعية الكبرى هي التي تشكل اليوم روح العصر وعقله، وهي التي تضع شروط الحياة العصرية، وسواء أكان ذلك صحيحًا أو غير صحيح، وسواء أكان مما يعجبنا، أو لا يعجبنا، فإن هذه هي الحقيقة الساطعة، وقد كنا أيام ازدهار الحضارة الإسلامية نشكل روح العصر لمن حولنا، وكنا نضع لهم مواصفات التقدم وشروطه.

ب - في عصرنا محاور بارزة تشكل مصدرًا عظيمًا لكثير من المعايير والأنشطة والمعطيات الفرعية، وهذه المحاور هي: المؤسسات التعليمية الجيدة، الجودة العالية في المنتجات، الاستقرار والأمن، الاقتصاد القوي، النزاهة والشفافية في الحكم، الانفتاح على ما لدى الآخرين، التواصل العالمي، الإبداع التقني، أكبر قدر ممكن من الرعاية لحقوق الإنسان، أعلى درجة ممكنة من الوعي بمتطلبات العيش الكريم والتفوق في الأعمال، أداء الأعمال بجدية ومثابرة.

ج - العيش على هامش العصر يعني في إطار ما أشرت إليه في الفقرة السابقة أمورًا عديدة محددة من أهمها:

- انحراف خلقي وسلوكي يجعل المرء صغيرًا في عين نفسه، وفي عين الجهات التي يمكن أن يعمل لديها.

- التشبع بمفاهيم متخلفة تحجب عقله عن رؤية الواقع، وينتج عنها بالتالي التخبط في التعامل معه.

- جهل مطبق أو درجة متدنية من التعلم.

- الانشغال بالماضي، وعدم النظر إلى المستقبل باهتمام.

- عدم التمكن من تحقيق إنجازات محسوسة يشعر بها المرء، ويمكن أن يتحدث عنها بوضوح.

- الخضوع للظروف الصعبة واليأس من التقدم، وجلد الذات.

هذه الأمور وأخرى قريبة منها تؤدي إلى عزلة الإنسان عن التواصل مع عناصر القوة في هذا الزمان، وتحرمه بالتالي من أن يحتل موقعًا مؤثرًا في قطاع الإنتاج والأعمال.

السؤال: كيف يؤدي عيش الإنسان على هامش العصر إلى التحلل الذاتي؟

في مقاربة أولية أقول:

إن العيش على هامش العصر بالمعنى الذي أشرت إليه يحرم الإنسان من التعرف على طاقاته وإمكاناته الكامنة؛ وذلك لأن الإمكانيات لا تظهر إلا من خلال ممارسة الأعمال الراقية والمعقدة، وهذا يجعل المرء يشعر بالدونية والضعف، كما أن ضعف التأهيل الشخصي يعرض الإنسان لأن يجد نفسه عاطلاً عن العمل في أحيان كثيرة،

وقد نبت أن البطالة تغير في نظرة الإنسان لنفسه، وفي نظرة أسرته له، وكم من شخص خيم عليه اليأس، ووجد نفسه غير جدير بسلوك طريق المعالي بسبب عجزه عن كسب رزقه؟ وكم من أسرة تفككت، وانفردت عقدها بسبب عدم قدرة الزوج على الإنفاق؟! ولعل أسوأ ما في العيش على هامش العصر، فقد الشعور بالمسؤولية نتيجة عدم القيام بأعمال كبيرة، ولا ننسى الفراغ المدمر الذي يجتاح كثيرًا من الناس بسبب عدم امتلاكهم أهدافًا جيدة وواضحة، وبسبب عدم وجود ما يكفي من المهمات لاستثمار طاقاتهم على وجه جيد... إن عدم التمكن من استنفار الذات للقيام بالأعمال الجليلة يعرضها لمخاطر الانحدار نحو المعاني البهيمية الكامنة في النفوس، كما يعرضها لفقد اللياقة واللباقة الاجتماعية، وإذا نظرت إلى (المشردين) في الدول المتقدمة فسوف تحصل على نموذج واضح جدًا للإنسان الذي خسر نفسه وخسرته بلاده وأمته.

د - بالنسبة إلى الشعوب والدول فإن العيش على هامش العصر يكون بضعف الخطط التنموية وعدم ملاءمتها للزيادة السكانية، كما يكون بتخلف الأعمال والمهن التي يعمل فيها معظم السكان، ولا ننسى إلى جانب هذا انتشار الفساد والرشوة والاستبداد والظلم وعدم نزاهة القضاء واختلال الحياة الحزبية، فإن هذه العلل تجعل الشعب وجماهيره العريضة يعيشون في زمان غير زماننا، وإذا نظرت إلى بعض الدول الأفريقية المتخلفة جدًا، فإنك ستري إلى جانب كل ما ذكرناه تخلف النظم وأدوات الاتصال والمؤسسات التعليمية والوعي الصحي بالإضافة إلى الفقر المدقع طبعًا، ومع هذه المشكلات الاجتماعية ستري التحلل الذاتي في أوضح صورته حيث انتشار الرذيلة على أوسع نطاق، وانتشار الإدمان والأمراض الجنسية الفتاكة إلى جانب الحروب الأهلية المهلكة، ويتوَّج ذلك كله تكبل الوعي بأفكار ومفاهيم بالية وقاتلة، والنتيجة لكل ذلك هي أن يصبح البلد المتخلف مجالًا رحبًا لممارسة النفوذ من قِبل الدول التي تقود الحضارة، وتضع شروط المعاصرة والتقدم.

إن المؤشرات التي ذكرناها تملينا أن نمتلك درجة عالية من اليقظة لمقاومة التهميش والعيش على حافة التيار الحضاري العام، وإن من سوء الفهم الظن بأن العزلة التامة عن العالم ممكنة أو نافعة، كما أن من سوء الفهم الظن بأن الحمول والكسل

والعطالة والبطالة يمكن أن تساعد أي أحد على النجاة من التأثيرات الضارة للحضارة الحديثة.

## ٦ - طابع الحياة الحضارية أنثوي:

لا شك في أن فهم ما يحدثه التقدم الثقافي والعمراني من آثار في الحياة الاجتماعية، من الأمور التي تساعد على فهم الواقع وقراءة اتجاهاته، والحقيقة التي نود أن نجعل منها مدخلاً لمزيد من الوعي بالأوضاع الجديدة، هي أن الناس كلما درجوا في سُلّم الحضارة علت الحياة العامة مسحةً أنثوية، وهذا يعني بالطبع أن الطابع العام للحياة البدوية وما يقترب منها من الحياة الريفية هو طابع ذكوري يميل إلى الخشونة والصلابة وشيء من الجفاء. السؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا يحدث هذا؟!

يبدو لي أن الجواب يتلخص في أمرين:

الأول: هو أن الإنسان المتحضر يكون أفضل وعيًا بمصالحه، وما يجلب له السعادة والاستقرار، ولا أحد يشك في أن الوئام بين الزوجين وفهم أحدهما للآخر على نحو جيد، يصب في مصلحة كل منهما، وكما نعرف فإن الانسجام هو أحد نواتج التكيف، والذي يعني دائماً الضغط على النفس والمراعاة وملاحظة مرغوبات ومتطلبات الطرف الآخر، وهذا يرفع من قيمة المرأة، ويتيح لها فرصة أفضل لإثبات وجودها والتأثير في محيطها...

الثاني: هو أن الناس حين يسكنون المدن، ويستخدمون الأدوات الحديثة، يشعرون بالاستقرار، ويتذوقون طعم الرفاهية، ويتحول مع الأيام العديد من المرفهات إلى أشياء ضرورية أو شبه ضرورية، وإن المرأة في نظر الرجل من الأمور التي يُترَفه بها - والرجل طبعاً مصدر رفاهية للمرأة - وقد مضت سنة الله في أن الرجال لا يستطيعون الترفه بالنساء إلا إذا رفهوهن، وإن جزءاً من ترفيههن يكمن في الإصغاء إليهن، وإجابة طلباتهن، وموافقة الكثير من أهوائهن.. وهذا كله يتيح للمرأة درجة من النفوذ لا تظفر بها المرأة في البادية وفي البيئات الشديدة التخلف.

( مظاهر الطابع الأنثوي ):

لا شك في أن مكوّنات المسحة الأنثوية مشتقة من طبيعة المرأة وذوقها ومشاعرها

وتفضيلاتها ومصالحها وحاجاتها...

ولعل من مظاهرها الآتي:

١ - مع المزيد من التحضر يتوقع الناس من بعضهم لطفًا ورقة أكبر في التعامل، إنهم يصبحون حساسين أكثر للجفاء والغلظة وعدم الاهتمام، وهذا يشتمل على العديد من الأمور، منها مخاطبتهم بلطف، وتقدير مشاعرهم وعدم مفاجأتهم بأمر يكرهونها، كما أنهم يميلون للنقد غير المباشر وإلى التلميح عوضًا عن التصريح، وهذا كله متصل بالطبيعة الأنثوية والأسلوب الأنثوي في التعامل والمخاطبة.

٢ - المرأة بطبيعتها ميالة إلى الاستهلاك، فما تنفقه النساء على الملابس وأدوات الزينة والحلي والاستعداد للحفلات والمناسبات، يساوي خمسة أو عشرة أو عشرين ضعفًا مما ينفقه الرجال على هذه الأمور، والحقيقة أن الميل إلى الاستهلاك لدى المرأة مرتبط بشيء آخر هو ( الشكلية )؛ فالنساء هنّ منبع الألوان وهنّ معلمات الاهتمام بالكمال الشكلي في كل شيء، ونحن نلاحظ اليوم أن الميل إلى الاستهلاك، وأن مراعاة الأشكال والشكليات والاهتمام بالزخرفة صار من سمات المجتمعات الحديثة، وأنا هنا لا أود أن أمتدح هذه الأمور، كما لا أريد أن أذمها؛ لأن هذه المسائل تشتمل على تفاصيل كثيرة ودقيقة، ولا يصح إطلاق الأحكام فيها جزافًا.

٣ - إن من نتائج النفوذ المتزايد للمرأة، وكل ما يتصل بها ما نشاهده، وما سنشاهده من إبراز لمعاني المساواة بين الرجال والنساء، ولعل قول الله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقوله ﷺ: « النساء شقائق الرجال » (١) - من النصوص التي يستشهد بها اليوم على نحو لم يسبق له مثيل عبر التاريخ الإسلامي.

٤ - موضوع قوامة الرجل على المرأة ومسألة قيادته للأسرة، ومدى ما يتمتع به من صلاحيات في كل ذلك، من الأمور التي سيتم بحثها بتوسع، وسيكون الميل فيها إلى ترجيح الأقوال التي تخفف من سلطة الرجال على النساء إلى أدنى حد؛ بل إن من لا يعرفون أصول الشريعة ووجه الاستدلال بالنصوص سوف يرفضون المبدأ ( مبدأ القوامة ) جملة وتفصيلاً، وكل هذا من آثار التقدم الحضاري وطابعه الأنثوي.

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد وغيره.

٥ - في ظل التقدم الحضاري والعمراني تقوم دعوات كثيرة إلى تقليل اعتماد المرأة على الرجل، وإلى توسيع دائرة استقلالها، وذلك من خلال نيلها أكبر حظ من العلم والمعرفة ومن خلال التأهل لشغل الوظائف المختلفة، وقد لقيت هذه الدعوة استجابة واسعة، وترتب على ذلك ارتفاع مستوى الشروط التي تشرطها الفتيات لمن يتقدم إليهن من الخطّاب، وكثر الرفض، وترتب عليه الارتفاع في نسب العنوسة.

٦ - اللغة اليومية وأسلوب الخطاب المتداول بين الناس صار اليوم يميل إلى اللطف والركة والجمال أكثر من أي وقت مضى، وصارت كلمات مثل ( رائع، جميل، مذهل، ممتع، ناعم، بهيج... ) تستخدم بكثرة لافتة، كما أن الكلمات التي فيها ( تاء التأنيث ) صارت أيضًا واسعة الانتشار، ولك أن تراقب استخدام كلمات مثل ( معرفة ومعلومة ) في مقابل ما كان شائعًا من ( العلم والعلوم والمعارف ) وهناك أمور أخرى من هذا القبيل... في بلدان غير إسلامية وفي بعض البلدان الإسلامية بلغ تأنيث الحياة طورًا خطيرًا، أفضى ببعض الشباب إلى تقليد النساء في كل شيء، مما ينذر بتحلل أخلاقي واسع المدى!

#### ٧ - تعايش النظم المتباينة:

إن كل حضارة من الحضارات تتكون من مجموعات من النظم والأنساق الثقافية المختلفة، وقد اعتدنا إصدار الأحكام الإجمالية، فنقول: هذه دولة متقدمة، وهذه دولة متخلفة، مما يعطي انطباعًا بأن كل ما في هذه الدولة متقدم، وكل ما لدى تلك الدولة متخلف، وإذا ألقينا نظرة على التاريخ وأخرى على الواقع وجدنا شيئًا لافتًا، هو أن الأمم وهي في قمة ازدهارها تشهد نوعًا من التعايش بين نظم متقدمة وجيدة وبين نظم متخلفة ورديئة، وهذا مع أن النظم الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية والتربوية... تتبادل فيما بينها على نحو فعال التأثير والتأثر، لكن يبدو أن كلاً منها قادر في النهاية على الاحتفاظ بالكثير من مقوماته، وهذا الفهم يدفعنا إلى التفتيش في الواقع لنرى ما فيه من جوانب مشرقة، فنزكيها، وما فيه من جوانب باهتة ومتخلفة، فنعمل على إصلاحها؛ وهذه بعض الأمثلة الشارحة لهذا:

أ - المجتمع مكوّن من أفراد، وكما أن الحضارات والمجتمعات قادرة على الاشتمال على نظم متخلفة ومتقدمة في آنٍ واحد، فإن الأشخاص قادرون على مثل ذلك؛

حيث إن هناك أعدادًا كبيرة من المسلمين - وغيرهم - يؤدون الشعائر بتمامها، لكنهم يقعون في كبائر مثل أكل الربا وشرب الخمر والزنا وأكل حقوق الناس...، ولا أريد أن أتحدث عن فلسفتهم الداخلية في هذا الشأن، لكن أريد أن أقول: إنهم يستطيعون في الغالب إيجاد درجة من المصالحة مع أنفسهم، ودرجة من إقناع الذات في جمعهم للمتناقضات.. والمشكل أن كثيرًا من الناس، لا يعرفون هذا المعنى؛ فيقرضون مبالغ كبيرة لشخص رأوه يصلي ظنًا منهم أن كل من يصلي يكون صادقًا وأمينًا، والمطلوب هو الحذر والانتباه.

ب - كانت العلوم وفنون الصناعة وال عمران لدى المسلمين مزدهرة جدًا في القرن الرابع الهجري، لكن الوضع السياسي كان يسير في اتجاه التدهور، وربما كان ذلك يعود إلى أن دور الدولة في النهوض العمراني والعلمي لم يكن جوهريًا وشاملاً كما هو الشأن اليوم، كما أن التأثير الذي تتبادله المنظومات المختلفة داخل الحضارة الواحدة ليس فوريًا؛ فهناك دائمًا فترة سمحات قد تطول، وقد تقصر، وهذا يعود إلى أن المنظومة التعليمية - مثلاً - تملك مقوماتها الذاتية، وتملك ما تدافع به عن نفسها في وجه الانحطاط الذي قد يحدث في منظومة أخرى، لكن على المدى البعيد، قد يؤدي الانهيار في المنظومة السياسية أو الأخلاقية أو الاقتصادية إلى تراجع الحضارة برمتها. وهذا ما حدث بالنسبة إلينا فعلاً؛ حيث إن تفكك الدولة العباسية وتحولها إلى دويلات غير منسجمة، بل متحاربة، هو السبب الأظهر للنفق المظلم الذي دخلت فيه الحضارة الإسلامية فيما بعد.

ج - إن الولايات المتحدة الأمريكية قد خسرت الكثير من ملامح صورتها البراقة بوصفها دولة عظمى، وهي بتورطها في ( أفغانستان والعراق ) صارت في موقف حرج للغاية إلى درجة أنها تستنجد ببعض من تصنفهم بأنهم أشرار من أجل مساعداتها على الخروج من المستنقعات التي صنعتها بنفسها لنفسها، لكن مع هذا فأنا أشعر أن الثقافة والأدبيات الأمريكية - والغربية عامة - تكسب كل يوم أرضًا جديدة بفضل عمليات العولمة التي تجتاح العالم اليوم من أدناه إلى أقصاه. وهكذا نجد أمريكا القوة والبطش تخسر، لكن أسلوب الحياة الأمريكية ينتشر، ويذيع في أماكن كثيرة من العالم.



د - في الغرب نشاهد تفككاً اجتماعياً واسع النطاق، وقد صار الأطفال الذين يعيشون في منزل ليس فيه إلا الأب أو الأم يشكلون نسبة عالية جداً من مجموع أطفالهم، كما أن الصلات بين الأقرباء والأرحام تمضي أيضاً في طريق التدهور، لكن مع هذا نجد أن القوم هناك يجمعون أموالاً ضخمة للعمل الخيري، ويكفي القول: إن أمريكا صارت تجمع سنوياً ما يزيد على مئتي مليار دولار لإنفاقها في وجوه الإحسان، كما أن أعداد المتطوعين هناك تشكل ( ٣٠٪ ) من السكان، وهذا شيء كبير بكل المقاييس، وهو يدل على الإحساس بالآخرين والتعاطف معهم، مع أن من المظنون أن تفكك الأسر هو ناتج - جزئياً - عن نمو مشاعر العزلة والأنانية والانكفاء على الذات. كل هذا يؤكد شيئاً واحداً هو أن الواقع في تركيباته المختلفة، لا يخضع للمنطق ولا للترابط أو التداعي الحتمي، ولا بد حتى نفهمه على نحو جيد من سعة الأفق والمرونة والتسامح مع المعايير والمؤشرات.

### الحكم على الواقع:

لا أبالغ إذا قلت: إننا نسعى في الأصل إلى فهم الواقع على نحو جيد حتى نتمكن بعد ذلك من محاكمته والحكم عليه، وإذا تأملنا في علاقتنا مع الواقع المعيش، فإننا نجد أننا فعلاً منخرطون فيه بوعي وبغير وعي، وهذا يعود إلى أن تنظيم ردود أفعالنا على الواقع يتطلب إصدار حكم عليه، وعلى سبيل المثال فإن الطالب حين يشرع في التحضير للامتحان في مادة من المواد، فإنه يحاول تكوين انطباع أولي عنها، ويكون الحكم على مدى صعوبتها وسهولتها، أبرز ما في ذلك الانطباع، وما هذا إلا مقدمة لحدسه بما يتطلبه النجاح في تلك المادة من جهد ووقت:

ولعل مما يساعدنا على إصدار حكم راشد على الواقع الآتي:

### ١ - الحكم على الواقع اجتهادي:

لا مطمع لنا في أن نُصدر حكماً قطعياً ودقيقاً على نحو مطلق على أي ظاهرة من الظواهر، حتى لو كانت تلك الظاهرة أميل إلى البساطة مثل واقع فلان من الناس ومدى ما هو فيه من صلاح وانحراف وغنى وفقر، أو واقع المدرسة الفلانية، وما فيها من جودة ورداءة في التعليم وحزم وتراخ في التعامل مع الطلاب... وهذا يعود إلى

لا ينظر إلى الدم، وإنما ينظر في أرقام يبعث بها مختبر الدم إليه،  
مجهزة بتجهيزات تقنية حديثة، فإن عامل الورشة لا ينظر بعينه  
حان وقت استبدالها في سيارتك، وإنما ينظر إلى المعلومات التي  
كترونية التي استخدمها في فحص السيارة، وهكذا الشأن في  
حين نجتمع في ندوة لبحث مشكلات التعليم لا نطوف على  
ن واقعها، وإنما نعود إلى الدراسات والإحصاءات والاستطلاعات  
حوله وهكذا... ما الذي يعنيه هذا؟

، هو أننا إذا كنا اليوم ندرك الواقع بواسطة معلومات وأرقام  
ن من المهم التأكد من جودة هذه الوسائط ووثاقتها، فإذا قيل  
طلاب المدارس المتوسطة في البلاد لا يستطيعون كتابة ثلاثة  
خطاً إملائي ما، فإن علينا التأكد من صحة الأسس التي قام  
فإن أحكامنا ستكون هشة جداً بسبب هشاشة المعطيات التي  
طبيب يطلب اليوم من مرضاه إجراء تحاليل طبية جديدة؛ لأنه  
أجرت التحاليل السابقة؟

تباراته:

صلاح والفساد والرشد والضلال والنجاح والإخفاق... ومن  
نسبة ما في الواقع من كل ذلك. كثير من الناس لا يدركون  
كثير الخير وقليله وكثير الشر وقليله، كما يسوّون بين ما هو  
بدون حس (النسبية). في زمانه ﷺ من زنى وسرق وكذب  
غتاب غيره.. وفي زماننا من يفعل ذلك، ومع هذا فإننا نقول:

عمل كل يوم ست ساعات من أجل مساعدة أسرته، والجراح الذي  
لطلبات العملية الجراحية الناجحة، مطالب بنسبة نجاح في عمله أعلى  
وفر له الحد الأدنى من تلك المتطلبات وهكذا...

دات على الناس متفاوت:

دات طارئة وغير عادية تحل بالأفراد والأسر والمجتمعات، وإن أي  
تأثيرًا ما في حياة الناس، لكن من المهم - ونحن نقرأ الواقع،  
ندرك أن تأثير الأحداث الكبرى في الناس ليس واحدًا، والسبب  
لل مجتمعات يتلقى الحدث من زاوية نظره إليه وعبر منظومته القيمة  
طعت الكهرباء في إحدى المدن الأمريكية الكبرى نشط كثير من  
والنهب إلى حدود غريبة جدًا، على حين أن الكهرباء تنقطع في  
حو شبه يومي، ولا يترك ذلك خللاً يذكر في الأمن، ونحن نعرف  
والنساء من يُبدي انزعاجًا شديدًا إذا تم التعرض لأحد أبويه بأي  
وهناك أيضًا من تراهم يسبون آباء أصدقائهم وأمهاتهم بأقذع  
نا في مرح وهرج ومرج! بين صالحى هذه الأمة من يقولون لأبنائهم  
ة مالية: أكثروا من الصدقة، فإن الله يُخلف عليكم ما تنفقونه  
نع عليكم، وهناك من إذا وقع أبنائهم في أزمة مالية حثوهم على  
أوز الأزمة عن أي طريق ممكن، وبغض النظر عن القيود الشرعية  
قة الكسب.

ماذا؟

لمسلمين في القرن الخامس إذا شخصوا كثيراً من الأمراض  
صفوا لها علاجات غير ناجحة...

طؤوا، لكن لا نلومهم؛ لأن ما كان متراكماً ومنظماً من المعرفة  
سمح بأكثر من ذلك، ولا ننسى أنهم كانوا أفضل، أو من أفضل  
م الإنسان في إحدى حالتين:

مد من معارف وخبرات عصره كما لو أن طبيباً نصح اليوم  
راسات كثيرة، تدل على عدم جواز وصفه للمرضى.

اجتهد الإنسان في علم أو مجال ليس من أهله، ولا يُحسنه،  
ث في أمور شرعية أو طبية أو حقوقية... وقد أدى عدم إدراك  
م بالحكم بالخطأ بكثير من الناس إلى أن لا يُدلوا برأيهم في  
ن لا يسلطوا الضوء على كثير من الأخطاء الكبرى، مع أننا  
أجيال الجديدة أن تمتلك أفضل درجة من البصيرة بالوقائع  
تاريخهم وتُحرّك واقعهم.

بم:

عدة إلى صعوبة فهم الواقع، وصعوبة إصدار أحكام واضحة  
د أن أوكد عليه الآن، هو أن الحكم سيكون صعباً وغير دقيق  
الظاهرة أو الوضعية التي نود الحكم عليها أكبر؛ وذلك لأنها  
لجوانب وكثيرة التفاصيل. الحل يكمن في تفتيت الظاهرة،  
من جوانبها الحكم الخاص بها، وعلى سبيل المثال، فإننا إذا

مدح المعلّي في هذا؛ حيث إنهم يفرّقون أحياناً بين الحكم على  
سلي الإسناد، وذلك إذا لم تطمئن نفوسهم لإصدار حكم واحد  
ن: حديث صحيح الإسناد، وكأنهم بهذا التعبير يحثون على النظر  
قد يكون فيه علة قاذحة أو شيء من الاضطراب، كما أنهم حين  
رواية فصلوا القول فيهم تفصيلاً مدهشاً، وعلى نحو عام فرقوا بين  
دالة الراوي، وضبطه وإتقانه لما يرويه، ولا بد لقبول روايته من أن  
إن من الواضح أن التعميم هو أكبر خطأ نقع فيه أثناء الحكم على  
سلي الدول والأفراد وعلى كل شيء، وإن من العدل والقيام لله -  
ن نترئّث قبل إصدار الأحكام، وأن ندرك ما في الشيء الواحد من

\*\*\*

قصة الإنسان بخالق الكون - سبحانه - والمتصلة بالاخلاق  
نحن نعرف أن الغرب تشرب نظرية ( داروين ) في النشوء  
نظرية ( أنشتاين ) في الفيزياء الرياضية والمعروفة بـ ( النسبية ) ،  
وت النظريات المعرفية في الغرب، وحدث شقاق واسع المدى  
أريد أن أدخل في ذلك المعترك، وأشوش ذهن القارئ، لكن  
لنري ( ما بعد الحداثة ) تلقفوا ما انتهى إليه ( أنشتاين ) من أن  
سواء ) وأن ما سواه نسبي ليقولوا: إن كل الأشياء وكل القيم  
، تختلف قيمتها من شخص إلى آخر ومن زمان إلى زمان  
هذا يعني التأسيس لزعة وإعادة صياغة المقومات والمسلمات  
سول إلى المزيد من المعارف اليقينية حول حقيقة الكون ومصير  
ك في قدرة البشر على الوصول إلى حقيقة معرفية يرشدون من  
وية. وعلى المستوى الأخلاقي أصبحت الخلاعة والإباحية  
ير من الناس، وحثتهم في ذلك عدم وجود معايير لما هو لائق  
ن استنكار الناس نسبي، فما يزعج فلاناً من الناس قد يدخل  
القيم الاجتماعية فهي ليست إلا أعرافاً وتقاليد تتناقلها  
أي جيل أن يتحلل منها، ويفعل ما يجده أفضل له!

سي؟

لحة إلى فهم الحشيات المتعلقة بالمطلق والنسبي؛ لأنها تساعدنا  
حيدة، وتساعدنا على تنقية تصوراتنا من كثير من الأوهام، لكن

مَلَام - قرروا الكثير من الحقائق الكبرى، منها وجود الله - تعالى -  
الصمد القادر الكريم الرحيم المنتقم الجبار... وقرروا وجود بعث  
ووجود حساب وجزاء ونعيم وعذاب، ودعوا إلى الصدق والأمانة  
كف الأذى ونفع العباد... هذه كلها أمور مطلقة في نظر المؤمنين  
وهناك مطلقات كثيرة أخرى؛ فحاصل جمع واحد مع واحد هو  
متغير لا يتسع لماء الكأس الكبير، والتغير في أجسامنا بين الشباب  
والإنسان ذا حاجات ورغبات.. كل هذا من المطلقات، وهل  
النسبية المطلقة أن يُرونا رجلاً حافظاً وهو في التسعين على القوة  
التي كان عليها وهو في الثلاثين، إنهم عاجزون لأن هذه الحقيقة من

كثيرة جداً؛ بل هي أضعاف الأمور المطلقة، ويكفي لمعرفة شيء من  
الذي جالس في قاعة محكمة تنتظر سماع الحكم في جناية قتل، ولك  
وجوه أهل القاتل وأهل المقتول: كيف تكون ملامحها عند صدور  
عن القاتل؟ إن الحكم واحد لكنه سيكون على أهل القاتل بمثابة  
على أهل المقتول برذاً وسلاماً، وسيجدون فيه بعض العزاء في  
هذا في قصيدة عظيمة سمعها عدد من النقاد الكبار؛ حيث ستجد  
من ينتقدها وهكذا... لو أردنا أن نلتمس بعض الأدلة  
على النسبية، فإننا سنجد منها الكثير الكثير، ولك أن تتأمل في قول  
إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٦٧﴾ [المعارج: ٦، ٧] حيث إن المكذبين  
عذاب يوم القيامة بعيد الوقوع، فهو أشبه بالمستحيل، وإن صح أنه

حياتنا ما هو مطلق، وما هو نسبي، كما أن في حياتنا ما هو  
 من الواضح أننا نستطيع أن نتخذ من معرفة الثوابت والمطلقات  
 النسبيات، كما نستطيع أن نستدل بالمتغيرات والنسبيات على  
 ، لكن هناك شيئاً آخر، وهو الارتباك في فهم ما هو نسبي  
 سهل على عقولنا أن لا تدخل في التفاصيل والشروح، ولهذا  
 راء الثوابت والمطلقات وعدم التوقف عند كل ما هو نسبي  
 تجعل عقولنا تجمد وتتحجر، وتتخلف عن فهم المعطيات  
 هو نسبي لا يكتمل إذا لم نتحدث عن بعض السنن والقوانين  
 - في الوجود؛ إذ إن عدم صرامة سنن الأنفس والمجتمعات  
 ومن هنا كان لا بد من العمل على تشكيل درجة حسنة من  
 تنى نؤسس لـ ( التفكير السنني ) المرن والمنفتح على المتغير  
 سي وخاص، والحقيقة أن تجليات ذلك كثيرة جداً، وسأقتصر  
 ومنه الآتي:

المطلق:

عالي - في الخلق أن القضايا والمسائل الكلية تتسم في معظم  
 ، كما أن القضايا الجزئية والفرعية تتسم بسمة ( النسبية )



السمع والذاكرة والقدره على التحمل ومقاومه الامراض والتوازن  
وهذا لا يشمل بالطبع الأشخاص الذين كانوا يعانون من أمراض  
من الشباب، ثم عُوفوا منها في سن الكهولة أو الشيخوخة؛ فنحن  
نضع الطبيعة، إذن ما أشرنا إليه هو حقيقة كلية، لكن تأثير تقدم  
السن يكون على درجة واحدة؛ فنحن نعرف أشخاصًا كثيرين في  
درجة وقوة وحيوية من أشخاص في الستين، والوضع في هذه الحالة  
الناس تجاه الأمراض؛ حيث إن من الثابت أن تناول المواد المسرطنة  
بتناولها يُبتلى بالسرطان، فالمسألة نسبية تختلف من شخص إلى آخر  
لجسم ومدى قابليته لتأثير تلك المواد، ونحن نشاهد فعلاً من يدخن  
هو في الثمانين دون أن يصاب بالسرطان، وهناك من يصاب به وهو  
لا يدخن مع شيء من التحفظ وهكذا...

فإن قلت: إن ما لا يقل عن ( ٨٠ ٪ ) من القيم مشترك بين جميع  
الأشخاص سوياً يرى في أمور مثل الكذب وعقوق الوالدين والخيانة  
وسيلة، يمكن للمرء أن يشني عليها، ويفتخر باتصافه بها، وعلى سبيل  
بين شيء فطري لدى الناس، وشيء يقضي به القلب ولا يناقشه  
بجمل. لكن إذا جئنا إلى التفاصيل، فسنجد أن بر الناس لآبائهم  
يكاد أن يكون شخصياً في أحيان كثيرة: هذا شاب قسا عليه والده  
يُكثر من ضربه عند أي هفوة، على حين أن معاملته لأخيه غير  
محة؛ فصار ينظر إلى أبيه على أنه قاسٍ وغير عادل في التعامل مع  
لا يشعر بأنه يُكنُّ لأبيه قدراً كبيراً من الاحترام، وهذا يدفعه إلى

ففاصيل، والذي يساعدنا على فهم الأوضاع والأحوال الخاصة  
ما هو خاص وتفصيلي.

ضروريات يدمر الاهتمامات الثقافية العليا:

مسرلين بالضعف والعجز، مقهورين بالعوز إلى تلبية الحاجات  
على هذه الأرض مشروط بتناولنا للطعام والشراب والدواء،  
على الملبس والمأوى، كما أن استمرار النوع الإنساني مرهون  
مع هذا كله في حاجة إلى الشعور بالأمن؛ لأن الخطر الداهم  
هنا واهتمامنا موجهًا إلى حماية أنفسنا منه. الإنسان بفطرته  
لأساسية، ويصرف ما يتناسب مع أهميتها من جهده ووقته من  
وقد امتنَّ الله ﷻ على قريش بنعمتي الشبع والأمن حين قال:  
لِفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾  
وَأَمْنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ [قريش: ١ - ٤]. وما ذلك إلا لأن  
ك وطريق الذل والانكسار... والخوف يشل قدرات الإنسان  
في أمره، ومع هذا وذاك لا يكون هناك مجال للاهتمام بمعالي  
الإنسان يومان لم يتذوق فيهما أي شيء من الطعام، ويجد  
بار، فإنه لن يجد الطاقة، ولا الشهية، لنظم قصيدة، أو التأمل  
د أي توجه لديه للتفكير في أمر إخوان له يتعرضون للعسف  
مجلس مع مجموعة من الطيبين للتفكير في تأسيس مشروع  
الزواج... وحين يكون الإنسان مجهدًا بعد يوم من العمل

سماواته، ونحن نعرف في تراجم أهل العلم من كان يكابد الجوع  
ومع هذا فقد كان له إنتاج علمي غزير، كما أننا نعرف كذلك أن  
سيم الذي يجده المستغرق في ذكر الله - تعالى - والغارق في  
القرب منه... يجعل المرء يتحمل الكثير من الصعوبات والآلام  
ودون أن تنكسر له شوكة، ونحن نعرف أيضًا أن الزاهد في الدنيا  
إيمان عميق بأهمية التقليل من متاعها، يعيش عيش الفقراء، وقد  
هك لكن حالته الروحية تكون متفجرة، كما تكون همته في توثب  
له موجود، وهو الذي يجيز لنا أن نقول: إن عدم تلبية الحاجات  
متباينة ونسبية في نفوس الناس وسلوكياتهم، لكن الحالات التي  
استثناء من السُّنة التي تحدثنا عنها، ونحن نعرف أن الاستثناء يؤكد  
الهیجان العاطفي العاصف شديد الوطأة على النفس وعلى الجملة  
لا يستمر طويلًا لدى الإنسان، وحين تخدم الشعلة في داخلنا،  
نحاجتنا الجسدية، ولهذا فإن الإسلام اهتم على نحو استثنائي  
بتمكُّننا من تلبية رغباتنا وقضاء حاجتنا على النحو الصحيح، وإن  
نرى وإدراكه لتداعياته يدفعه إلى التأكيد على أهمية النهضة وتوفير  
وتحقيق درجة من الرفاهية حتى تستقيم حياة الناس.

كون إلا على حساب الكيف:

ي نتعامل معها خصائص ذاتية، وهذه الخصائص منحها الخالق  
كي تحافظ من خلالها على وجودها واستمرارها، وهذا بالنسبة  
بالأشياء، يشكل تحدّيًا كبيرًا؛ إذ إن ما نريد الانتفاع به يُبدي

نستطيع أن نحصل على ( الكم ) بأقصى حجم نريده مع  
( بأقصى ما نرغبه من كماله، وهذه الخلاصة التي وصل  
إلي أن قدراتنا والزمن المتاح لنا ومواهبنا وأخيلتنا... كلها  
مفوضي بك إلى شيء غير محدود. إذن المطلق هنا هو عدم تمكننا  
مطلق مع الحصول على كيف مطلق في آن واحد، وعلى سبيل  
الأمثلة إذا كانت تملك ثلاث ساعات من الوقت يوميًا للجلوس مع  
ومساعدتهم في حل واجباتهم، فإنها لا تستطيع أن تجلس مع  
س أم لديها اهتمام مماثل للأولى، لكن لديها طفلان، والسبب  
الفراغ سوف تقسم على الأطفال، وسيكون نصيب الواحد  
نصيب أي واحد من الطفلين، وقريب من هذا ما نحصل عليه  
مننا لا يستطيع أن يكتب في الساعة الواحدة عشر صفحات  
دقة وأناقة ما يكتبه مثل ما إذا كتب ثلاث صفحات في تلك  
مشاهير كتبة المصحف الشريف أن كتابة المصحف تستغرق  
صيف، وذلك بسبب ما يتطلبه عمله المبارك من إتقان وتدقيق.  
من البلاد من اختارت لمنتجاتها الكيف، فهي تنتج القليل من  
تكلفة عاليتين إشارًا للكيف والنوعية، كما هو الشأن في اليابان  
دول من اختارت الكم، فأغرقت الأسواق بالبضائع منخفضة  
للصين وغيرها، وسيظل الوصول إلى أكبر ( كم ) مع أعظم  
لناس، وربما حدثت اختراقات في هذا الشأن عن طريق تصنيع

شور ينبعث منه شيء من الحكمة: إذا كنا نتحدث هنا عن امرأتين متماثلتين  
بامهما بتربية الصغار، لكن لديهما عدد مختلف من الأولاد. أيضًا  
حدث عن القراءة السريعة والقراءة الضوئية، ويزعم أن الإنسان إذا تمرن  
من القراءة، واكتسب المهارة اللازمة، فإنه يستطيع أن يقرأ في عشر  
دقيقة وواعية... ما يقرأه شخص غير مدرب في ساعة! وهذا لا يخلو  
من الفلسفة الصعبة والعميقة لا يستطيع الشخص متوسط الثقافة أن  
يسرع؛ لأن فيها تعريفات ومصطلحات ومفاهيم، هي خارج  
من جهد في تعلم القراءة السريعة.

ما النسبي في معادلة الكم والكيف؟):

مع الأمداء، صحيح أننا نتعامل مع أشياء محدودة وصماء ومعاندة،  
ن: اليوم هو أربع وعشرون ساعة بالنسبة إلى كل البشر، لكن هناك  
فضل استغلال، ويحقق إنجازات متتابعة، وهناك من يبدد أوقاته  
بكه فراغ الروح وفراغ العقل... الحديد مادة معروفة، وذات صفات  
لو غرام منها ما يقارب نصف دولار، وهو قبل أن نستفيد منه عبارة  
درة خام، وعلينا أن نحوله إلى ( كيف )، الحداد يأخذ الكيلو من  
ه منجلاً، يبيعه بأربعة دولارات، ويشتريه شخص أفضل مهارة،  
(، ويبيعه بمئتي دولار، ويشتريه شخص ثالث ماهر جداً، فيصنع منه  
ت ) فيبيعه بعشرين ألف دولار... هكذا يكون الحديد عبارة عن  
بالمهارة الفائقة يطوِّعه الناس، ويستفيدون منه بحسب مهاراتهم،  
تحديات الحديد لنا تختلف باختلاف الناس واختلاف معارفهم

فهمنا للأشياء ليس موحدًا، والاعتقاد بأن الزوايا التي ننظر  
مستعدين لإعذار بعضها في حالة الاختلاف، ومستعدين  
إلى أولئك الذين نختلف معهم في الكثير من الأمور،  
هذه بعض الأمثلة الشارحة لهذه الفكرة:

«مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ  
القول من ذلك الإمام العظيم يرسخ المنهج الاحتمالي في  
عازم والمغلق الذي نلمسه لدى كثير من أنصاف المتعلمين، إن  
على مسائل جزئية، والأمور الجزئية دائمًا هي مناط للاختلاف  
كثيرًا ما يكون قليلًا أو نادرًا. وحين نفكر في المجال الحضاري،  
أسباب وجود ظاهرة ما، أو نبحث في إصلاح وضعية من  
الاختلاف يصبح أوسع مما هو متاح للفقهاء؛ ولهذا فإننا حين  
الحق والحقيقة، فإن ذلك يحفزنا على رفع شعار: «الصواب  
عشر على عشرة أسباب أساسية لتفشي الانحلال الخلقي في  
ين يعثرون عليها مفكرين وعلماء اجتماع ينتمون إلى خمسة  
يأتي من يزيد سببًا أو سببين، وقد يأتي من يقول لك: إن  
خلال في ذلك تنحصر في ثلاثة، وقد يكون هذا الاختلاف  
تاريخ الانحلال، وقد يكون بسبب الاختلاف في تعريف  
... هذا التنظير يجعلنا نتمتع بعقول منفتحة ومرنة، وهذا ما  
ن ومكان...

تحدث الناس لدينا عن حالتنا الحضارية وعن أوضاعنا الثقافية

مدلولاتها، وهذه بعض الأمثلة:

أن مسّ الرجل لامرأة لا تحل له أمر غير جائز، وقد بايع رسول الله ﷺ حجة لأي منهن، أما في الغرب، فإنهم ينظرون إلى مصافحة المرأة على الرجل، ويتجاوزون ذلك إلى التقبيل؛ فتقبيل الرجل للمرأة على الخد م عن شهوة أو ريبة؛ بل يعبر عن المودة المشفوعة بالاحترام، وهو عندهم الفم، كما هو معروف، وبعض المسلمين اليوم - مع الأسف - يفعلون، ويرون أنه مثل المصافحة تمامًا.

أن نبينا ﷺ لم يغال في أي مهر دفعه لأي من زوجاته، كما أنه لم من بناته، ونعرف أنه قال: «خير النكاح أيسره»<sup>(١)</sup>، ونعرف أنه ليس، ومن هنا فإن بعض المسلمين كانوا يغالون في مهر بناتهم متجاوزين لكنهم يعتذرون لذلك بأنهم يريدون أن يعلم الخاطب وأهله أن بزة على أهلها، أو حتى يجعلوا من المهر الكبير شيئًا احتياطيًا تستفيد الشدائد، وبعض الأولياء يعتقد أن الحصول على أعلى مهر ممكن هو ه موليته ومن نصحه لها... وبعض المسلمين اليوم يطلب لابنته مهرًا لسنة، وبعضهم يفعلون ذلك من أجل إعطاء الانطباع بالاستغناء عن هم قادرون على تجهيز ابنتهم وتحليتها - إلباسها الحلي - وبعضهم بالمهر القليل يدًا عند الزوج ومنة في عنقه، ولدى بعض الشعوب أعراف عجيبة غريبة في مسائل المهر، ومن المهم أن ندرك أن كل



التي تربيهم عن أسرهم في وقت مبكر جداً، وقد يكون من هذه الوضعية لدى القوم، إنهم لا يجدون مشكلة في أن تنام رة؛ لأن نظرتهم للعرض والشرف بعيدة عن نظرتنا، كما أنهم ما رباهم آباؤهم - على الاستقلالية والاعتماد على النفس، منهم أن يخطط حياته على أساس أنه بعد سن الثامنة عشرة قد والديه، وقد أوجدوا النظم والجمعيات، وهيئوا الظروف التي كمال دراستهم الجامعية من غير مساعدة الأهل...

التعامل مع الأبناء هو الأسلوب الأفضل، فإن ما فيه من فضل إن كثيراً من الشباب تعلموا التواكل، وأثقلوا كواهل آبائهم ما أن تربية الأبناء على الاستقلال والاعتماد على أنفسهم مع لكنها قد تعرّضهم للدخول في مداخل مهلكة، وقد تجعلهم، وإن الفائدة المرجّاة من هذا الوعي هي الوصول إلى صيغة الآخرين من محاسن، وتستبعد ما لدينا ولديهم من نقائص. كميل إلى إصدار الأحكام التعميمية والمطلقة؛ لأن مؤونتها أقل، وتماسك في الرؤية، أما الأحكام والأفكار ذات المسحة النسبية إلى علم أكثر وجهد أكبر، ويبدو صاحبها وكأنه متردد ملاحظة النسبية في كثير من الأمور أقرب إلى الموضوعية تعالى - بالعدل والقسط، إن الخير والكمال والسمو والتفوق، وليس لها سقف محدد يمكن أن نرمقه؛ وذلك بسبب عدم لأشوار وحضور القصور الذاتي... كما أنه ليس للانحطاط



لإسلامي تاريخ حروب داخلية وثورات وفتن واستبداد.  
لاني كسول، والكسل جزء من طبيعته، ولا فائدة من تحفيزه أو محاولة  
ل عن زوجته: إنه يختلف معها في كل شيء، ولهذا فإن الحياة  
عن ابنه: إنه غبي وفاشل، وليس لديه أي طموح، ومستقبله سيكون  
ة الإسلامية متدهور، وهي من سيئ إلى أسوأ، والهوة بينها وبين  
بعد يوم.

نفسه مستقبلاً زاهراً فليدرس الطب أو الهندسة أو إدارة الأعمال.  
خضر هو أجمل الألوان، ولا يلبس الثياب الخضراء إلا أصحاب  
ما الذي يترتب على هذه الأحكام على المستوى الفكري  
جه الخلل فيها؟  
في الآتي:

الإصلاح والتقدم والاندفاع في طريق الاستسلام أو طريق الفوضى.  
سديق والافتقار إلى الإنصاف؛ فالتاريخ الإسلامي لم يكن كله  
وليس هناك شعب كل أفرادهم كسالى، كما أنه ليس هناك رجل  
في كل شيء.

دعة صياغة الأحكام السابقة من منظور النسبية الثقافية:

سي لأمة الإسلام كان مملوءًا بالاضطرابات والفتن، على حين أن  
والاجتماعي كان فيه الكثير من الملامح المشرقة التي تدعو إلى

الشعب الفلاني كسالي، وذلك بسبب الحرارة الشديدة مع  
تنظيم جيد للبيئة، ويمكن لكثير منهم أن يصبحوا أكثر نشاطًا إذا

مع زوجتي في أمور كثيرة، وأعتقد أننا لو تحاورنا وتواصلنا أكثر،  
با سيزول.

عجزت عن اكتشاف نقاط القوة لدى ابني، كما أنني لم أهتم  
، وأنا خائف على مستقبله، ولا بد من التحرك لعمل شيء ما.  
من أن وضع أمة الإسلام اليوم أفضل - على العموم - من  
، لكن التقدم لدى معظم دولها ما زال ضعيفًا، كما أنها تفتقر  
ية الصحيحة، مما يجعل الهوة بيننا وبين الغرب تتسع في كثير

سين للطب والهندسة وإدارة الأعمال يحصلون على وظائف  
ي إنسان يبرع في أي تخصص، ويصبح من الأوائل فيه، فإنه  
ييدة، كما أن هناك من درس الطب... وعاش حياته كلها فقيرًا

في هذه الصياغة معللة، على حين كانت في النموذج الأول صلبة  
ن ثم فإن من يقرأ الصياغة الثانية، يتفاعل معها أكثر، وهي قادرة  
لديه.

اع على أن المسلمين قد شيدوا حضارة عظيمة، ولا يتعارض هذا  
انب تاريخها كانت رمادية أو مزعجة...

صاغة أكثر موضوعية وصدقًا؛ فالكسل عند بعض الشعوب ليس  
نًا من طبيعة أبنائها، وإنما هو وليد المناخ والتخلف وضعف درجة

الصياغة الأمل في الإصلاح ووجود مخرج من التآزم على نحو  
ص خلاف الرجل مع زوجته في البند الثالث، وعلى نحو ما نجده  
آباء لحالة ابنه في البند الرابع.

على مكنم الداء كما هو الشأن في البند الخامس؛ حيث وضحنا  
ياسات، وليس النقص في الإمكانيات، هو السبب الجوهرى في  
بين الغرب.

هذه الصياغة حق الاختلاف في الأذواق، وهذا يؤسس للتعددية  
رضية الثقافية المشتركة أعظم رحابة.

سبية الثقافية تساعد فعلاً على رؤية كثير من الأمور بطريقة جيدة،  
ن نكون أقوم لله بالعدل، وأن نكون أشد موضوعية وصدقًا.

بـ، أما النسبية فإنها الشيء المتصل بالقيم لكنه غير عام وغير  
الذي يحد من إطلاقية القيم إلى درجة محققها بالكلية!

شارحاً صورة من صور المآسي التي تركتها النسبية في الغرب:  
التلفزيون البريطاني، وشاهدت برنامجاً من برامج الأحاديث  
يجلس على المنصة رجل وزوجته وأطفالهما مع إضافة بسيطة  
جل ( نعم عشيقه لا عشيقته ) الذي يعيش معهم تحت سقف  
لزوجته والأطفال، وقد واجه الجمهور إشكالية حقيقية، هي أن  
موافقون على هذا الوضع الشاذ، فمن ناحية توجد الموافقة، وهي  
حيد لأي علاقة جنسية في العالم الغربي، ومن ناحية أخرى  
يتسم به هذا الوضع، ومصدر المشكلة يكمن في عدم وجود  
بـ أو إنسانية يؤمن بها الجميع، ويستمدون منها معيارية ما، لهذا  
رين يحتج على شيء، كان الزوج والذي أحضر عشيقه ليعيش  
زوجته موافقة وسعيدة، وأن أولاده أيضاً موافقون وسعداء، وإن  
سيكون إهداراً لحريتهم وحقهم في الاختيار! <sup>(١)</sup>، هكذا حين  
حي الذي يمنح المطلقات والثوابت صارت النسبية هي سيدة  
مكن لأمر شنيع جداً أن يكون سائغاً إذا تم برضا أصحاب  
أن من أكثر العبارات تداولاً في خطابنا اليومي: « لكل واحد  
« تمارس علينا ضغوط كثيرة، ولا بد من المرونة »، « البيئة التي  
على الصدق ولا على الاستقامة... » هذه التعبيرات وأشباهها

واقع معقداً وعسيراً، فإن فهم الماضي والوقوف على أسباب وقائعه  
وتعقيدها؛ وذلك لأننا نحاول استيعابه وتفسيره من خلال روايات  
قضى والنقص، وبعضها يعاني من التزوير المتعمد، وكثير منها يعاني  
المؤرخ في الإحاطة بالحدث وفي فهمه... وإذا رجعنا إلى كتب  
وجدنا أن مؤلفيها اتبعوا - في الغالب - أسلوب السرد وسوق  
الأمثلة في مضامينها ودون تعليل لها ودون ترجيح لرواية على أخرى،  
من قراءاتها قليلة؛ بل إن بعض المعلومات الموجودة فيها مضللة  
لحقيقة، ومن هنا فإن اعتماد (المطلق) - وهو هنا السنن الربانية في  
الأساس في فهم التاريخ - سوف يكون عملاً مثيراً وموثوقاً إلى  
أشرح ما أراه في هذا الشأن عبر الأمثلة الآتية:

ت الردة؟

ل الله ﷺ ارتد معظم العرب، ومن المؤرخين من يقول: إن الذين  
هم أهل مكة والمدينة والطائف، وتفسير هذا واضح، وهو أن الذين  
هم الذين أتيح لهم التضلع من هديه ﷺ وأتيح لهم الاحتكاك به،  
مكة والمدينة في الإسلام استغرق وقتاً طويلاً نسبياً؛ فنحن نعرف أن  
سنة من العمل الدعوي الشاق في مكة المكرمة كانت عبارة عن  
من الرجال والنساء، وهذا العدد قليل جداً بالنسبة إلى الأعداد التي  
حيث يذكر علماء السيرة أنه بعد فتح مكة وانتهاء غزوة تبوك  
بائل العرب بأن الإسلام قوة لا تُغلب، فما كان منها إلا أن أخذت

ضوع هو: أن ما يتكون بطريقة سهلة وسريعة يمكن أن ينتقض  
سريعة، ولهذا المطلق من الاستثناء ما لغيره من المطلقات، ولكن  
لا حكم له. وأنا أعتقد أن على الشباب الماضي في طريق المفكرين  
للول مثل هذا المطلق من خلال استخدامه في تفسير كثير من  
ناضرة.

در شرور:

مع ( العلم ) على أنه الأصل؛ ولهذا فإننا نستغرب من جهالة  
الراسخة هي أن الأصل في الناس الجهل إلا إذا تعلموا، وقد  
عوذة والأباطيل والأوهام موجودة ومقيمة على نحو دائم كما  
ب عظيم، أغلق بابه بإحكام، وكما أن النور هو الذي يبدد  
الذي يبدد الخرافة، ورحم الله ابن القيم حين قال: « الجهل  
الشرور »

اليوم لوجدنا أن لدينا عددًا هائلًا من المدارس، ومع هذا فنسبة  
ما زالت في حدود ( ٣٠ ٪ )، فكيف كان الحال إذن يوم لم  
ل لم يكن هناك مدارس حكومية؟ وكيف كان الحال لما كان  
ناس أميين، وكان مستوى ما لدى معظم المتعلمين منهم من  
رى ما لدى طالب في الصف الخامس الابتدائي في هذه الأيام؟

يخنا يلحظ وجود اعداد كبيرة من المذاهب المختلفة، ويلحظ في  
اء مضحكة وضاربة في الخرافة، وإن إلقاء نظرة سريعة على ما كتبه  
اني في الملل والنحل، تجعل المرء يدهش من كثرة ما أنتجه الجهل  
مدة وبعيدة كل البعد عن الصواب، ولو تأملنا في وضعنا اليوم حيث  
من الوعي، فإننا سنجد أنه ليس لدينا ولا عُشر النُّحل والمذاهب التي  
على مدار القرون العشرة الأولى من تاريخ الإسلام، ولا غرابة في  
لم الصحيح يجعل المجال أمام الفكر المنحرف والرأي الفطير ضيقًا.  
دم الحضاري تكون المعرفة هي مركز السلطة، وهي أداة التوجيه  
لمجتمعي، وحين ينتشر الجهل تصبح القوة المسلحة هي أداة السيطرة  
فإن انحسار العلم في مجتمعاتنا على مدى عصور الانحطاط أدى  
س السياسي والحلول المتوسطة، وصار السائد هو الحرب الأهلية،  
في بلد حتى تنفجر ثورة في بلد آخر، ونحن نلاحظ اليوم كيف  
والمدمرة تجري في البلاد البعيدة عن تيار الحضارة على حين أن  
عدت أراضيات مشتركة للوثام الاجتماعي، وحلت مشكلات  
وتفرغت للتنمية وتلبية احتياجات الناس.

يساعد الناس على حل مشكلاتهم والوصول إلى حقوقهم من غير  
هل فيدفع الناس إلى الاقتتال الخالي من الرحمة، ليجدوا بعد مدة  
لم يحصلوا على الحقوق!

ل هو العلم، وعقل بلا معرفة جيدة، أشبه بجنديٍّ أعزل، ومن هنا  
لعلمية لدى الإنسان تجعله أسيرًا لعواطفه ومشاعره، ونحن نعرف

كثير خضوعاً لفورات العاطفه منها لاحكام العقل. ومن الملاحظ  
علم - رجلاً كان أو امرأة - أشد سيطرة على عواطفه من غير  
لم يُرشد المرء إلى النقطة التي يجب أن يتوقف عندها الانفعال.  
للتناقض؛ إذ إن الإنسان يستطيع ولو لم يكن متعلماً، كشف  
البديهية، مثل أن يكون الإنسان داخل داره وخارجها وأن  
وطفلاً وشيخاً... في آن واحد، أما التناقضات المتعلقة بالمعتقد  
الأمور فإن كشفها يحتاج إلى قدر من العلم والمعرفة، ومن هنا  
أهم يناقضون أنفسهم بأنفسهم، وكم رأينا من المسلمين من  
ورسوله، وإن روحه فداء للإسلام، وهو لا يصلي، وربما شرب  
ي يخيم عليه يمنعه من فهم مقتضيات ادعاء حب الله ورسوله،  
والكف عن المعاصي، كما أننا رأينا من يضرب زوجته،  
اظ، ثم يدعي أنه يحبها حباً جماً، ولا يستطيع العيش من  
إنه يحاول على نحو دائم أن يكون منسجماً مع نفسه، وأن  
جام بين ما يقول وبين ما يفعل.

يخ وقرأنا أحوال الناس، فسرى أن ما لديهم من تناقض أكبر  
الآن، وقد قال ابن الجوزي المتوفى سنة ( ٥٩٧ هـ ) في كتابه  
ي زماننا من لو جلدته حتى يفطر رمضان ما أفطر، ولو أنك  
صلى! وهذا مع أن الصلاة أهم، وإن في زماننا هذا من العامة  
لمن ذكرهم ابن الجوزي!



سبوع، ومن يخاف من كنس البيت، ومن يخاف من قص اظافره  
اليوم... كلما رجعنا إلى الوراء رأينا هذه الأمور أشد رسوخاً في  
فسوّ الجهل، وإذا نظرنا في واقعنا اليوم وجدنا أن كل هذا قد  
البيئات الجاهلة، والتي تشكل امتداداً للبيئات الجاهلة عبر التاريخ.  
الحكمة البالغة في كون أول كلمة نزلت على رسول الله ﷺ هي  
أ حتى نعرف ربنا وديننا، ولنقرأ حتى نشعر بالأمن، ونعرف كيف  
ننال حقوقنا من غير اقتتال.

صراع بين المبادئ والظروف الصعبة:

شأنه - هذه الأمة بدين، هو آخر الأديان، وأكثرها تفصيلاً في  
صارت تعاليم الإسلام الحنيف بالنسبة إلى المسلم هي السراج الذي  
وهي الزاد الروحي الذي يعينه على المسير، وهي الأداة التي يغالب  
لمى حين أن الأمم التي لم تظفر بالهدي الرباني، وتلك التي حرّفتها،  
معانيه الأساسية - صارت في حالة واسعة من الحيرة والاضطراب،  
يمكن أن تحتكم إليها في حسم النزاع في الكثير من الأمور؛ ولهذا  
ناول فهم التاريخ الإسلامي أن نركّز على قطيعات الدين بوصفها  
بارك مع شهوات النفوس وصعوبات الحياة والظروف غير الملائمة...  
هذا الإطار الأمور التالية:

معاي:

لطلقة في الحياة العامة وجود نوع من المفارقة بين ظاهر المجتمع

م، فإن هذا يدفع بمن خفّ لديهم الوازع الديني إلى أن يكون  
باطنهم، أي أن يكون سلوكهم في بيوتهم وخلواتهم تبعاً  
لسلوكهم الاجتماعي العام منضبطاً بالعرف الصالح وبآداب  
الشيء مهم جداً في هذا الشأن، هو أن كثيراً من الناس في  
القرى صغيرة، أما في المدن فإن الذين ينتمون إلى عائلة  
يميلون إلى السكنى في حيّ واحد، وهذا يجعل سلطان العرف  
على الناس بعضهم بعضاً بسهولة، ويجعل الخوف من الفضيحة كبيراً،  
ولسلوك الشخصي للناس في بيوتهم وخلواتهم يظل محكوماً  
بما تلقوه من تربية رشيدة في حياتهم الأسرية، أما سلوكهم  
ظاهراً فإنه يظل محكوماً بمدى اهتمام الناس بالأمر المعروف  
بالبيئات التي يسكنون فيها؛ فالبيئات كلما كانت أضيق كان  
التحفظ ومراعاة العرف والعكس صحيح.

هذا؟

الاجتماعية في أي مرحلة تاريخية هي قراءة ظنية اجتهادية؛  
الخطأ، كما أن علينا أن نكون رقيقين في أحكامنا حتى لا نظلم  
في قبضة التصلب الفكري.

الاجتماعي لمعظم الناس في الخفاء يكون أقل استقامة من

له لآل تربى ابناءها تربية جيدة، وهذا يجعل تأثير الوازع الداخلي  
تأثير الضغط الاجتماعي وضغط الظروف الصعبة، ولن أمل من  
ائمًا استثناءات كثيرة، ونحن نتكلم عن الطابع العام، أو ما يشكل

والبيئات الضيقة يمشي الشخص في الشارع وهو مراقب من قبل  
من يعرفونه، على حين أنه قد يمشي في مدينة كبرى ساعة دون أن  
من قبل، ومن هنا فإن رقابة المجتمع في القرى تكون صارمة جدًا،  
سمعتهم خشية شديدة، وهذا يعني أن الهوة التي تفصل بين  
ملوك المعلن في الشارع، تكون في العادة كبيرة، وتضيق تلك الهوة  
عف رقابة الشارع، وهذا هو الذي يفسر الظاهرة التاريخية البارزة،  
ريف الإسلامي - على نحو عام - يغطين رؤوسهن وكل بدنهن مع  
كون غير مهتمة بإقامة الشعائر، أما في المدن الكبرى - كما هو مشاهد  
يجدون مساحات أوسع للتعبير عن معتقداتهم وخصوصياتهم.

سي:

كل مجال من مجالات الحياة وكل شأن من شؤونها، وهذه  
ها بالمطلقات؛ لأنها ماضية في توجيه حركة البشر إلى يوم الدين،  
سي هو مجال قيادي بين المجالات، فإن فهمه يستحق اهتمامًا  
المطلقات فيه كثيرة، فإني سأعرض لأهمها عبر الآتي:

كن ركين في الحياة عامة وفي الحياة السياسية خاصة، وهي في  
ياة، بمعنى أن المسلمين يتشاورون في كل شؤونهم على كل

رف أن الخلفاء الراشدين عليهم السلام مارسوا الشورى على نطاق موسّع عن عبد الرحمن بن عوف أن أعضاء لجنة الشورى التي شكلها عليه السلام، أوكلوا الأمر إليه كي يستطلع آراء الناس في ترجيح واحد من خيار بينهما، فأخذ عبد الرحمن عليه السلام يتعرف على آراء رؤوس النساء المخدرات في حجابهن، وحتى سأل الولدان في المكاتب، من الركبان والأعراب إلى المدينة في مدة ثلاثة أيام بليالهن، فلم يقدّم عثمان بن عفان إلا ما يُنقل عن عمار والمقداد، فإنهما مع الناس <sup>(١)</sup>. بعد عصر الخلفاء الراشدين أخذت رقعة الدولة عظمًا، وكان ذلك يقتضي توسيع دائرة الشورى وتنظيمها بوجوب الإسلامية، لكن الذي حدث هو العكس؛ حيث تمّ تهيمش الشورى واستشارتهم في غير الأمور الجوهرية، وليس لرأيهم أيّ هذا معولاً من أقوى المعاول التي هدمت في صرح الحضارة الإسلامية. الناس مهما كانت درجة معرفتهم متدنية، ومهما كان تدينهم، أقرب إلى الرشد في حسم أمورهم والدراية بمصالحهم.

سان لا يشبع من المال مهما كثر وفاض، فإن الدولة لا تترتوي منكم مهما امتد وتضخم، هذه سنة من سنن الله - تعالى - في نت مسلمة أو غير مسلمة، متقدمة أو متخلفة، ويشير إلى هذا ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]،

وز موظفيها، كما أن رأس الدولة الصغيرة حين يكون صالحاً يحتاج  
وان والمساعدين، ويمكن أن يحصل عليهم، لكن العثور على ملايين  
مر صعب جداً، وواقع الأمم اليوم يشير إلى شيء من هذا لمن يحب  
بحلل.

لعضلة بغى الأقوياء يكمن في حرية النقد للتصرفات الخاطئة وفي  
على شاغلي الوظائف العامة، وحين يتوَج ذلك باستقلال القضاء  
ملت على كثير من الضمانات لاستقامة أمور الدولة، لكن ما تراكم  
في هذا الشأن كان ضعيفاً جداً في الأزمنة الماضية؛ ولذلك لم  
لامية المتعاقبة إيجاد صيغة يعبر من خلالها الناس عن آرائهم دون  
ذا ابتليت المجتمعات الإسلامية بثورات وفتن داخلية لا حصر لها،  
ن ثورة الزنج - على ما ذكر بعض المؤرخين - استمرت خمسة  
اسيين، وقُتل فيها نحو مليون ونصف من الأنفس، وهذا أضعف  
لإسلامية على حدٍّ سواء، ولم يتوقف الفساد والظلم؛ لأن الحروب  
على الفساد، وإنما توفر فرصاً جديدة له.

سياسة: كل شيء فردي إذا صار جماعياً صار سياسياً، أي كل  
كان نوعه - ولو قيام الليل - يظل غير مهم إلا إذا تحوّل إلى نشاط  
ح في نظر الحكومات ذا بعد سياسي، ويصبح بالتالي مُقلقاً، وإذا  
ير ولد الشعور بالخطر، وهذا المطلق موجود أيضاً لدى كل الدول  
يكمل هذا المطلق مطلقاً آخر، هو أن الحكومة مهما كانت صالحة

ره في تاريخنا الإسلامي بين أهل العلم والفكر والدعوة وبين  
لأن العلم يؤسس لأصحابه سلطة، ويجعل منهم منافسين أقوياء  
موجود لدى كل الأمم وفي كل الأزمنة.

الداخلية والحروب والنزاعات الخارجية، تُضعف من قدرة  
رايين وإنشاء النظم والاحتكام إلى الثقافة في تسيير أمور المجتمع،  
م القوة والعنف، وذلك أن خوض الدولة للحروب مع دول  
إاضي الآخرين - كما حصل للدولة الإسلامية في عدد من  
وجود قلاقل واضطرابات داخلية، مما يصرف وعي الدولة نحو  
القوة المسلحة مستشعرة قداسة الدفاع عن الوجود واستمرار  
هذا العديد من الأمور، أهمها أمران:

نوع من ضعف الاهتمام بالحياة المدنية، على مستوى القضاء  
ضعف الرقابة على تطبيق النظم والقوانين، وهذا يؤدي إلى توسع

م القوى المسلحة تبدأ بفرض مصالحها على الأجهزة السياسية،  
ى عسكرية الحياة العامة، واللجوء إلى القوة في حل الإشكالات  
الأصل عن طريق السياسة و ( الدبلوماسية )، وذكر بعض  
تتوح الإسلامية أنه قد لوحظ بعد انقضاء القرن الأول الهجري  
قادة الجيوش الإسلامية بإسلام أهل البلاد التي دخلوها صار  
نسمع بعرض الإسلام عليهم، فإن أبوا طلبت منهم الجزية، فإن  
الحكم الشرعي في ذلك، وإنما صار القتال هو الشيء الذي



طبيعته السن و ( المطلقات ) التاريخية والاجتماعية، غير صارمه،  
من قبل - أقل صلابة من السن الطبيعية كسنن الفلك والفيزياء  
سبيل المثال فإن عدم تنظيم الشورى على النحو المطلوب وعدم  
مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي - فيما نعلم - لم يكن له  
الخلافة أو السلطان صالحاً تقيّاً ذا كفاءة عالية كان ضرر ذلك  
أن غير صالح أو غير كفء، وهذا هو ما نقصده بتعاقب النسبي مع  
الإنسانية.

د التأكيد عليه، هو أن فهم طبائع الأشياء والسنن الربانية في الخلق  
ري للتفكير المنهجي الموثوق، وإن من الصعب جداً أن نرى شخصاً  
لقب مفكر، وهو ضعيف الحساسية نحو هذه القضية؛ ومن ثم  
أتي بما لا يمكن تقديره من الفهم والبصيرة؛ ولله المنّة في الأولى

\*\*\*

م بعمله، أو حتى يكون لعمله قيمة ومعنى. أحياناً نشبّه العقل  
بـدخله عليه من معلومات ومعارف بالزيت الذي نزوده به حتى  
وأحياناً نشبّه العقل بـ ( الرحي ) ونشبّه العلم بالحبوب التي  
نـلدورانها معنى أو فائدة، وهذا التشبيه جيد وواضح؛ فهو يدل  
جـ وجوداً مستقلاً عن وجود الحبوب والزيت، كما يدل على أن  
غيره، ويعمل في نطاقه، ونحن نعرف أننا حين نزود الرحي  
طـ بالتراب، فإن الطحين سيكون كذلك، وحين نزود السراج  
يـ من الماء فإن ضوءه لن يكون صافياً، إنما سيخالطه شيء من  
لـ يُنتج الأخطاء والأوهام والضلالات حين نزوده بمعلومات  
نـ العقل يختلف عن الرحي وعن السراج من بعض الوجوه؛ فهو  
ولا يتوقف عن النظر والاستنتاج، ولو لم نزوده بالمعارف  
كما أشرنا من قبل - قادر على محاكاة بعض المعلومات واتخاذ  
طـيع السراج وكذلك الرحي التحكم بالزيت والحب؛ إذن نحن  
ية، وحسم كثير من تفاصيله ما زال غير ممكن، ولله الحكمة

بعض القواعد والملاحظات التي توضّح أهمية المعلومات والمعارف  
فاعليته، وتوضّح كذلك نوعية المعلومات التي نحتاج إليها ونوعية  
لـ، وذلك عبر المفردات الآتية:

معنى إلى أن يكون مفكراً يُعتدُّ به محتاج إلى أن يكون اشتغال



من رواد المسجد، وبعد الزواج بين أن الشاب لا يصلي، كيف  
وقف موقف ندم وأسف على التعويل على خبرة قديمة، ليس هناك  
إرها! العقل من غير معرفة هباء، وإن لدينا ما لا يحصى من  
إلى أن الشاب الذي لديه ذكاء متوسط مع تحصيل علمي ممتاز  
نجاحاً أعظم من شاب مفترط الذكاء لكنه غير مهتم ولا متعلم  
الجديدة. إن العصر الذي نعيش فيه مختلف عن كل العصور؛  
فني لم يعد يستند إلى وفرة المواد والموارد الطبيعية - وهي بطبيعة  
عالمية بالقدر الكافي - وإنما صار يعتمد على الذكاء الإنساني وعلى  
التيمة كما يعتمد على المعرفة والقيادة، وهذه كلها متوفرة، أو يمكن  
أن بشرط توفر الوعي بقيمتها وأولويتها، وهذا ما تعاني منه الدول  
التي تُنتج التخلف!

البحث العلمي وفي استخدام المعلومات ومعالجتها يستقطب المزيد  
من، ولا عجب في هذا؛ فالتطور التقني المذهل هو نتيجة وجود  
في شتى المجالات، المهم هنا أن البيانات والمعلومات والأرقام  
في اليوم، والشيء إذا كثر تداوله أو اشتد الطلب عليه، فإنه يتعرض  
للد، وللتحريف المقصود، ومن هنا فإن علينا أن نتأكد من سلامة  
معلوماتنا إلى رؤوسنا كما نتأكد من سلامة الطعام الذي ندخله إلى  
- فيما يعنيه - الآتي:

أخذ المعلومة من مصدرها الأساسي كلما كان ذلك ممكناً،  
مأئنا القدامى - كما أشرت من قبل - كانوا يحرصون على علو

هم الدين يصوغونها ويخرجونها، ويقدمونها لبعضهم؛ ولهذا  
بيء شخصي وذاتي؛ وذلك بسبب خضوعها لمعالجة أناس لهم  
أؤهم وقصورهم، ومن هنا فإن من المهم أن ننتبه إلى ( السياق )  
ر، وتساق فيه الأخبار والمعلومات، وعلى سبيل المثال فإن علينا  
، والتزيد والتخليط في الآتي:

لعلم يساعد الإنسان على ممارسة نوع من الرقابة على عواطفه،  
الحصيلة العلمية للمرء أعظم، كانت قدرته على الفصل بين أفكاره  
ر، والعكس صحيح، مع الأخذ بعين الاعتبار أن التحرر الكامل  
أحكام العقل غير ممكن، إن الجاهل لا يملك من دقة الفهم  
جعله ينقل ما سمعه، أو يعبر عما أدركه على النحو المطلوب.

المديح والفخر والاعتزاز؛ إذ إن القائل يحرص على إبراز تفوق  
عليه، وهذا الحرص يدفع إلى تجاوز الحقيقة، وهم يذكرون أن  
الوجهاء، فأطنب في المديح، ثم حدثت بينهما جفوة، فقال  
ع في الهجاء، فلما كلمه أحدهم عن سبب ذلك التناقض،  
حسن ما أعلم، وغضبت، فقلتُ أسوأ ما أعلم! إنه كان يفتقر  
الحالتين.

الغضب، وما يقال عند دفع المرء لاتهام وجه إليه، إن المرء في  
رؤًا كبيرًا من سيطرته على لسانه، كما أن المتهم يتجاوز حدود  
ما هو راسخ من الحقائق في سبيل الحصول على البراءة ودفع

ص اوتوا قدرة كبيرة على التحدث عن امور كثيرة وفي كل  
ة في اللسان واستحضار للطرفة الذكية، وهؤلاء يسيطرون في  
المجالس، ويستمتع الناس بحديثهم، وكثير من هؤلاء يسوقون لك  
والعجائب والغرائب التي حدثت معهم، أو سمعوها ممن حدثت  
تسمع إليهم تدهش من أنه لا يجري معك ما جرى معهم، وتحرار في  
بد أن نعترف أولاً أن الناس في ظروفهم وفي قوة ملاحظتهم ليسوا  
ن نقول أيضاً: إن ما يخالف الشائع والمألوف حتى يدخل في حيز  
يستحق منا وقفة حذر وتأمل، ورحم الله - تعالى - الإمام أحمد  
: « اتقوا هذه الغرائب، فإن عامتها مناكير ». وأذكر أنني كنت قبل  
لله الحرام، وقد جلس إلى جوارى رجل متحمس للجهاد الأفغاني  
ن سألته عن أخبار الناس هناك، قال لي: أبشر فقد تمكن المجاهدون  
ف جندي أمريكي خلال أيام قليلة ولكن الإعلام العالمي لا ينشر  
سي: هل كان أولئك الجنود في ملعب لتشجيع لاعبي كرة القدم،  
لابن أحد الوجهاء العظام؟ ثم إن ذلك لو حدث، فإن خبر قتلى  
م أكبر بكثير من أن يتمكن أحد من التستر عليه.

مانع للمعرفة، ولديه الكثير من أسرارها وخباياها، إن لديه ما يقال  
تتحقق النشر وما لا يستحق... ومن ثم فإن اللقاء بأهل العلم والتجربة  
ذا مهماً لاكتساب المزيد من المعارف والخبرات التي قد لا نحصل  
د يكون لدى العالم تعليقات حول بعض الأفكار والمواقف، لكنه -  
لا يرى التحدث عنها على الملأ، وقد يكون لديه ملاحظات علمية

ملا بها؛ فهذا أنفع لهم من كثير مما يقرؤونه. وقد كان من رأي  
الملكات عن طريق المشافهة والمباشرة أشد استحكامًا وأقوى  
الكتب، وكان علماؤنا القدامى يفاخرون بكثرة الشيوخ الذين  
كانوا أهداف رحلاتهم العلمية الكثيرة، ويفيد أحد الدارسين أن  
ملثي معرفتهم من الاحتكاك المباشر مع أشخاص آخرين، وعلى  
سبيل الآلية.

فضيلة التركيز في اكتساب المعرفة، ونعرف أن تقدم كل العلوم  
الباحثين الذين يشتغلون على الجزئيات، ويبحثون في التفاصيل  
في علم معين يساعد على تكوين متخصص ومرجع ولا يساعد  
إن الإيغال في التخصص يولد لدى صاحبه نوعًا من التعصب  
سبه في سبيل غير سبيل المفكرين، من هنا نقول: إن المفكر -  
متخصصًا - يتأبى على الانغماس في علم محدد، وإنما يسعى  
لكنه وآفاق رؤيته من خلال توسيع دوائر اطلاعه. إنه يقرأ في  
الطبيعية، وينظر في تجارب أهل التجربة، وهو في ذلك  
كفر على سطح البحر ليخطف رزقه من سمك وغيره، إنه  
لحذر الشديد من الغرق في الماء، هكذا المفكر يلتقط الأفكار  
قيّمة، ويبدأ بعجنها وخبزها في دماغه بعد أن يمزجها بماء فهمه  
سج ابتهاجًا لا نظير له حين يتوصل إلى قانون أو مفهوم تمتد  
بوي والاجتماعي والأخلاقي والسياسي والطبي... إنه يفرح

المفكر يدور بين يديه، وسينسجرونه يتحدث إليك عن معاني  
هائلة ممتعة، ومتماسكة منفتحة... إن المفكر يبدو لنا أحياناً كمن  
ساقط في كومة قش، وهو من أجل ذلك يعاني ويعاني، لكن الثمار  
أعظم النفائس التي سنحصل عليها، تلك التي نجدها في غير  
مفكر بعمق.

## الأفكار والقضايا:

دائماً عن الوضوح، ويبحث عن التحديد، وهذا من أكبر فضائل  
م أن ندرك أن النفاذ إلى أعماق الأفكار والقضايا المطروحة على  
اليسير؛ وذلك بسبب امتداداتها في الماضي والذي قد يكون بعيداً،  
مع الكثير من الأفكار والقضايا الراهنة، لكن قد نستعين على ما نبغيه  
ما نريد فهمه والبحث في أسبابه، والواقع أننا حين نبحث في فكرة  
م تاريخها، فإننا نكون كمن دخل غرفة مظلمة لم يدخلها من قبل؛  
نبدأ أولاً بفهم التاريخ؛ لأن فهمه يعني فهم الدواعي والجذور  
لنشأة، خذ - مثلاً - سقوط الدولة العثمانية؛ بوصفه حدثاً من أكبر  
ت خلال القرون السبعة الماضية بالنسبة إلى أمة الإسلام - هذا  
لأته ولن نستطيع فهمه حق الفهم إذا نظرنا إلى سنة حدوثه أو عشر  
غير كاف بل علينا أن نجيب على التساؤلات التالية:

لوضع الإيمان والأخلاقي لكبار موظفي الدولة خلال السنوات  
سقوط الدولة؟

وضع التعليم والصناعي داخل البلاد مقارنة بما كان عليه الوضع

أن نطرح الكثير من التساؤلات حول الأوضاع التي اكتنفت  
أوضاع التي سبقت ذلك بمدة زمنية لا تقل عن ثلاثين أو أربعين  
سقوط الدولة يحتاج فهمه إلى أن نعود قرنًا من الزمان قبل  
النخر في الدول العظمى تستمر في العمل مدة طويلة.

يل المثال الفكرة التي تقول: « لا تنزعج لوجود التحديات  
؛ لأنها تحميك من الترهل وخيانة الرخاء، وتجعلك تتوقف عن  
الأخطاء ». تأمل في هذه الفكرة على نحو جيد، وحاول فهم  
سناها العام، ثم حاول الإجابة عن الأسئلة التالية:

ة صحيحة؟

هذه الفكرة؟

الها بكثافة؟

بة الجذور؟

ة، فمن الذي جذدها؟

قبل ثلاثة قرون على وعي بها؟

ني ساعدت على نضوج هذه الفكرة واعتمادها بين مفردات

هذه التساؤلات أو معظمها ستجعل الفكرة المشار إليها متألقة

التقني من أكثر ما يطور حياة الناس، وما ذلك إلا لأن إمكاناتنا  
شئنا محدودة؛ ولهذا فإننا نحتاج إلى الأدوات التي تساعدنا في  
منا بعض الأمثلة:

( ز ) قد أحدث تغيراً هائلاً في حياة الناس؛ لأنه مدّ في إمكانات  
فنحن بسببه بتنا نرى الأحداث ساعة وقوعها مع أنها تبعد عنا  
أن التلفاز قد ملأ كثيراً من أوقات الفراغ، وأوجد ملايين الوظائف  
يون ثقافة الصورة ويقومون بتسويقها. قبل التلفاز كان معظم الناس  
كان هذا يساعدهم على القيام إلى صلاة الفجر وأدائها في وقتها،  
يحتاج إلى مجاهدة نفسه كيلا يطيل جلوسه أمام التلفاز. قبل  
بيئات مغلقة، وكان الطفل ينظر إلى أهله وأقربائه على أنهم هم  
العالم في ثقافته وتقاليده، أي كانت القيم التي يؤمنون بها تشكل  
يحاكم سلوكه إليه، أما بعد التلفاز فقد صار الطفل بكبسة زر  
لى عشرات البيئات، ليرى الكثير من القيم والأخلاقيات المتقاطعة  
إنه يقارن ما يراه في أسرته ومحيطه بما يراه في ( التلفاز )، وهذه  
بيئته فيه - في الغالب - أقل؛ بل قد تجعله يزدري ما لدى أهله  
ت ومفاهيم، وهذا واضح للعيان اليوم.

المتقدمة اليوم قطارات تصل سرعتها إلى نحو من ثلاثمائة كيلو متر  
سير لا تلامس الأرض، كما أنها مزودة بكثير من التجهيزات التي  
هذه القطارات جعلت أبناء تلك الدول لا يحتشدون في المدن  
يها من مصانع وفرص للعمل، وإنما ظلوا في ديارهم بين أهلهم



خطورة كبيرة؛ لأنه يؤدي إلى قسوة القلوب، والتراخي في حيث تكون الحياة الحقيقة وحيث الاستقرار في الوطن النهائي. من يتخذون من قراءة مفرزات التقنية وتطورها مداخل لفهم على النحو الصحيح.

### معلومات والتحليل الشخصي:

مخاص مطلعين على بعض الخفايا أو متابعين لبعض القضايا، هيتنا نحو إلقاء الكثير من الأسئلة عليهم وسماعهم بشغف، أمر مهم، هو: هل الكلام الذي يقولونه لنا يعبر عن شيء رأوه عبارة عن تحليل شخصي لهم، أو تحليل شخصي سمعوه من من هذا وذاك؟ الخبراء المتخصصون تكون لهم عادة رؤية لا تنشأ من فراغ، وإنما تعتمد على بعض المعطيات، وقد آء آخرين، أما غير الخبراء والمتابعين، فإن ما يقولونه يكون في هم مع شيء من التلوين الشخصي. الأكثر أهمية بالنسبة إلينا له المتحدث بناء على رؤيته الشخصية، وبين ما يقوله بناء على؛ وذلك لأن مدى مصداقيته يتوقف على ذلك. مثال: شخص وقع ارتفاع أسعار معظم المواد التموينية خلال الأشهر الثلاثة حتمل أن يكون مبنياً على معلومات حول قرارات أو إجراءات ل فترة قصيرة، مثل قرار برفع أسعار الوقود، أو رفع الدعم عن أو فتح باب التصدير لها بعد أن كان مغلقاً، أو وضع ضرائب



لهذه الصيغ أو الفصائل بتعداديس عن بالكسثان... إننا في هذه  
تجربته في الموضوع الذي يتحدث حوله، وننظر إلى إمكاناته الذهنية  
و بالطبع سيستخدم بعض المعلومات في تحليله، وسيكون لدقة تلك  
الشيء شأن وأهمية، وعلى كل حال فإن ما يقوله عبارة عن وجهة نظر  
أحدًا بشيء، ولا تفوز بأكثر من الظن. علينا أن ننتبه أكثر وأكثر  
النظر الشخصية بالمعلومات، وهذا يحدث حين تكون القضية  
أمرًا أو معقدة.

### نقد شح المعلومات:

ج من خلال ما تحدثنا عنه مدى حاجة العقل إلى المعرفة حتى يقوم  
بذلك، ومن الواضح أيضًا أن ما هو متوفر من المعرفة لاتخاذ قرار مهم،  
يخفي كبير سيظل أقل من المطلوب، أي أن العلم مثل المال، نشعر  
بأنه نحتاجه. في بعض الأحيان يكون مطلوبًا أن نتخذ القرار بسرعة  
بينا فرصة نادرة، وتكون المعلومات موجودة، لكن الوقت المتاح  
كافٍ، كما لو فرضنا أن القرار هو عبارة عن تسجيل في قسم من  
إحدى الكليات؛ حيث يجد كثير من الشباب أنفسهم مخيرين  
ث، وكثيرًا ما يكون وقت التسجيل محدودًا، ومن الطبيعي أن  
نلتخرج، ويتوظف؛ ولهذا فإنه في حاجة إلى معلومات عن  
فيها، وعن طبيعة التخصص الذي سيدرسه، وعن سوق العمل  
ص، وأمور أخرى من هذا القبيل... فما الذي على الطالب القيام  
بمعلومات حول كل ما ذكرناه؟ أعتقد أن عليه القيام بالآتي:

الذين يدرسون في الكليات التي وجدت نفسك ملزماً بالدراسة  
هم عن مدى شعورهم بالفائدة وعن قوة المناهج والجو العام...،  
ن عن مجالات العمل لتلك التخصصات ومدى توفر الفرص  
المرة كيف يتعامل مع كلام أولئك الذين يستشيرهم؛ لأنه قد  
شيء من التضارب والتناقض.

تعالى - والإلحاح عليه بأن يرشد إلى الصواب والخير...

هذه الإنسان ميزات وحسنات، وله بعض المخاطر والتحديات،  
حقيقي ومتوقع فعلاً من كل ذلك عما هو وهمي أو مضخم،  
معقول، وما هو غير معقول...

ت كثيرة لا علاقة لها بموضوعك، أو لا تؤثر في قرارك، حاول  
؛ لأن كثرة المعلومات تُربك العقل في التعامل معها، ومما يذكر  
د القضاة نظر في قضية شائكة وطلب وثائق تتعلق بها، فأحضر  
ي ملف القضية وسجل الجريمة ضد مجهول!

والفراسة وطمأنينة القلب، ويروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال: « من  
دسه - لم تنفعه عينه »، والحدس ذو طبيعة غامضة، إنه يشبه أن  
بشيء دون أن يعرف كيف عرفه، وقد يكون الحدس نتيجة  
لمومات السابقة وتفاعلها مع بعضها، مما ينتج عنه نوع من

فهو مخصص ممتاز دائماً، وحين ينظر المرء في هذا الكلام من افق  
تحكم مسيرة الحياة، فإنه سيستحضر المؤشرات والمعاني التالية:  
ث إليّ يتحدث عن الطلب على مهنة الطب بعد ست أو سبع  
طويلة نسبياً، ولا أحد يدري كيف ستكون الأوضاع وقتئذٍ.  
نصص مرموق جداً، وستظل له أهمية، لكن عليّ أن لا أنسى أنّ  
نصص أعظم أهمية؛ فهناك طبيب مغمور، يكسب رزقه بصعوبة،  
بشار إليه بالبنان ورزقه يفيض عن حاجته مرات عديدة.

العلاج والتردد على الأطباء مرتبط بالحالة الاقتصادية للبلد، فإذا  
ل الناس على الأطباء سيكون ضعيفاً، وبذلك يكون العرض أكثر

هو التخصص الممتاز لكل الناس؛ ولهذا فلا بد للمرء حتى ينبغ  
القوية والقدرة الظاهرة.

خاذا القرار عن أسوأ ما يمكن أن يتمخض عنه ذلك القرار، وتأمل  
طبع تحمل ذلك؟ وكيف يمكن أن تتصرف؟

ني أن تخاطر، ومهما كانت النتائج، فإن ذلك أفضل من العيش  
غير مخاطرة؛ فالحياة الجيدة هي الحياة التي نعطي فيها للحياة،  
حنا، ويصلحها.

مور أو معالجة مشكلة من المشكلات، وذلك يعود إلى عدم تمتع  
الليقظة الفكرية وبما يكفي من التجرد من الهوى والتحلي  
حيث أن أشير إلى بعض الأمور التي ينبغي على من يريد امتلاك  
على حذر منها؛ حتى لا يقع في المصيدة التي وقع فيها الجاهلون  
راء:

### في التوقف:

كراهية الغموض والتضايق من المكوث في منطقة ( اللاقرار )،  
تطلع إلى معرفة المزيد عن الأمور المحيطة به كي يكون قدرًا من  
على بلورة رؤية واضحة أو اتخاذ قرار ما، أو تشكيل انطباع  
على الواحد منّا أن يدرك الآتي:

ثونك عما شاهدوه من أحداث، قد لا يكونون شاهدوا كل  
كمن رأى سيارة مصدومة، ورأى رجال الإسعاف ينقلون  
إنه قد لا يكون رأى السيارة وقت اصطدامها، وقد لا يعرف  
سير عليها آنذاك، كما لا يعرف مدى خطورة إصابة السائق..  
يقولون - تكره الفراغ؛ ومن ثم فإن معظم الناس حين يروون  
لء الفراغات الموجودة في معرفتهم بالحادث من خلال التخمين  
وخبراتهم السابقة، أي يقومون بعمل اجتهادي، والمجتهد يخطئ  
ليس من المنهجية أن نتلقى بالتسليم كل ما نسمعه ممن رأى

الاستمراري في إحدى الطائرات مع أن الطائرة لم تفلح حتى تهبط!  
ون الأحداث فعلاً، لكن لا يعرفون في أحيان كثيرة أسبابها، وهذا  
م؛ ومن ثم فإنهم يبدأون بالظن والتخمين، لكن الذين يروون عنهم  
فينقلون الخبر الأصلي مشفوعاً بذكر أسبابه من غير تحرز ولا تحوط،  
لذي شاهد الحدث يعرف أسبابه على وجه اليقين، ولا يكون الأمر

البراءة والطيبة، وجاء عصر المكر والخداع والتخطيط الملوّن بألف  
سيق تجد أنك تدخل على موقع من مواقع ( الإنترنت ) المشهورة،  
بار، وتقرأ التعليقات، وتظن لأول وهلة أنها تعبر عن آراء وتوجهات  
ي تحكي الحراك الثقافي والفكري في المجتمع، ولا شك أن شيئاً مما  
هناك شيء آخر، هو أن عددًا من المعلقين هم عبارة عن موظفين  
صغرى، مهمتهم كتابة تعليقات تخدم سياسات الدول التي يعملون  
الانتقادات الموجهة إليها، وحين تكون مهمة شخص الدفاع عن  
هذا يعني أن عليك أن تتوقع منه أن يخلط الصواب بالخطأ، والحق  
بالوهم... وبعد ذلك تأتي إدارة الموقع لتقول: إن ( ٧٠ ٪ ) من  
الموقع يرون كذا، أو يتوقعون كذا، أو يرفضون كذا...!

الآن فصاعدًا من التحرز والتدقيق ومحاولة قراءة ما بين السطور  
قبل اتخاذ أي موقف أو إصدار أي حكم، واللّه - تعالى - أمرنا  
لا نظلم أحدًا، وحتى لا نتهور في اتخاذ القرارات، وحشنا على  
بقين.. في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله - سبحانه - :-

لك عن ذلك كله». وخلاصة ذلك ما ذكره ابن كثير بقوله:  
ل بلا علم؛ بل بالظن الذي هو التوهم والخيال<sup>(١)</sup>. إن من  
م أن يتثبت ويتأني حيال ما يسمع، وحيال ما يريد اعتقاده  
يريد قوله والتعبير عنه، وذلك حتى تبرأ ذمته أمام الله تعالى.  
سباب الحقيقة:

عرض على الوقوف عند حدودها سمة من سمات المسلم  
ركن رئيس في منهج الباحث والمفكر، والذي يحدث أحياناً  
ل جيد، لكن نخاف من قولها، وهذا الخوف قد يكون منبعه  
مارخة؛ ولذا فإن قولها سيكون مؤذياً، وقد يكون منبعه الخوف  
ح الناس ليست فقط مادية أو مالية؛ فقد تكون معنوية تتعلق  
بذنا فيهم، وقد نخاف من الجهر بالحقيقة؛ لأنها قد تُفهم على  
ر السائد أو بسبب جهل من يتعلق الأمر بهم... وبما أن الدعاة  
ين هم من البشر، فإنهم يتعرضون لكثير من المواقف المحرجة،  
لحشية لن أذكر كل أشكال الحرج التي يتعرضون لها، ولكن  
تتين:

ب ظروف حرجة جداً، لا تسمح له بأن يقول الحق، فإن عليه  
ث لا يُنسب لساكت قول، لكن من المهم أن ندرك أن التزام

إليهم، أو لقد سيء لديهم، ويجد نوعاً من الصعوبة في قول ذلك  
بدماء، فما يكون منه إلا أن يتوسل إلى ذلك بمديحهم وقول أمور  
أي يخالف ما يعتقد، ويمتدح ما هو في نظره خاطئ، وهذا  
لا يجوز للمرء أن يغش الناس ويكرّس الأخطاء في حياتهم من أجل  
طمة يوجهها إليهم، وإذا نظرنا إلى الواقع، فإننا نجد أن الذين ينجون  
نسأل الله العافية والسلامة.

ارات:

لله - تعالى - في الخلق اتجاه الحياة نحو المزيد من التوسع؛ حيث  
خيارات وإمكانات وعطاءات أكثر وأكبر، وهذا بسبب التقدم  
مظهر من مظاهره، ومن هنا فإننا كلما خطونا خطوة إلى الأمام  
البدائل والخيارات، وفي إمكانك أن تلمح ذلك اليوم في وسائط  
الرئيسية والفرعية؛ حيث نجد أنها تنمو على نحو مذهل، ليجد المرء  
ن أمره، لكن مشكلة الإنسان أنه يتعامل مع الأمور المادية بطريقة  
مع الأمور المعنوية، كما أن الوعي على صعيدها يتقدم على نحو  
كثيرين منا ينزعون إلى التضييق والتحجير في تصوراتهم للحلول  
ارات العمل وإمكانات التقدم. إن كثيرين من شبابنا يفكرون وفق  
ذاك، إنهم لا يرون إلا خيارين كثيراً ما يكونان عسيرين، وتكون  
رار في التأزم وبطء التقدم، وسأكتفي بمثالين اثنين لتوضيح ما أريده:  
المال هو عصب الحياة، وإذا لم يكن لديك مال، فلن تستطيع أن  
حركة على صعيد الإنتاج والتطوير تحتاج إلى المال، وهذا يعني أن من

وغير دفيعه، ولا بد من التحلي عن كثير منها.

وصف بأنه عصر المادة، إلا أنه أيضًا عصر الإنسان؛ حيث لم يمرت فيه البراعة الشخصية لأبنائها مثل هذا الزمان؛ إذ إن القيادة والذكاء والجدية وحسن التنظيم والمبادرة - قيمة عليا تظل مشرعة في كل مكان من الأرض أمام الذين يملكون قدرًا

ممكن هناك ارتباط قوي بين العلم والفكر وتحصيل الرزق، واليوم نائف، ويحصلون على أعظم الجوائز، كما أن الأفكار ممثلة في لى جانب دراسات الجدوى - تباع اليوم بأرقام فلكية، وأعرف اموا بشيء من ذلك، وكوّنوا من ورائها ثروة انطلقوا منها إلى

ب في قطاع الأعمال القول: إن الأساس في إقامة أي مشروع الذكية والإدارة الممتازة، وهما عنصران بشريان لا علاقة لهما لدى جهة فإن التمويل يأتيها من كل مكان.

وحسن التعامل مع الناس باب من أبواب الرزق، وكم من رص عظيمة بسبب حسن خلقه واطمئنان النفوس إليه.

المرء حين يكون في وظيفة متواضعة أو عمل صغير، ويؤدي فإن ذلك كثيرًا ما يرشحه لعمل أكبر ومنصب أعلى.

الإسلامي وانضواء شعوبه تحت راية واحدة حلم يداعب أخيلة



الأقل - غير ممكن، وخيار التمزيق والتسبب الذي نعيش فيه اليوم.  
من السير الطويل في الطرق المسدودة، كما يحذر من الصيرورة إلى  
الناس الممكن في طلب المستحيل، ومن هنا فإن علينا أن نخرج من  
حالة العمل على توسيع دائرة الخيارات؛ فنحن إذا كنا لا نستطيع  
أن نستطيع أن لا نعيش ممزقين، ونستطيع تحقيق نوع من التعاون  
من ميزات الوحدة، وذلك مثل:

ت إسلامية على مستوى الأقاليم مثل ( مجلس التعاون الخليجي )  
( )؛ حيث يمكن لكل ثلاث أو أربع دول إسلامية متجاورة ومتقاربة  
تؤسس اتحادًا يربطها ببعضها، ويسعى إلى إحداث التكامل بين

نشطة وفاعلة بين الصناع والتجار وأصحاب المهن العلمية مثل:  
المهندسين والكيميائيين المسلمين...

ت الاقتصادية بين الدول الإسلامية على أساس التكامل، وتوسيع  
وإقامة السوق الإسلامية المشتركة.

والاتحادات القائمة مثل: رابطة العالم الإسلامي، والمؤتمر الإسلامي،  
...ية...

ف في جمع كلمة المسلمين ممكن وقليل التكاليف مع أنه عظيم المنافع.  
نار:

من الدلائل التي تشير إلى أنه ليس هناك علاقة طردية بين صحة

واحد، هو أن التيار العريض في المجتمع لا يكون هو الأدق والأكثر اهتمامًا بالوصول إلى الحقيقة الصلبة؛ وهذه بعض الشان:

انتشار الإغراء بالمزيد من الانتشار؛ فالناس يظنون أن كلام فلان رائعًا ومفيدًا وجذابًا لما اجتمع الألو ف من الناس من أجل يُغري المزيد من الناس بالحضور، وهم بدورهم يُغرون آخرين في شخص تأثرًا بما يسمع - فإنه يحرض آخرين من القريين منه أنه أو أشد، وحين يصفق أحد المستمعين، فإنه يشجع البقية على صفق كل من حولك، وتمتنع عن ذلك تلمح في موقفك نوعًا من لروح الجماعية المحيطة بك؛ ولهذا فإنك تصفق ولو كنت غير تتسع بعض الظواهر من غير أسباب منطقية ومسلم بها.

يمكن أن يسمى (تأثير الهالة)؛ حيث إن من اكتسب شهرة ارزًا في العلم أو الرياضة أو الثراء... يجعل الناس يعتقدون أنه ل شيء، كما أن اختياراته في شؤونه الخاصة تكون مسددة الدعاية والإعلان بتغذية ذلك حين تقول: إن معجون الأسنان هم الفلاني، وإن العطر الفلاني هو ما يفضله الرياضي الفلاني... ينطوي على نوع من الخداع، وقد سمعت رؤساء وزارات شؤون عامة كثيرة، فلم أجد لديهم العمق الذي لدى هم أصبحوا من الشخصيات العامة، فإنهم يُدعون إلى حضور

يسه، وهناك كتب مشهورة جداً، لكن لا يستحق ما لقيته من  
ت لأسباب غير موضوعية، أو لأنها تتصل بأهواء الناس وغرائزهم،  
اب بسبب تعاطف الناس مع مؤلفه ومساندتهم له في ظلم وقع  
أن أشير في هذا السياق إلى أن الكاتب الممتاز قد يكتب كتاباً غير  
مغموراً قد يكتب كتاباً جيداً، وأذكر أنني دخلت ذات يوم مع  
حدى المكتبات، ووقعت عيوننا على كتاب لكاتب مشهور جداً،  
ختين من الكتاب، فقلت لصاحبي لنشر الآن نسخة واحدة، فإذا  
جيد اشترينا منه نسخة أخرى، وبعد مدة نظر صاحبي في الكتاب،  
فلم نجد فيه أي شيء قيّم يتناسب مع شهرة صاحبه! لهذا فإن من  
ه الأمور على النحو الصحيح.

انتشار تصيب في بعض الأحيان المشاهير أنفسهم ببعض الأضرار  
؛ حيث إن الشخص حين يكتسب سمعة عالية جداً، ويصبح  
عالمي أو إقليمي، يميل إلى الاعتداد بنفسه، ويجد من اليسير عليه  
ر كثيرة، إنه لا يبالي بملاحظات القريين منه، ولا يقيم أي وزن  
من هم أقل شهرة، إنه يتصرف على أنه محور ومقياس وأصل...  
حياته على النحو الذي يفعله من يضع أصبعه على الأرض، ويقول:  
وعلى من لا يوافق أن يقيس! وما أبلغ قول الله - تعالى - في هذا  
﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ [العلق: ٦، ٧]. المفكر الحق  
من شرور الشهرة، ويحاول أن يحمل كل الانتقادات الموجهة إليه  
ويدرك أن المسألة قبل أن تكون تقديراً للآخرين هي تلمس لما هو

ة متغلغلة في ثقافات الأمم وبوصفه أحد مكونات طرائقهم في  
ت سريعة في ذلك:

حيز امتلاك المرء لمجموعة من المفاهيم والقيم، التي تدفعه إلى  
ف المواقف المنسجمة معها، بعيداً عن النظر إلى الواقع، وبعيداً  
وبة الناجزة، إن التحيز إلى جماعته يوافق تلك الجماعة في  
في قضاياها بقطع النظر عن الحشيات والمعلومات الجديدة، وإن  
ثبات ينفر منها، ويتعصب ضدها بقطع النظر عن الحالة التي هي  
حيز ينظر من منظور قديم وضيق؛ ولهذا فهو لا يرى التفاصيل،  
بدة، مما يتصل بمن يتحيز ضدهم، وقد كانت العرب في الجاهلية  
ا بعيداً عن مسألة العدل والحق على ما صوّره الشنفرى في لاميته

تودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جرّ يُخذل

هم حين يندبهم في النابات على ما قال برهانا

في حمى قومه، فيدافعون عنه دون النظر إلى كونه معتدياً  
ر البيت الثاني قوة حمية القبائل الكريمة في الجاهلية وقوة  
لفائها؛ حيث يستجيبون لندائهم، ويهبطون للقتال معهم دون أي  
هم أو سبب الشدة التي هم فيها، وهذه صورة عظيمة من صور  
ج بها الحياة الجاهلية، ولا ينبغي أن يُظن أن هذا قد أصبح في

بِأَوْقَابٍ لِّتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١﴾  
الله - جل شأنه - يوضح لعباده عددًا من الأمور، منها: أنهم في  
أب واحد وأم واحدة، وهذا يعني أن الأصل فيهم التساوي  
كثيرة، ومنها أن توزع البشر على شعوب وقبائل ينبغي أن يكون  
معارف والتكامل، وليس التعانف والتقاتل، ومنها أن معيار التفاضل  
الحسب والنسب والمال والمكان والزمان والقوة والجمال والكثرة...  
صلاح والاستقامة.

لكريم على مسألة مقاومة التحيز في آيات أخرى في السورة نفسها  
- : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا  
سَاءَ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَبِ بِيُسُ  
الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] . إنها دعوة  
للمذات وللآخرين، ودعوة للانفتاح على الواقع والبحث في  
الذين يمكن أن نستهزئ بهم بسبب قصور في نسب أو مال أو  
مضاد للتحيز، والذي يقوم دائمًا على تعظيم الذات والتهوين من  
وفق نظرة متحجرة ومقفلة ومعزولة. يقول القرطبي في تعليقه على  
سورة فينبغي ألا يجترأ أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه  
همة في بدنه أو غير لبق في محادثته؛ فلعله أخلص ضميرًا وأنقى قلبًا  
صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله ﴿١﴾؛ هذه هي أصولنا،  
ث، والواقع يخبرنا بأنه حين تتراجع درجة الثقيف، وتنخفض

يئة الفلانية جاهلة، والسعبد الفلاني كسول، واجتماعه الفلانية  
الفلاني بخلاء... وذوو البشرة السمراء فوضويون وأغبياء،  
قاء حاقدون... تصنيفات كثيرة تفتقر إلى الموضوعية، ولا تستند  
... ونحن نعرف أن الله - تعالى - لم يخص شعبًا أو قبيلة  
لكن المريض بالتحيز يكون مصابًا بعمى الألوان، فهو لا يرى  
مع أن بينهما في الواقع مئات الألوف من الألوان. التمنيظ كما  
م الظالم؛ إذ يكفي للمتحيّز أن يلمس البخل أو اللؤم لدى خمسة  
في يعمم ذلك على الألوف والملايين، وقد أغلظ رسول الله ﷺ  
حين قال: « إن أعظم الناس عند الله فرية لرجل هاجى رجلًا فهجا  
انتفى من أبيه وزنى أمه » <sup>(١)</sup>، في الأوساط الإسلامية فشا داء  
سلفي، وهذا إخواني، وهذا تبليغي، وهذا إسلامي ليبرالي، وهذا  
ذا الاتجاه موالٍ لكذا... كلام كثير يقال في المجالس، ويردّده  
، وحين ندقق فيه نجد أن معظمه بُني على ظنون وأوهام ومجازفات؛  
الناس أنهم مسؤولون عن كل ما يقولون، ونسوا ما يترتب على  
ون أحيانًا كبيرًا، والمرجو تراجع ذلك مع تقدم الوعي.

كون للمرء مبادئ وقيم يلتزم بها في المنشط والمكره، ويدافع عنها  
ويحاول نشرها وتعميمها قدر الاستطاعة، وقد لا نعرف قيمة

نسان نفسه مدافعًا عن فكرة أو مشروع أو قبيلة أو جماعة  
ي يهدده على نحو مؤكد هو الوقوع في التعصب لما يدافع عنه،  
إياه، وقد رأيت كثيرًا من الشباب المسلم المنتمي إلى جماعات  
إسلامية لديها الكثير من الخير، ورأيت لديهم تزايدت كثيرة في  
هم، وهم كثيرًا ما يكونون ضحية لأولئك الذين يقودونهم،  
ة في ذكر فضائل جماعتهم وسيلة لزيادة ارتباط أولئك الشباب  
ي بهم تسمع عن كثير من الإنجازات الوهمية، وتسمع عن كثير  
ة، وهذا ينافي القيام بالحق والعدل، وينافي ما تقتضيه المنهجية  
اد في مديح للذات.

الذي يهدد نقاء الدور النضالي هو ذم المنافسين وإبراز عيوبهم، وهذا  
دامت الأشياء لا تظهر ولا تتميز إلا بأضدادها فإن المتعصب لشيء  
الكثير من ميزاته من غير أن يذكر معائب ما يغايره ويضاده، وهذا  
يزيد في مشكلة التصنيف؛ لأن الطرف الآخر سيرد بمثل ذلك.  
: الإعراض عن النقد الذاتي؛ لأن الهم الذي يسيطر على المناضل  
ذلك يتطلب إبراز محاسنها لا نقدها، وهذا شيء خطير جدًا في  
الفكرة حين تُحرّم من النقد تذبل وتراجع؛ إذ إن النقد هو ماء

هو التضايق من الناصحين وضعف الاستعداد لتلقي الملاحظات  
ما وهناك، وأذكر أن أحدهم وجه نقدًا وجهيًا لبعض السلوكيات  
ت، فما كان ممن سمع النقد إلا أن وضع أصبعيه في أذنيه وأنشد



حيز لمبادئه وقيمه العليا، ومن الفطري أن يتحيز لقومه وتاريخه؛  
نما عن مقاومة التحيز للعادات والتقاليد وما هو من قبيل الذوقيات  
ث عن التحيز المشتغل على الظلم للآخرين وبخسهم أشياءهم؛  
علاج يخفف من حدته إلى حد بعيد، وهو يقوم على الآتي:  
مهم للتخفيف من التحيز؛ فالناس المنغلقون على أنفسهم يظنون  
صيلها ما هي إلا نموذج عظيم لما ينبغي أن يكون عليه حال  
يوسعون دائرة الخصوصية، وينفرون على نحو جماعي من كل  
ليه، ويظهر لك ذلك جلياً حين تنظر إلى طريقة تفكير إنسان  
عن المدن وبين إنسان سافر إلى عشرين دولة، إن هذا الأخير  
يخالف جماعته في أمور كثيرة، وأن لدى أولئك المخالفين أشياء  
الاهتمام والتعلم.

لية مهمة جداً في مقاومة التحيز؛ فإذا كان لدينا - مثلاً -  
عملان في ساحة واحدة، وبينهما تنافس وتحارب، فإن من المفيد  
يبحث عن الكمال أن يقوم بمقارنة مرجعية تفضيلية، تساعد على  
جماعة، ويمكن أن تكون المفردات الآتية أساساً لتلك المقارنة:  
ي الجماعة من اهتمام بالاستقامة السلوكية ومدى تمتع أفرادها  
وى والورع بالمعايير الفقهية.

شعبي والسمعة الحسنة لكل منهما.

أفراد الجماعتين عن رشد القيادات وتحقيق الأهداف.



لأحيان لا نستطيع أن نتصور حجم الإساءة للآخرين إلا إذا وضعنا  
أو إذا تفحصنا فيما يسيء إلينا من أقوالهم وتصرفاتهم، نحن نكره  
من شأننا، ومن يزاحمنا على موارد محدودة، ومن ينتقدنا بلهجة  
لدرجة التحيز لدينا إذا ابتعدنا عن هذه الأمور قدر الاستطاعة،  
ﷺ: « فمن أحب أن يُزحزح عن النار، ويدخل الجنة؛ فلتأته منيته  
م الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه » (١).

الخرافة:

لناس أن عصر الخرافة قد انتهى بحلول العلوم المتقدمة، ويظنون  
ثة على الأمم لاعتقادهم أن الرشد والتفكير الراشد هو الأصل لدى  
طنين غير صحيح؛ فالبنية العقلية العميقة لبني الإنسان هي بنية  
رافة سابقة في وجودها على كل من العلم والفلسفة معًا؛ وذلك  
شوقًا عارمًا لتفسير الأشياء المحيطة به، كما أن لديه نزوعًا قويًا  
قبل، وحين لا يجد من العلم ما يكفي لهذا وذاك فإنه يجد في  
وسائل مثالية لبلوغ ما يصبو إليه. الخرافات عبارة عن أفكار  
لا تستند إلى تسويغ عقلي، ولا تخضع لأي مفهوم علمي لا على  
على مستوى التطبيق؛ ومن ثم فإنها بعيدة عن المنطق وعن  
طبع الذي يتمتع بتفكير منطقي عالٍ أن يعصم ذهنه من الخرافة إذا  
جيدًا من العلم؛ وذلك لأن المنطق هو القواعد الفكرية التي نستنتج

الثقة بالنفس؛ لأن من شأن هذه الأمور أن تنأى بالإنسان عن المنهج لمشكلاته، مما يجعله يلجأ إلى الخرافة بوصفها أداة جيدة

جودة، وربما يتاح لها المزيد من الانتشار اليوم بسبب وسائل الراحة للصغير والكبير، ونحن نلاحظ أن كثيرًا من الناس يُشيعون (رني) الكثير من الكلام حول فوائد بعض الأغذية والمشروبات. الكثير من الكلام حول ما يسمونه براهين على قدرة الخالق - ونأخبارًا عن مصائب حلت بفلان لتركه الصلاة وبفلان لشربه على ثبوته دليل، ولا يصمد للتمحيص والتجريب.

في التعامل مع كثير مما ذكرته تقوم على مفهوم العالمية؛ حيث إلا إذا كان عالميًا، فإذا جاء من يدعي خصائص وفوائد لطعام، دون أن ينال موافقة علم الطب، فإن علينا أن نقف من إلى أن يُثبت الطب ادعاءه، أو ينفيه. في بعض الأحيان تحاك غير اجتماعية، أو قل: لأسباب صحية تحديدًا، وعلى سبيل المثال صاب باضطراب في الإدراك، فيرى ويشعر أن في بابه من يحاول يسمع بعض الأصوات، ويأخذ في تحليلها، ويكون كل ذلك غير إذا حدث ورم في منطقة البصر في الدماغ، فإن المريض يرى أمامه، وليس هناك في الحقيقة حية ولا ثعبان، فإذا كان المريض لم، فإن كلامه يؤخذ على أنه حقيقة راسخة، ويشعر من سمعه

زوده الباري ﷻ بخصائص شخصية، هي بمثابة النواة لشخصيته  
الطفل ينشأ في أسرة، وهذه الأسرة لها مساحة عامة، ومن خلال  
الكثير من العادات، وتدل بعض الدراسات على أن ( ٥٠ ٪ ) من  
شخصية الطفل يتم رسمه في السنة الأولى، وحين يبلغ السادسة  
من تلك الخطوط قد تم رسمه بالفعل؛ ولهذا فإن سطوة المجتمع في  
هائلة، وفي دراسة ذات معنى أجريت على ( البراغيث )؛ حيث  
وضع عدد كبير من البراغيث في زجاجة كبيرة، وأحكم إغلاقها،  
الغطاء عن فوهة الزجاجة، وظهر شيء مذهل، هو أن ( البراغيث )  
يرانها فوق مستوى الزجاجة حتى الصغار الذين ولدوا فيها تعلموا  
صاروا يطرون مثلها! هكذا المجتمع يرسم لنا كثيرًا من ملامح  
فكير؛ ومن ثم فإن الطامح إلى أن يكون مفكرًا حرًا ومبدعًا محتاج  
العديد من عادات التفكير التي وجد نفسه مقيدًا بها، ومن تلك

### التفكير:

عالمنا الإسلامي، ما بين أميين وما بين متعلمين تعلمًا ضعيفًا،  
تفكير المنهجي، وبيئاتنا على نحو عام بعيدة عن تقاليد البحث  
من معرفة قواعد التفكير القويم؛ ولهذا فإننا نلاحظ وجود سرعة  
أحكام والتقييمات، ونلاحظ هذا جليًا في أحاديث المجالس؛ حيث

شيء  
ة جدًا ولو خيّر كثيرًا من الناس بين أن يجلس الواحد منهم  
أمر، وبين أن يمشي تلك الساعة لاختار المشي؛ ومن هنا فإن  
هم مسألة من المسائل سنة أو سنين دون أن يجلسوا ساعة  
الأسلوب الأمثل للتعامل معها، ولا شك أن هناك فرقًا كبيرًا  
الأمور وبين التفكير فيه على نحو جاد.

الكثير من القدرات التي تساعدنا في التغلب على الصعاب، ومن  
ة على التخيل والمقارنة، وفهم الفروق بين الكائنات والأفكار،  
طقية في إقناع الآخرين... إن من المؤسف أن مدارسنا وجامعاتنا  
ي هذا الشأن، كما أن أسلوب التعليم يركّز على التلقين والحفظ،  
لهذا فإن ما سميناه الكسل الذهني أو البطالة الذهنية هو الأصل  
منه يحتاج إلى إرادة ومجاهدة وتمرين.

اف بالخطأ:

جد صعوبة بالغة في أن يتحدث عن الأمور التي أخطأ فيها،  
وعات التي فشل في إنجازها؛ وذلك يعود إلى أن مجتمعاتنا لم  
يلًا ما تمارس فضيلة الاعتراف بالقصور، وأرى أن على العلماء  
خاصة في هذا؛ إذ إن من واجبهم أن يتحدثوا عن بعض نقاط  
وعات التي لم يتمكنوا من إنضاجها أو بلورة رؤية جيدة فيها،  
د إلى أننا نظن أن اعترافنا بالأخطاء يحطّ من قدرنا في عيون  
الناس كلهم يشعرون بضعف الفهم لبعض الأمور، ويقعون في

سان في بيئة غير متعلمة، ويكون قد حصل على قدر حسن من يقارن نفسه بمن حوله، ويرى أنه متقدم عليهم، وهذا يجعله يتوانى بابعة الاطلاع، ويأخذ في التحدث بأمر كثيرة، وتصدر عنه آراء المطلوب ممن يتحدث في التاريخ أو الفقه أو الطب - مثلاً - بمن حوله من العامة، إنما عليه أن يقارن نفسه بأهل الاختصاص حاضر أو يكتب فيه؛ لأن الحكم الصحيح على ما يقوم به محصور في العطاء والجرأة في طرح الرأي من الأمور المحمودة، لكن مع من الذخيرة العلمية المرموقة.

الديد:

الناس تشعر أنك أمام أشخاص لديهم قدر كبير من الممانعة ضد أمام عقليات عسيرة الصقل، وهذا يعود في الأساس إلى البيئات التي مشكلة عويصة وكثيراً ما تعرقل التقدم الذهني لدى شعوب بأكملها... المفكرين أنهم يملكون القدرة على الاستجابة للمعلومات الجديدة، تنهم للحياة والأشياء على أنها مشروع تحت التأسيس، أو أشبه بطبخة، ولهذا فإنهم لا يرون مشكلة في إضافة شيء من الماء أو الملح... يتهج بالرأي الذي يخالف رأيه؛ لأنه سوف يساعده على إثراء ما في طرحه العام، وهذا ما ينبغي علينا جميعاً أن نتعلمه، ونفرح به.

التشاؤم والتفاؤل:

بل بفطرته إلى التفاؤل والمرح، ولديه طيبة وحسن طوية وسماحة،

منهم من يناديهم بـ "لوح من السوداء" أي المراج، ومنهم من  
والظالم، ما جعلهم محبطين ويائسين من كل شيء، ومنهم من  
بسوءات المجتمع وأهل المشكلات من أبنائه، مثل: الشرطة  
تسرين... وهؤلاء جميعاً معرضون لأن يُفَرطوا في التشاؤم تجاه  
كثيرين منهم يُصدرون الأحكام القاسية، ويُنتجون الأفكار التي  
الأخلاقية والحضارية في المجتمع. المطلوب من هؤلاء وأولئك  
عام قابل دائماً لأن يُقرأ بطرق مختلفة، وقابل لأن يجد فيه كل  
معتقداته؛ ولهذا فإن الإحصاءات والأرقام والتقارير المتخصصة  
ماعدنا على إصدار الأحكام الرشيدة، وينبغي أن نحتكم إليها  
ك.

#### معتقد:

ظاهرة كبرى مثل التدين أو البطالة أو تخلف التعليم أو التواصل  
.. فهذا يعني أننا نحاول فهم ظاهرة مركبة ومعقدة وذات أبعاد  
ينبغي أن نحذره هو أن نعمل على بحث أي ظاهرة من الظواهر  
لمختلفة، فلا نحصل إلا على فهم مبسّر، وعلى سبيل المثال فإن  
العملة على إنها أمركة، أو على أنها حركة استعمارية جديدة،  
مأم الدول الفقيرة لاكتساب خبرات تقنية وتجارية كبرى...  
أزمة التعليم لدينا على أنها أزمة مناهج أو ضعف معلمين  
و ضعف متابعة من الأهالي لأولادهم... هذا كله عبارة عن  
ولهذا فإن كثيرين منا لا يخرجون من وراء بحثها والتفكير فيها

والخلق الرفيع مع أنهم لم ينشأوا في أسر ممتازة، ولا تعلموا في

في بعض الأحيان على خلق يلتزم به على نحو جيد بسبب بعض  
فالصبر قد يفقد صبره حين يُحمّل عبئًا ثقیلاً يفوق طاقته،  
حين يدخل في موازنة يرى فيها أن الكذب أهون الشرّين وأخف.  
يكذب المرء بسبب مروره في لحظة ضعف ثم يتوب بعد ذلك،  
يح أن رسول الله ﷺ كان إذا اطّلع على أحد من أهل بيته كذب  
ضًا عنه حتى يحدث توبة.

قتصادية تأثير كبير في الالتزام الأخلاقي؛ فحين يكون الناس في  
مقر والعوز، فإنهم يستسهلون الخروج على قيمهم ومبادئهم؛ ولهذا  
من يقبل الرشوة، ومن يُظهر نوعًا من الأنانية الشديدة... في  
وأحيانًا تضعف الأخلاق لدى الناس بسبب اتساع طموحاتهم  
شاهد لدى الذين يقبلون الرشوة وهم أثرياء، وأحيانًا يسلك الناس  
ة بسبب ضعف النظم الرقابية؛ فالزجاج المكسور يشجع اللصوص

من الواحد بالأخلاق ليس على درجة واحدة؛ إذ إن الأسرة قد  
ي خلق بعينه أكثر بكثير من تركيزها على باقي الأخلاق، وعلى  
ناس في أكثر الأحيان يشدّدون في تربية أبنائهم على أن يكونوا  
يحذرونهم مما ينظر إليه المجتمع على أنه معيب، ويتساهلون فيما  
رام، ونحن نعرف أن النساء في الريف الإسلامي - مثلاً - كنّ



صلاة مع أن شأن الصلاة أعظم؛ كما أشرت من قبل.

ناس بمنظوماتهم الأخلاقية، وسيظل فهمهم لدرجة أهمية كل منقوصًا؛ ومن ثم فإن الوعي بها يتسع ويتعمق بحسب الحالة التي فيها، أي أن الظروف المعيشية وتطور العلاقات الاجتماعية من معارف وخبرات... هو الذي يتحكم في كثير من أشكال الحياة. سبيل المثال؛ فإن سكان العواصم والمدن الكبرى - على نحو متنامٍ أكبر بما يمكن أن نسميه أخلاقيات العمل وأخلاق التمدن، بحاز والجدية والمثابرة، والمرونة والاستيعاب للآخرين واللف في فهم إلى جانب هذا يتذوقون طعم الرفاهية، ويخبرون أشكالا. يؤدي إلى أن يُعيدوا ترتيب أولوياتهم في سلمهم الأخلاقي.

فقرى والأحياء العشوائية التي تنشأ على تخوم المدن، فإن الناس مثل: الاعتزاز بالحسب والنسب والانتماء إلى القبيلة والحرص على أنفسهم اللجوء إلى القوة في حل مشكلاتهم، كما أنهم على التعايش مع عذابات الحياة، وهم إلى جانب هذا سريعي التحديات، واللياقة الاجتماعية والسمعة الحسنة بالإضافة إلى الشهامة والنجدة والغيرة على العرض... شأن وأي شأن في

توضح لنا أن مسألة ( الالتزام الأخلاقي ) مسألة معقدة غاية تحسين مستوى التزام الناس بالأخلاق الفاضلة لا يتم بمجرد





ن تميزنا يكمن فيما أمدنا به من خيال وذاكرة وقدرة على  
ح جدًا أن اكتشفنا للحقائق يتم دائمًا على سبيل التدرج، وإن  
شكالتها قائم على هذه الحقيقة. إن لدى كل واحد منا العديد  
أنها جيدة ونافعة لو تم توظيفها بشكل جيد، وتمضي الأيام  
نكارنا في المجالس طانين أنها تتأبى على الذبول مهما تقادمت،  
م التي يقع فيها كثير من الناس. إن الفكرة سواء أكانت نظرية  
ة تنفيذية تظل غير مكتملة، أي تظل قابلة لنوع من التشذيب  
لم نقم بتطويرها فربما تتحول مع الأيام إلى شيء يشبه تخيلات  
عد ذلك تذهب أدراج الرياح، وما ذلك إلا لأن الشيء الذي  
عليّ؛ فالمشاهدة تُثبت أن الواحد منا حين يُنضج فكرة من  
ة أو طرحًا لمشروع من المشروعات، لا يكون وحيدًا في ذلك؛  
ت أو مئات العقول الذكية التي تفكر في مثل ما فكر فيه، وربما  
وإذا استطاع بعض أولئك وضع أفكارهم في سياق تنفيذي،  
س فرصة عظيمة لتطويرها بما يكتشفونه من نقاط قوتها ومن  
ها، وتتحول الأفكار التي يتكرر طرحها على نحو جامد إلى  
يخ، لتؤثر على أن صاحبها بات يفكر لزمان سابق على زمانه.  
كر بعض الأفكار والأساليب التي تساعد على تنمية الأفكار مع  
ه المحاولة ووعورة الطرق المفضية إلى نجاحها، لكن ليس أمامي  
أقارب ذلك عبر النقاط الآتية:

نظّم المسؤولون عن الأمن في بلد من البلدان زيادة حوادث القتل  
م السابقة، فإن الأفكار التي يتم التركيز عليها في العلاج غالبًا  
من السجون والتشدد أكثر في حصول المواطنين على رخص حمل  
عمل المحاكم، وهذه كلها حلول مطلوبة، لكنها غير كافية، وإن  
ة لانتشار هذه الجريمة يكمن في فهم الأسباب على نحو تفصيلي  
العلاج، وعلى صعيد الأسباب يكون علينا البحث في دوافع تلك  
مة تلك الدوافع في حدوثها ثابتة أو متطورة؟ وإذا كانت متطورة،  
صارت أشد تأثيرًا؟ نحن نعرف أن الإنسان يقتل أحيانًا بسبب  
، وغفلته عن ربه وعن العقوبة العظيمة التي رتبها على قتل العمد،  
صحية بسبب اضطراب عمل الغدد أو تغير في كيمياء الدماغ،  
العرض والشرف والسمعة، كالذي يقتل أخته للتخلص من العار  
ة بسبب انحرافها السلوكي، وقد يقتل لدوافع اقتصادية كما يفعل  
الحالات، كما أنه قد يقتل لأسباب بيئية تربوية، كما هو الشأن  
شر فيها القتل بدافع الثأر وعلى مبدأ أخذ الحق باليد... وهكذا فإن  
سباب الجريمة هو تطوير لأفكارنا حول واقع الجريمة وامتداداتها  
الاقتصادية... هذا بالطبع يجعلنا نوسّع أفكارنا حول آليات علاج  
ن علينا آنذاك أن نراعي في التركيز على الآليات ما أفضى إليه  
ب، فإذا وجدنا أن ضعف الإيمان - مثلاً - هو الدافع الأقوى في  
عملنا على معالجة الفراغ الروحي والفكري لدى الشباب بتركيز  
لى وهكذا...

من قبيل الاهتمامات الثقافية العليا، كما هو الحال في القراءه؛  
سلمين لن يحتفلوا بالكتاب، ولن يداوموا على فعل القراءة حتى  
ي، وهذا السبب ثانوي في نظري.

سات على أن نحوًا من ( ٧٠٪ ) من القراء في أوروبا يقرأون  
لص من الفراغ، وربما صلح هذا لأن يكون مؤشرًا إلى وضع  
عالم، وعلى هذا فإن الكتاب اليوم يجد أكثر من منافس على  
بات، الإنترنت، الجوال، الألعاب الإلكترونية... ومن هنا فإن  
عية حضارية يقرأ فيها كثير من الناس من أجل الفائدة والارتقاء

ل في العالم الإسلامي مبتوت الصلة بالمعرفة والدرس، أي أن  
لدينا لا يحتاجون في أداء أعمالهم اليومية إلى القراءة والبحث  
( ٤٠٪ ) من الوظائف في الغرب يحتاج إلى ذلك، وهذا أدى  
ن الفرد المسلم وبين الكتاب، أضف إلى هذا أن معظم الأعمال  
جهد عضلي كبير، وهذا يستنفد الطاقة الروحية والبدنية لدى  
ساء شعروا أن ما يحتاجون إليه هو الراحة، وليس القراءة، وهذا  
ر وضعية العزوف عن القراءة سيظل متوقفًا على تحسن الوضع  
العمل الوظيفي لدى المسلمين.

لدينا يقوم في معظم الأحيان على الحفظ والتلقين، وهذا يشكل  
ح والذاكرة ويحرم الطالب من الرجوع إلى المصادر والمراجع،  
كره التعليم والفرار من القراءة، ويتحول هذا بالنسبة إلى كثير

المسلمة أمية أو حديثة عهد بامية أو نصف مثقفة، وهذه لا تبذل  
س حب القراءة في نفوس الصغار وجعلها إحدى العادات لديهم.  
وسيع للقول في المشكلات والظواهر يتيح لنا فتح آفاق جديدة في  
ويشكل في الأساس تطويراً لرؤيتنا لها، وإذا استطعنا تنويع ذلك  
ما ذكرناه فإننا سنشعر فعلاً أننا حصلنا على ثروة من الأفكار

## طقي والثقافي؛

حانه - فطر العباد على طبائع وتطلعات وحاجات واستجابات  
ي العام متباينة على مستوى الجزئيات والتفاصيل، وهذا يمكننا من  
م جيدة حول علاقة الإنسان بأخيه الإنسان وعلاقته بما هو ثابت  
متطور، وإن الكشف عن تلك العلاقة قد يتم أحياناً عن طريق فهم  
رابط الثقافي بين ظاهرة وظاهرة وبين وضعية ووضعية، وهذا كله  
علها أكثر رحابة، وسأشرح ما أريده من خلال مثال يتعلق بتأثير  
الرجل بالمرأة، وذلك عبر التداعيات الآتية:

ث تقدم حضاري وعمراني فإن وعي الناس يتفتح على كثير من  
يدؤون بتذوق طعم الرفاهية، ويخبرون المشاعر التي يفيضها التمتع

رجل بحاجة ماسة إلى زوجة تعيش معه تحت سقف واحد،  
لذي ذاق طعم الرفاهية يتطلع إلى أن يترفع بالمرأة من خلال درجة

مرأة نفوذًا جديدًا، لم يكن لها من قبل، لهذا يمكن القول: إنه  
سُلم الحضارة والمدنية أكثر، اتسع المجال الحيوي للمرأة، وصار  
حياة الأسرة، من هنا نلاحظ أن نفوذ المرأة في المدينة أقوى من  
نفوذها في القرية أقوى من نفوذها في البادية، وما ذاك إلا لأن  
ضروريات لا حياة كماليات. وأنت تلمس من صدى قوة نفوذ  
تعدد الزوجات فيها وضآلته إذا ما قورن بما في القرى والبادي.  
هذا إلى أن روح الحضارة، أنثى، وكلما ازداد الناس تحضرًا  
أنثوية، ويظهر ذلك في لطف الخطاب ونعومة التعامل والخضوع  
و الوعي التصالحي.

من أشد ما يُفتن به الرجال فإن المزيد من التقدم الحضاري يفتح  
د من خبرات الإغراء للرجال، وهذا يعني المزيد من الابتلاءات

إغراءات الإغراء النساء تحتاج إلى تيسير الزواج وخفض تكاليفه وإلى  
والاستعداد لمزيد من الصبر والمجاهدة.

والارتباطات الثقافية والمنطقية يحتاج إلى الخيال الخصب مع  
البشرية وطبائع الأشياء، لكن ما نحصل عليه آنذاك من صقل

ديماً: « تكلموا تعرفوا » أي أننا حين نلتقي بشخص لا نعرفه فإن  
عن عقله وعلمه هو كلامه، وهذا صحيح إلى حد بعيد، وفي  
المفهوم من خلال توسيع ملاحظتنا للشأن الإنساني والبحث عن  
نا على معرفة ذلك الشأن، ومن هنا فإن في إمكان المرء أن يقول:  
سم تعرفونهم؛ حيث إن سيارة المرء تشير إلى الحالة المادية لصاحبها؛  
لثري جداً قد يساوي ثمن مئة سيارة من أمثال سيارة رجل فقير  
رة الشخص قد تدل على مدى ما عند صاحبها من حرص على  
حظ أن بعض الناس يركبون سيارات قدرة من الداخل والخارج،  
بالغنى والفقر.

ن سكتناهم تعرفونهم؛ إذ إن من المؤسف أنك تجد في معظم المدن  
باء للفقراء، وتجد في أحياء الأغنياء توفراً واضحاً للخدمات، كما  
ارح، وأقل ازدحاماً، كما أن فيها درجة عالية من الأمن، وليست  
ء، وهذا يجعل الساكنين في أحياء الأغنياء أكثر تفاعلاً من الفقراء،  
بات أرقى من اهتمامات الفقراء.

بابهم تعرفونهم، فأهل الصلاح يحرصون على مصاحبة أشباههم  
وأهل الفساد يبحثون أيضاً عن أشباههم من الفاسدين؛ ولهذا قيل  
لي من تصاحب أقل لك من أنت .»

باتهم تعرفونهم؛ فالكبار الكبار في الرؤية الإسلامية الرشيدة هم  
فروج من دوائر اهتمامهم بأنفسهم ومصالحهم ومتعهم الشخصية

لهم يبتغون عن شيء يدارون به الشراع السباح حتى تموتهم  
من شيء يقتلون به الوقت.

حد أن ينتهي إلى المقولة التالية: كل سلوك للإنسان، وكل شيء  
من الوجوه، يدل على شيء من شخصيته وجوهره، ويرسل لنا  
ما خفي علينا من شأنه واتجاهاته.

على شيء مهم، هو أن كل ما نتحدث به عن الإنسان يظل غالباً  
منا مرنة وغير حاسمة.

نوع التنفيذ:

وع - مثلاً - فإننا نستخدم الخيال والمعلومات المتوفرة، وما في  
عن مشروعات مماثلة قائمة، لكن لا بد من القول: إن أفكارنا  
لا تكون أبداً كاملة؛ لأن لكل مشروع مكاناً وزماناً مختلفين  
مشروع آخر، ويتبع هذا الاختلاف اختلاف في كثير من  
تفكير نظري يصطدم بتمنّع المواد التي سيتم استخدامها في  
هنا كل ما يستخدم في التنفيذ حتى العمال والمدراء، فهم لن  
حب فكرة المشروع، كما أنه تطراً حوادث كثيرة تعطي لبعض  
مل وزناً غير محسوب، كما لو كان المشروع عبارة عن إقامة  
تحويل الشارع الذي أقيمت فيه إلى طريق دولي يضج بالحركة  
إيجابية المتوقعة، كما أن فتح محطة وقود ممتازة إلى جانبها قد  
إلى إغلاقها. حين يُقدم شاب على الزواج، فإنه يرسم في ذهنه



ما فيها من إيجابيات ونقاط قوة، مما يدفعنا إلى التركيز عليها وتنميتها.  
ما فيها من عيوب ونقاط ضعف تحتاج إلى تلافي ومعالجة.  
على تكاليف التنفيذ، والتي قد تكون أكثر أو أقل مما كنا نظن.  
ما لدينا من قدرة وموهبة في قيادة المشروعات وتحقيق الأحلام.  
الواقع الذي نطبق فيه الفكرة؛ حيث إننا لن نعرف التسهيلات  
الموجودة في ذلك الواقع إلا إذا بدأنا بالحركة فيه.

فكرة ونحوّلها إلى مشروع نستطيع أن نقارن مشروعنا بمشروع  
من خلال المقارنة نطلع على الكثير من الميزات والكثير من أوجه  
الفرق بين فكرتين، فهي في الغالب غير مفيدة، وأنت ترى أن كل  
مبدأ على مبادئ وحقوق عظيمة ورائعة، ولا تبدو الفوارق الحقيقية  
وضوح الدول التي تملك أروع الدساتير.

ذلك هي: أنه ما من فكرة تدخل حيز التنفيذ إلا وتعرض لشيء  
تفاعلها مع التجربة الإنسانية واحتكاكها بالواقع، وفي هذا إنضاج

### فكار والمشروعات السببية:

من أعظم مصادر تكوين الوعي البشري، ومن أعظم مصادر التعليم،  
جداً لمن كان لديه مشروع أن ينظر إلى الأفكار والمشروعات  
بمحاول إثراء أفكاره وخططه من خلال رؤية المفارقات والإضافات  
سائل التنفيذ وأسلوب العمل بين المشروعين... وفلسفة جدوى

مات والمعطيات المتوفرة حول النجاح في إدارة شركة؟

الآتي:

لنشأة مسؤول عن سلامتها ونجاح خططها وكذلك رب الأسرة.  
ل في نشاطه اليومي مع بشر، هم موظفون وعمال ومستخدمون،  
مع بشر.

سرة ومدير المؤسسة محتاج إلى شيء من الحزم في إدارته وإلى  
ديب.

تحتاج إلى الوضوح في تعامله مع موظفيه وكذلك رب الأسرة.  
حاجة إلى أن يفهم أكثر وأكثر خلفيات موظفيه وحاجاتهم،

طالب بتحقيق العدل بين موظفيه، ومثله رب الأسرة.  
حاجة إلى استخدام المكافأة والعقوبة في عمله، وكذلك رب

وفر لنا خريطة لطبيعة المعلومات والأفكار التي سنقتبسها من  
قائد أسرة يريد أن ينجح.

الشباب الخيّر يريدون القيام بحملة دعوية وإعلانية ضخمة  
في ( في نفوس الناس وفي سلوكهم؛ ولديهم بعض الأفكار في  
دائية، ويخشون من الفشل ثم الإحباط، أخذوا يبحثون عن

حملة المرور على استجابة الناس وتفاعلهم، مما يعني أن القائمين  
كدين من النتائج التي يمكن أن يحصلوا عليها، وهكذا كل الجهد  
ل في ظل نظم مفتوحة، وهذا يعني أن الجميع في حاجة إلى  
إقناع الناس بأهمية الخضوع لقواعد السير واستخدام المركبات  
وهدف حملة الصدق أيضًا إقناع الناس بقول الحقيقة واحترامها  
ب والخداع.

مداف من الحملتين تتمحور حول تغيير قناعات الناس وسلوكياتهم،  
ثمين عليهما أن يستخدموا وسائل إعلانية ودعائية واحدة، والتفاوت  
الإيضاح.

واجه حملة المرور هو وضع تصور للوصول إلى كل أولئك الذين  
خل حدود الدولة، وقد كان إيصال الرسالة إلى الأميين وأولئك  
المناطق النائية - محور ذلك التحدي. والمشكلة نفسها ستواجه  
الصدق.

لا يخضعون لقواعد المرور لأنهم يجدون تأويلًا شخصيًا يظنون  
فهذا يتجاوز السرعة القانونية؛ لأنه إن لم يفعل ذلك لم يسمحوا  
احتبار، وفي هذا ضرر بالغ عليه، وهذا لا يشد حزام الأمان؛ لأنه  
المدينة ببطء، وبالتالي فإنه لا خطورة من عدم شدة، وثالث يمشي  
لوقت قبل الفجر، وليس هناك من يمكن أن يجده في وجهه...

بمسئولتهم من الناس، ربي هذه المرور بغير حسيهم...  
على حملة المرور أنهم في حاجة ماسة إلى أصدقاء وحلفاء من  
ول إلى أكبر عدد ممكن من الناس، ومن أجل مراقبة سائقي  
مخالفاتهم، وإن القائمين على حملة الصدق في حاجة إلى  
ين حتى يتمكنوا من مخاطبة أكبر عدد ممكن من الأشخاص.  
على حملة المرور أن حملة واحدة لا تكفي، وأنه لا بد من حملات  
سنتين، والظاهر أن القائمين على حملة الصدق في حاجة إلى  
ينسون، ويغفلون، ولا بد من استمرار تذكيرهم وتوعيتهم.  
على الحملة المرورية والقائمون على حملة الصدق يحاولون  
فإنهم جميعًا معرضون للوقوع في سلبية المبالغة، أي تجاوز  
الصدق وفضائل الالتزام بقواعد المرور وتعليمات رجاله،  
في سلبات الكذب وفي سلبات خرق القواعد المرورية، وإنَّ  
معرض لها الدعاة والمتحدثون ومندوبو المبيعات والمسؤولون  
الإعلانية.. حين ندرك وجوه الشبه بين مشروعنا والمشروعات  
بع حينئذ أن نثري مشروعنا بخبرات عظيمة، ونستطيع أن  
رقة، وما يشكل خصوصية لمشروعنا، وكلُّ من هذا وذاك  
لنجاح.

د. وواتق:

م في مضمونه حديث في أساليبه وأديياته؛ فالناس منذ قديم

تقديم لأي فكرة تُطرح إلى حين انتهاء جلسة العصف الذهني.  
حرية التفكير وتحفيز الحاضرين على أن يقولوا كل ما لديهم، وكل  
، ولو كان تافهاً جداً أو كان مستحيل التطبيق.

بل كيف؛ حيث إن المطلوب من المشتركين في العصف، هو أن  
يمكن من الأفكار والمقترحات وليس أفضل شيء منها.

ط في أي فكرة تطرح أن تكون جديدة كل الجدة؛ فقد تكون  
رئي لفكرة موجودة أو تكون تفرعاً عليها.

وير فكرة عن طريق العصف الذهني من الآتي:

مكرة التي لدينا واضحة تمام الوضوح ومحددة على نحو جيد،  
ن والتردد من تعريفها بأكثر من تعريف وصياغتها بأكثر من طريقة؛  
لدينا هي المحور التي سيدور حولها العصف الذهني، وعلى  
ان العصف يدور حول تساؤل يقول: « هل أمتنا في حالة تقدم  
لمطلوب أولاً هو تعريف التقدم والتأخر، وإلا فإن نتائج العصف  
سلبية للآمال.

صف الذهني يساعد فعلاً على توليد وتطوير الأفكار، وإذا رجعنا  
عدداً كبيراً جداً من الأفكار والمشروعات التي طورها أشخاص،  
فريّة نادرة أو تفوق ذهني خارق، لكن كانوا يملكون ثقة عظيمة  
بأية قوية لذواتهم. إن النظرة الإيجابية للذات تحرّض الدماغ على

سرع.

ن في العادة من التفرد بالرأي، ويشعرون ضمناً بمحاسن التوافق  
ضاد تماماً لجوهر العصف الذهني؛ لأن الهدف من العصف  
ر قدر ممكن من الأفكار المختلفة، ولهذا قلنا: إننا لن ننظر إلى  
جلسات العصف، فهئنا الأساسي هو الحصول على أكبر عدد  
لحظات العلمية.

ضوب التام للأفكار والتي تم تسجيلها على نحو واضح، تبدأ  
التأمل فيها، ويمكن تقسيم الأفكار إلى الآتي:

ويمكن الاستفادة منها عملياً في تطوير المشروع الذي كان مدار

، ولكنها غير قابلة للتطبيق المباشر؛ لأنها تحتاج إلى مزيد من  
مكانيات غير متوفرة الآن، أو لأن الاستفادة منها تتوقف على

عملية وغير قابلة للتطبيق؛ فيتم إلغاؤها وسحبها.

يمكن - كما أشرنا - أن يقوم به شخص بمفرده، ويمكن أن  
الأفراد، وهذا أحسن، لكن إذا زاد عدد الأفراد على عشرين،  
هم إلى مجموعات متعددة.

\*\*\*

أي تخصصية لتكوين المعاصر بناءً من التيسير؛ بحيث إن من المعروف أن  
يقة تلقائية وغير مقصودة؛ فالباحث من خلال جهوده الحثيثة في  
بحث والكتابة والحوار يصبح مع الأيام صاحب رؤية خاصة وطرح  
أي آلية واضحة ومقننة للوصول إلى ذلك، لكنني أردت من خلال  
بأسلوب غير مباشر وعي طلاب العلم والمتخصصين المبتدئين في  
إلى أهمية ما يشتغل عليه المفكرون من العناية بإصلاح الشأن العام  
ليل أسبابه والعمل على الارتقاء به، وأنا أعرف أنك حين تحاول شق  
صحراء مترامية الأطراف، فإنك قد تكون قمت بمغامرة كبيرة  
نتائجها، والتي قد تكون مخيبة للآمال، وقد تشعر أنك قمت بعمل  
يال، هذا وارد وهذا وارد؛ ولهذا فإن كثيرًا من عباراتي كان يتشع  
كما أنني أثرت الطرح اللين والبعيد عن الجزم والصرامة، وهذا مع  
وكانه غير واثق من منهجيته، فإنه سيظل أفضل من القطع وتقديم  
باضحة ونهائية، وقد حاولت تبسيط أسلوب المعالجة إلى أقصى حد  
من الأمثلة، وحاولت أن أوصل الفكرة الواحدة بأساليب متعددة،  
كين أكبر شريحة من القراء من الانتفاع بهذا الكتاب.

العديد من العناوين حاولت تأسيس منهج لفهم الواقع يقوم على ما  
بائع الأشياء ومعرفة بسنن الله في الخلق، وذلك من أجل تخفيف  
مات في محاولتنا الدائبة لفهم ما يجري من حولنا، ومن أجل سند  
لتي لا تخلو منها حالة من الحالات أو وضعية من الوضعيات...





معرفة في عصر المعلومات، تأليف: كيت دفلين، تعريب شادن اليافي،  
بيكان، طبعة أولى، عام ( ١٤٢٢ هـ ) .

كير، تأليف: إدوارد دي بونو، ترجمة: د. عادل ياسين وزميله،  
التقدم العلمي، طبعة أولى، عام ( ١٩٨٩ م ) .

مي، د. فؤاد زكريا، الكويت، سلسلة عالم المعرفة ( ١٩٧٨ م ) .  
تقييم والتفكير الأعوج، تأليف: روبرت هـ. ثاولس، ترجمة: حسن  
، سلسلة عالم المعرفة، عام ( ١٩٧٩ م ) .

دي، د. فادية الفقير، مقال منشور على ( الإنترنت ) .

ة عقل، تأليف: د. يوسف قطامي، نشر ديبو نو للطباعة والنشر،  
عام ( ٢٠٠٥ م ) .

فة، بقلم: محمد الهاللي، مقال منشور على ( الإنترنت ) .

كيف يفكر، بقلم: نبيل حاجي نائف، مقال منشور على ( الإنترنت ) .  
كرية في البذور والجذور والثمر، د. عبد الوهاب المسيري، القاهرة،  
ة ثانية، عام ( ٢٠٠٦ م ) .

طريق التفكير النقدي، بقلم: فهد بن راشد المطيري، مقال منشور

لتفكير الموضوعي، تأليف: د. عبد الكريم بكار، دمشق، دار القلم،  
عام ( ٢٠٠٨ م ) .

م: جمال الخطيب، جريدة الحوار المتمدن الإلكترونية، العدد ( ٢٢١٩ ) ،

محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، طبعة أولى، عام (١٩٩٩ م).

؟ بقلم: د. خالص جلي، مقال منشور على ( الإنترنت ).

بين الحداثة وما بعدها، بقلم: د. توفيق شومر، مقال منشور على

اجتماعي، بقلم: محمد محفوظ، مقال منشور على ( الإنترنت ).

\*\*\*

لم حل المشكلات المعرفية والعلمية التي تصادفه في عمله، أمّا  
ير المزيد من المشكلات، ويسلّط الضوء على التناقضات في الحياة

منزلة ثقافية وعقلية، هي فوق منزلة المثقف، ودون منزلة الفيلسوف.  
مفكر، وليس كل مفكر فيلسوفًا، وكل مفكر مثقف، وليس كل

نسان يعود في النهاية إلى استقامته الشخصية، ومدى مساهمته في

بالمطاف ليس شيئًا أكثر من اهتماماته ومهامه وأخلاقه.  
وانين، وبلورة الرؤى، والتقاط الملاحظات الذكية، هو أعظم ما يشير

قدراً هائلاً من الأمل المتجدد في العثور على شيء جديد.

ين يبدأ بالبحث، وينتهي بالتفاني في البحث.

يج وحده، وهو يختلف مع غيره؛ لأنه في الأصل يختلف مع نفسه.

و مستمر، بسبب ما يقوم به من كسر متواصل لاتساقه الفكري.

والمفكر أن يجهر للناس بقناعاته القديمة، ويخفي في نفسه قناعاته

وال قليلة ودقيقة.

ت المثقف فجه ومضحكة، حين يمنح العصمة لغير معصوم،  
عن أخطائه ومواقفه.

كرة نعمة عظمى من الله - تعالى - إلا أن على المرء أن يحذر  
وتها، فهي بطبيعتها تنفر من التفكير والإبداع.

ك بيننا وبين ما نحفظ مسافة، كما يفعل الذي يحاول الاغتراف  
ثيابه.

ماضي والحاضر، والانطلاق من أن معظم ما لدينا من معارف  
محيص؛ هو الذي يجعل علاقتنا بالذاكرة متوازنة.

بالفكر الانفتاح على النصوص والتراث عامة، وعلى المشتغلين  
بقوله المفكرون.

لجزئي إلى الكلي، ومن ضيق النظرة إلى اتساع الرؤية - من أهم  
والمفكر.

ما يشتغل عليه المفكر، إنه يعبر تخصصه الضيق إلى فضاء المعرفة  
يته للواقع من أجل استشراف المستقبل.

بمعرفة بالسنن أن يقف على ما لا يمكن لصاحب التخصص  
تخصصه.

شيء في ضوء الكلي، ويدرك أنه ليس هناك مجال مستقل بنفسه.

منجزات أسلافه؛ ولهذا فإن كل المفكرين العظماء يترددون  
م يسلكون طريقًا لم يسلكه أحد من قبل.

وتقاليده وديانته وجنسه، تسهم في تشكيل دماغه عبر ما ترسمه  
ما تُحدثه من وصلات بين خلاياه.

الإنسان نفسه، وأجهد دماغه بالتفكير زاد عدد الوصلات الدماغية،  
فع درجة الذكاء، وتحسين الاستيعاب؛ والعكس صحيح.  
في مداولات العلماء حول الدماغ لا نملك إلا أن نقول: « هذا خلق  
خلق الذين من دونه ».

هو العقل؛ لكنه العضو الذي يتواصل العقل من خلاله مع الجسم  
: أول وثانٍ، وإن العقل الأول هو مجموعة الإمكانيات والاستعدادات،  
ي زوّد بها الخالق - سبحانه - بني البشر.

من الناس الأسوياء يملك مبادئ أساسية، تتمحور حولها البنية الفكرية  
تلف باختلاف اللغات، والأديان، والأعراق...

ة عن مفاهيم ومبادئ وأفكار، وملاحظات، ومشاعر تتشكل على  
ات الحواس: السمع والبصر والذوق والشم واللمس.

ف الوجود على سبيل التدرج؛ فالطفل يظن أن كل السوائل التي  
أن تُشرب، ثم يكتشف مع الأيام أن الأمر ليس كذلك، وهذا  
الحياة.

الإنسان من خلال بناء المزيد من البنى الفكرية، ومع كل بنية فكرية  
لمحاور ومشابك جديدة داخل الدماغ، وبذلك ينمو الدماغ مع الفكر.

جودين؛ وجودًا ماديًا ووجودًا معنويًا، وهو الصورة الذهنية التي  
سيء في عقولنا، وكثيرًا ما يفتقران إلى التطابق.

بل ويخيّم الجمود العقلي؛ فإن كثيرًا من الناس يتلقون الآراء  
على أنها حقائق قطعية ثابتة.

لفهم في موضوع صغير يساعدنا على فهمه بشكل جيد، لكنه  
المعرفي لذلك الموضوع، وفهم العلاقات التي تربطه بالموضوعات

عن الحقيقة إذا لم نعرف بها عند العثور عليها، ولا معنى  
بئر من أوضاعنا بما يتلاءم معها.

والحقيقة تحرّنا من أشياء كثيرة؛ منها الوهم، وخداع النفس،  
وما هي عليه.

شرط أن نقبل تحريرها وإلا زادتنا خيالًا واضطرابًا.

لناس إلى الحقيقة الواحدة من آفاق متباينة؛ فعلى حين ينظر  
( الحبة السوداء ) من أفق النصوص الواردة فيهما، ينظر إليهما  
تحليل الكيمائي لهما.

الحقيقة من زمان إلى زمان؛ فقد كان الناس في الماضي ينظرون  
على أنها شر خالص؛ أما نحن فننظر إليها على أنها محرّض  
مراجعة.

تتلون بحسب المنظور الذي نراها من خلاله، فإن علينا أن

شعبية العريضة إلى شرح خطير.

يكون عميقًا؛ لأنه عبارة عن تحريك للهموم والمواجع ليس أكثر.  
من ناطق، وحين لا يجد من يتحدث معه، يتحدث مع نفسه،  
لون من التفكير.

هو عمل ذهني، لتجاوز ما هو معلوم إلى ما ليس معلومًا.  
لا يكون من غير معلومات جيدة يستخلص منها الدماغ ما نحتاج  
سبه عملية خض اللبن، فإذا كان اللبن منزوع الدسم، فإن الخض لن

ي نبيه في عقولنا لشخص أو حالة... هو عبارة عن صورة نرى من  
خص وتلك الحالة، أو هو خريطة معرفية نزع منها تحكي الواقع.  
ح الأسئلة مهمًا؛ لأنه يفتح طرقًا جديدة للتبصر، ويكسر الاتساق

يشبه حجرًا كبيرًا نلقيه في بحيرة صغيرة، والسؤال الصغير يشبه  
في بحيرة كبيرة.

أحدًا قد يفجر من المعرفة ما لا يفجره ألف جواب.

د منا يحمل فوق كتفيه منجمًا لأفكارٍ لا تقدّر بثمن.

، والأحاسيس بالفوضى والغموض، وبالقليل من المنطقية والعقلانية.

ي مكن الذات الإنسانية، والإنسان لا يكون إنسانًا على مقدار

لوجهة الخاطئة.

الوجدان في السلوك والتعلم والمحكمة العقلية أكبر بكثير من  
عر.

من نفسها ما يشبه الغشاء أمام عيون العقل.

ع من الجمود العاطفي تكون أفكارهم أقرب إلى التصلب.

لرح والسعادة يساعده على الوصول إلى أفكار جديدة ومبدعة.

تملك القدر المطلوب من المعلومات نتعاطف حيث لا ينبغي  
لا ينبغي النفور.

الله على عباده من الإيمان والعقل والقدرة على الكلام.

نظام نام على نحو مستمر؛ ولهذا فإن سيطرتنا على اللغة هي  
للة.

نوعًا من العنف ضدنا، ونحن أسرى لنظمها وإملاءاتها.

بالرموز والدلالات، وسوف نجد أنفسنا تائهين فيه ما لم نعمل  
لتعبير والفهم لدينا على نحو مستمر.

يحي لنا فرصة الوعي بأفكارنا، ولولاها لكان ما في عقولنا عبارة  
ت الغامضة.

وترابطها تجعل استدعاءها من الذاكرة أيسر وأسهل.

هوره الأولى يرى العالم من حوله، لكنه لا يبصر شيئًا، وحين



للمرء أن يدرك حجم الحرية في بلده، وهو لا يعرف بالضبط ماذا

عبارة عن رموز ومواصفات فنية لقدرتنا على النطق؛ وإنما هي طريقة نظر إلى الحياة والأحياء.

لفرد نوعًا من الحوار مع عقل المجموع، وحين تكون الإمكانيات لدى الأفراد؛ فإن ذلك الحوار يضعف إلى حد العدم، وتكون معي.

الذين بين وعي الفرد ووعي مجتمعه أكبر، كانت الفرصة للتغير

الجمعي - على نحو عام - من السطحية، كما أنه ينفر من والتفلسف.

ماهم الأكثر سهولة وسطحية هي التي تحظى بنصيب الأسد من

بار العريض في المجتمع هو التيار الأكثر علمًا أو نضجًا أو صلاحًا. سيطرة الجهل على المجتمع أشد، كان خوف العقل الجمعي من ي عنه أقوى وأعظم.

اتي هو الذي منح الفرصة للغرب كي يسيطر علينا، ولا سبيل السيطرة إلا بالتخلص من ذلك القصور.

ميزة المفكر في قدرته على بلورة وعي فردي مستقل يمكنه من  
مع الموقف الاجتماعي العام.

نضون على نحو خفي أي مقارنة لمجتمعاتنا بالمجتمعات الأخرى  
أمة، ونرى ما لا يسرّ.

- تعالى - ومع النفس يملي علينا أن لا نلتف على المعطيات  
ضخ لها، ونستفيد منها.

د زود كل واحد منا بإمكانات كافية؛ ليدع في موقف من  
مجالات الحياة.

حدث عن الإبداع على أنه شيء موجود وقابل للتنمية والتعزيز.  
بشيء غير مسبوق، والوصول إلى نتائج لم تكن معروفة من

ما في إضفاء لمسة وفاء على علاقته بأحد أصدقائه، وقد تبدع  
بيتها، وقد يبدع متحدث في تقديم محاضرة أخاذة...

الإبداع الأساسية في نقد الأفكار القديمة، وفي تقديم أفكار  
للمعلومات السابقة في أمر من الأمور...

ان مفكرًا بمعنى الكلمة إلا إذا كان فعلاً يمارس الإبداع في  
المفاهيم الجديدة.

الذاتية شرط لوضع القدم على طريق المبدعين.

مة الناس.

الناس يسألون: من أين نبدأ وأين الطريق؟ أما الرواد والمبدعون  
أمامهم طريق، فخطاهم هي التي ستشق الطريق.

عتاد العقل، وإن الذكي جدًا قد يبدو أشبه بالأبله حين يفكر في  
أي خلفية عنه.

لا يبدعون بسبب افتقارهم للرجبة في ذلك، وبسبب الأوهام التي  
ما يمكن أن يبدعوا فيه.

ع هو طريق العمل والجهد، وهو طريق طويل، وغير ممهّد؛ ولهذا  
لب دوافع قوية جدًا.

الذين يحلّق بهما المرء في سماء الإبداع؛ هما الاهتمام والتركيز.  
ن الأوضاع الحضارية للعالم اليوم وبين ما كان قبل مئة سنة كبير  
نائة ملايين المبدعين الكبار والصغار.

يئة والجامعة المتآكلة تخفّض سقف الطموحات لدى طلابها؛ بل  
ق القنوط.

لا يحتاج إلى تحصيل علمي رفيع بقدر حاجته إلى أن يتجاوز المرء  
والنجاح في الاختبارات إلى ممارسة الفهم، والتحليل، والاستنباط،  
لمعرفة.

ب مفروش بالأشواك، لكن نهايته سعيدة وعظيمة ومثمرة.

ل على توضيح الفارق بين ما عليه الأشياء الآن، وبين ما ينبغي مستقبل.

كثيرة تؤدي إلى وجود مفارقات بين التنظير والتطبيق، وإنؤولية الناقد.

ر من الأفكار، والملاحظات حول الواقع وجذوره، وما يمكن أن ما يفرق بين العالم والمفكر.

ر الجراح حين يحاول استئصال المفاهيم الخاطئة في المجتمع؛ وهو لبرهنة على أنه يملك مساحة فاصلة بين وعيه ووعي مجتمعه.

ب الإنسان أهميته من أهمية الأشياء التي يقوم بإنجازها.

حياء روح المبادرة بالخطوات الصغيرة؛ وذلك لمعرفة بأن زمان يرون مسيرة التاريخ قد انتهى.

معظم الناس لدينا يميلون إلى إطلاق العبارات النقدية دون تدقيق دة على البرهنة على صحتها.

تعالى - على ما أنعم به من وعي متفوق وذكاء متوقد، كثيرًا الزيف والانحراف في الحياة العامة.

لية؛ هو ذلك الشعور النبيل الذي يحوّل الصغير إلى كبير.

على الظواهر الكبرى دائماً ظنية، ويشوبها شيء من النقص.  
أنه ليس هناك أي علاقة بين الموروث الجيني للإنسان، وبين الرغبة  
بعود الأمر إلى التربية.

سبباً ثانوياً للإعراض عن القراءة؛ حيث تدل الشواهد الكثيرة على  
بأنهم لا يقرؤون.

كيف نسأل، فإننا سنجد في التساؤل محفزاً قوياً للخيال كي يعثر  
على.

لأنهم متصلان بنقص المعرفة أو نقص الإدراك، أو بهما معاً.  
بفات قابلة للتحيّز والانتقاء.

أن ما يكتب في الصحف اليومية كثيراً ما يعبر عن أهواء وتحيزات،  
أنه سيصبح يوماً ما جزءاً من تاريخ هذه الأمة!

الثقافي الذي يعيش فيه أكبر عائق أمام نضج الوعي وممارسة النقد.  
ي مهما كان يقظاً وعظيماً إلا أنه في النهاية يظل - إلى حد ما -  
أمة والمجتمع والثقافة.

الثقافة والتاريخ، لكن الحمية من غير نقد ومراجعة قد تفضي  
المزيد من الانحطاط.

ساطعة، هي أنه حين تشتد رغباتنا، وتتسع دوائر مصالحنا، يخفت

كثيراً ما يكون هو الطريق إلى الإخفاق في فهمها.  
نعكاساً للقيم السائدة؛ فهناك من الأسباب المعقدة والكثيرة  
فعل ما لا يعتقدونه.

نعكاساً للقيم؛ لأن وضوح القيم في أذهان الناس يختلف من  
ما أن مخاوف الناس، ومطامعهم، وشهواتهم تحول دون ذلك.  
الصعبة التي يمر بها كثير من الناس تجعل وعيهم يتجه إلى البحث  
يشكل ضغطاً كبيراً على تمسكهم بالمبادئ التي يؤمنون بها.  
يحمل كثيراً من الناس على ارتكاب المحظورات واستساغة

ن التغيير؛ لأنه موحش ومكلف.  
لأن التقنية التي نستخدمها تتغير.  
تغير بجمود الشكل؛ فالمضمون يتغير باستمرار.  
م بالاحتمية في القضايا الإنسانية والاجتماعية، إلا أن معظم الناس  
التي تطراً على حياتهم الشخصية.

ين يعيشون في الأحياء الراقية واسعة؛ لأن ما هم فيه من رخاء

ون إلى سماع أخبار الكوارث، وحالات الفقر الشديد، وأخبار

طائلة أن تصبح مصدر إفساد لأولئك الذين لم يتعبوا في تكوينها.  
يأء جدًا لا يعرفون عن أولادهم الكثير، فهم يقضون جزءًا من  
أموال، والجزء الباقي في الاستمتاع بها.

ميرة يكون الترابط داخل الأسرة على أشده، وكثيرًا ما يتدخل  
ة وكبيرة من شؤون أولادهم، وهذا لا يساعد على نموّ الوازع

يأء نحو الإهانة أشد بسبب ظروفهم وموقعهم الاجتماعي.

ر من الناس إلى تكوين الثروات من أجل تحسين قدرتهم على  
ولكن من أجل تقوية شعورهم بالقوة والنفوذ.

ضراوة للفقر الشديد تكمن في شعور الفقير بأنه محاصر، وأنه  
أم بأي عمل عظيم.

وة تمنح صاحبها الشعور بالقوة والمكنة؛ فإنها أيضًا تجعله مهددًا  
لطغيان.

ر صاحبه بالعيش على هامش الحياة، وبالقبول بالمهانة والذلة.  
كثيرًا ما يسبب لأصحابه نوعًا من الشعور بالسأم والملل، ما لم تكن  
امتلات بالإيمان.

الجسد التكرار والتشابه.

ل بمفرده تلبية الأشواق الروحية للإنسان.

ساد المالي والإداري في بلد تذبل المشاعر الوطنية، ويكف الناس  
ت عملاقة بسبب الافتقار إلى الشعور بالأمان.

ب من الشعوب القواسم المشتركة التي تجعل منه شعبًا واحدًا،  
وز الطائفية والقبلية بوصفها محاور لاستقطاب جديد.

ظام والقانون يشعر الناس بشعورين مهمين: الشعور بالتفائل،

ساد يصبح اختلاق الفضائل، والحديث عن الإنجازات الوهمية  
إق لكثير من الناس!

تتلف في أن الدول الصناعية الكبرى هي التي تشكّل روح العصر

تلقني والسلوكي يجعل المرء صغيرًا في عين نفسه، وفي عين  
ن يعمل لديها.

ش العصر يحرم الإنسان من التعرف على إمكاناته الكامنة؛ وذلك  
ظهر إلا من خلال الانخراط في ممارسة الأعمال الراقية والمعقدة.  
ن استنفار الذات للقيام بالأعمال الجليلة يعرضها لمخاطر الانحدار  
الكامنة في النفوس.

اس في سلم الحضارة، علت الحياة العامة مسحة أنثوية.  
ه في الخلق أن الرجال لا يستطيعون الترفه بالنساء إلا إذا رفّههن.



تقدم حضاري وتقني أكبر، وجدنا أنفسنا نتعامل أكثر فأكثر مع  
ممة.

مدار حكم على ظاهرة كبرى؛ فإن المنهجية الصحيحة تتطلب  
إلى أجزاء عديدة، ثم نصدر على كل جزء الحكم الذي يناسبه.  
( ما بعد الحداثة ) بكثير من الناس نحو التحلل والإباحية من  
عدم وجود معايير أخلاقية ثابتة ومتفق عليها.

مفكرو ما بعد الحداثة أن يرونا رجلاً في التسعين حافظ على  
سارية وقوة وحيوية لما كان في العشرين؟ أم أن اتجاه الإنسان نحو  
ت به السن هو أحد المطلقات التي لا يختلف فيها اثنان؟

هو مُطلق، وما هو ثابت، ونحن نستدل بالمتغيرات والنسبيات على  
كما نستدل بالثوابت والمطلقات على النسبيات والمتغيرات.

له - تعالى - في الخلق أن القضايا الكلية تتسم في معظم الأحيان  
ما تتسم الجزئيات والفرعيات بسمة النسبية.

لضروريات يدمر الاهتمامات الثقافية العليا.

لى المرء يومان لم يتذوق فيهما الطعام، ويجد نفسه على وشك  
عد الطاقة ولا الشهية لنظم قصيدة أو التأمل في لوحة فنية.

الإنسان من غرائزه الأساسية شديد الوطأة عليه، لكن درجة شدة  
مخصص إلى آخر.

عاطفي يشكل عبئاً ثقيلاً على النفس وعلى الجملة العصبية؛ ولهذا

حتى كمالٍ نرغبه؛ وذلك بسبب محدودية إمكانياتنا.

صورات تفسد الأحكام المبنية عليها.

مدخل لتحسين الوعي.

الزوايا التي ننظر منها للأشياء مختلفة، يجعلنا مستعدين لإعذار  
ف.

ببينة اقترابنا من الحق والحقيقة؛ فإن ذلك يحفزنا على رفع شعار:  
الجميع).

يحاول أن يُضفي المنطقية على أعرافه وتقاليده، كما يحاول أن  
شروعة بطرق مشروعة وغير مشروعة.

مال والسمو والتفوق، أمور لا تبلغ منتهاها أبدًا، وليس لها سقف  
نه.

سياسات، وليس النقص في الإمكانيات هو السبب الجوهرى في  
بين الغرب.

ب شعب عن الوحي الذي يمنح المطلقات والثوابت، تصبح النسبية

و بالأخلاق إلى نسبة جيدة من الأشخاص الأخلاقيين، وإلى نظم  
أعراف وتقاليد صارمة تجاه التحلل الأخلاقي.

ريقة سهلة وسريعة يمكن أيضًا أن ينتقض بطريقة سهلة وسريعة.

والحلول المتوسطة؛ وصارت الحروب الأهلية هي الشيء السائد.

ح يساعد الناس على حل مشكلاتهم، والوصول إلى حقوقهم من

هو العلم، وعقل بلا معرفة جيدة أشبه بجندي أعزل.

باء وميالة إلى التطرف، والعقل المثقف هو الذي يقيها في الحيز

لراء إلى النقطة التي يجب أن يقف عندها الانفعال.

عظيم للتفكير المضطرب، والمواقف المتناقضة.

للخوف من الأشياء لا يقول بالخوف منها عقل ولا نقل.

عن صراع بين المبادئ، والظروف الصعبة.

طوة التقاليد كبيرة، ويكون الضبط الاجتماعي عاليًا، فإن لنا أن  
ر كثير من الناس خيرًا من باطنهم.

لجهل، وتعم القلاقل الداخلية؛ فإن الوعي بالمضامين الحضارية

لا يشبع من المال مهما كثر؛ فإن من طبيعة الدولة ألا ترتوي من  
امتد، وتضخم.

دولة أقل حجمًا أمكن ضبطها، واختيار العناصر الصالحة للعمل  
صيح.

انية وطبائع الأشياء.

العقل أشبه بالزيت الذي نزود به السراج، حتى يضيء، ويقوم

إلى أن يكون مفكراً يُعتدُّ به يحتاج إلى أن يغذي عقله بالمعارف  
للتجدة.

لذا، سيكون الوقود الأهم للتقدم ليس المواد الطبيعية، وإنما المعرفة

من تأثير العواطف على أحكام العقل غير ممكن.

يأق الغضب والاثام والدفاع عن النفس، يظل مظنة للكذب

رائع والمألوف، ويدخل في حيِّز الغريب والمستهجَن - يستحق منا  
مل.

على الانغماس في علم محدد؛ وإنما يسعى إلى توسيع مداركه  
ل توسيع دائرة اطلاعه.

ح بصياغة المفاهيم ولمَّ شمل الأفكار المبعثرة، كما يفرح أب  
تتماع شمل أسرته بعد طول شتات!

من صلابة الرؤية وقوة المنهج على مقدار ما يكتشف، ويعقل من  
- في الخلق.

نس تلك التي سنجدها في غير مظانها، وهذا ما يعيه المفكر بعمق.

ال؛ نشعر دائماً بنوع من العَوَز إليه.

للمعلومات، ونسأل ونستشير.. ليس من أجل اتخاذ قرار صائب،  
بل على أفضل قرار ممكن.

بيعة غامضة؛ وهو يشبه أن يكون مثل معرفة الإنسان بشيء دون  
فهمه.

لسف وفهم طبائع الأشياء: سد الفجوات المعرفية، والتعويض عن

رأى يعني أن تخاطر، ومهما كانت النتائج؛ فإن ذلك أفضل من  
ومن غير مخاطرة.

هي الحياة التي نعطي فيها للحياة العامة، ونأخذ منها بما يُصلحنا،

على كراهية الغموض والتضايق من المكوث في منطقة (اللاقرار).  
سمة شخص ما، الدفاع عن سياسات بلد أو فئة، فإن لك أن تتوقع  
طأ والصدق بالكذب.

الحقيقة حادة وصارخة أو صادمة، فإن كثيراً من الناس لا يعبرون  
ودقيق من باب المجاملة أو المداراة.

قول الحق، فاسكت، ولا تقل الباطل مع التذكر بأن السكوت  
مع ظاهرة عامة؛ فإن ذلك يسبب أضراراً فادحة للمصالح العليا

يضيّع الناس فيها الممكن طلباً للمستحيل.

برّة على أنه ليس هناك علاقة طردية بين صحة الشيء وانتشاره.  
من تأثير هالات المشهورين في الحكمة العظيمة القائلة: « اعرف  
عرف الحق بالرجال ».

يحاول حماية نفسه من شرور الشهرة، ويحاول حمل كل  
فيه على محمل الجد.

ة للذات، والنظرة الجائرة للآخرين ربما كانت السبب وراء الكثير  
يخ.

وتكوين انطباعات جامدة عنهم، ركيزة من ركائز ثقافة التحيز.  
العقل من التفكير، ويمكنه من تجهيز الأحكام وتعليقها، والبناء  
يذكر.

سان إنساناً إلا إذا كانت له أشواق وتطلعات تتجاوز مصالحه

ضائل المتحمسين للدفاع عن بعض الأفكار والمبادئ.... إلا إذا  
ليس له رسالة، ولا يهتم بأي شيء سوى منفعه الخاصة.

دد نقاء الدور النضالي لكثير من الناس، هو ذم المنافسين والمخالفين

لأفكار وهواؤها، وحين لا تجد الفكرة من ينتقدها؛ فإنها تتعرض

ما إلى الخرافات والاساطير على أنها وسائل مثالية لبلوغ ذلك.  
الذي يتمتع بتفكير منطقي عالٍ أن يعصم ذهنه من الخرافة إذا  
جيداً من العلم.

لأبنائه ما يحميهم من التفكير الخرافي؛ لكن حين يشيع الجهل  
وتصبح مشكلتهم الأساسية سوء فهم الإسلام.  
الخرافة كلما زادت درجة الجهل والقهر والعجز.

هام، والتقولات، والادعاءات بعالمية العلم؛ حيث لا يكون العلم  
عالمياً؛ أي متداولاً وقابلاً للشرح والفحص.

مع سطوة كبيرة، ودور مؤثر في رسم ملامح شخصية الطفل

بشأن حمل همٍّ أمر من الأمور، وبين التفكير الجاد فيه.  
حد عن الأمور التي أخطأ فيها؛ وذلك لأن مجتمعاتنا لم تتعود  
فضيلة التعبير عن القصور.

طرح الآراء ممدوحة، لكن مع التزود بالقدر الكافي من الذخيرة

ينظر إلى رؤيته للحياة والأحياء على أنها مشروع تحت التأسيس،  
ي أنه ما زال يتلمّس ملامح طريق طويل.

إنسان في ظروف جيدة، ولا يعاني من ظلم وعسف؛ فإن وعيه

ت على نحو مبالغ فيه قد يدفع بأصحابه إلى التحلل الأخلاقي.

س ألواناً جديدة من المتعة؛ فإنهم يعمدون إلى إعادة ترتيب

تعالى - في هذا الكون أن تظل أجزاء منه ملفوفة بالغموض والإعتام.  
المفاهيم أن تُحصَر في حيز ضيق، وتتلَهف أن تكون في فضاء  
لقها.

فهم أسباب ما يقع من جرائم؛ هو تطوير لأفكارنا حول واقع  
المختلفة.

ي - العباد على طبائع وتطلعات وحاجات واستجابات موحدة  
ومتباينة على مستوى الجزئيات والتفاصيل.

في سُلَم الحضارة زاد خضوعهم لل رغبات، ونما لديهم الوعي التصالحي.  
كلما استطاع الخروج من دائرة اهتماماته الشخصية والانغماس  
ومصالحها.

ن تلخص فعلاً رؤيته للحياة، وترجم مشاعره على نحو دقيق وجميل.  
خل حيز التنفيذ إلا تعرضت لشيء من التعديل بسبب تفاعلها  
واحتكاكها بالواقع.

ي هو أفضل وسيلة مجانية متاحة لتطوير الأفكار.  
ة للذات تحرض الدماغ على بذل جهود استثنائية.



١٣٧٥هـ/١٩٥٥م)، وأندكتوراه في عام: (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) من قسم  
نفسها بجامعة الأزهر، وكان عنوان رسالة الدكتوراه: « الأصوات واللهجات

م بكار مسيرة أكاديمية طويلة، دامت ( ٢٦ عامًا ) بدأت عام: ( ١٣٩٦هـ/  
الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم ( السعودية )، لينتقل بعدها إلى  
أبها في عام: ( ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م )، حصل خلالها على درجة الأستاذية  
١٩٩٢م ) وليبقى فيها حتى استقال منها عام: ( ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م )؛  
ل الثقافي والفكري، حيث يقيم في العاصمة السعودية الرياض.

الأكاديمية للدكتور بكار على تدريس اللغويات، والتي شملت مواد المعاجم  
، الأصوات اللغوية، اللهجات العربية، القراءات القرآنية واللهجات، النحو،  
حوية وتاريخ النحو. كما قدم د. بكار خلال تلك الفترة عددًا من الأبحاث  
والتعليمية في مجال اللغويات، وأسهم في النشاط الأكاديمي للجامعات التي  
رأسته لعدد كبير من اللجان العلمية، ورأسته لقسم النحو والصرف وفقه اللغة  
سمته في وضع المناهج، والإشراف على البحوث، وتحكيم الدراسات العلمية.  
شاطر مكثف على صعيد المحاضرات، والندوات الفكرية والثقافية والدورات  
المئات منها في المملكة العربية السعودية والكويت وقطر والبحرين وتركيا  
، وماليزيا والسودان. كما يقدم حاليًا برنامجًا أسبوعيًا في قناة دليل الإسلامية  
ية»، وبرنامجًا شهريًا بقناة المجد باسم: « معالي »، وكان د. بكار قد قدم  
وعيًا في قناة المجد باسم: « دروب النهضة » لمدة عامين، وبرنامجًا إذاعيًا  
العقل في القرآن الكريم »، وبرنامجًا إذاعيًا أسبوعيًا آخر باسم: ( العلاقات  
الإسلامي ) استمر لمدة سنتين بإذاعة القرآن الكريم بالرياض، بالإضافة  
عديدة على قناة الرسالة، وقناة اقرأ، وقناة الناس والتلفزيون السعودي.

يل، وعضو في مجلس الأمناء لقناة سنا الفضائية ( عمان ).

المؤلفين البارزين في مجالات التربية والفكر الإسلامي؛ حيث يسعى إلى جدد لمختلف القضايا ذات العلاقة بالحضارة الإسلامية، وقضايا النهضة الدعوي.

لي ثلاثين كتابًا في هذا المجال؛ لقي الكثير منها رواجًا واسعًا في مختلف قدم د. بكار للمكتبة الصوتية أكثر من مائة ساعة صوتية مسجلة ومنشورة الصوتية.

كتب والدراسات الأكاديمية المتخصصة:

القراءات ومذاهب النحويين فيها حتى نهاية القرن الرابع الهجري، بحث (١٩٨٤م).

شيخ قراء بغداد، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بالقصيم،

« القواعد والإشارات في أصول القراءات »، للقاضي أحمد بن عمر شق (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

قواعد الإعرابية، دار القلم، دمشق، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

رد الانتقاد على الشافعي في اللغة » للإمام البيهقي، دار البخاري، بريدة،

سبع في تطور التفكير اللغوي، دار القلم، دمشق، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

وجه في كتابه الموضح، دار القلم، دمشق، (١٤١١هـ/١٩٩١م).

س علوم العربية، دار السوادي، جدة، (١٤١١هـ/١٩٩١م).

التنمية المتكاملة، دار المسلم، الرياض، ( ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ).

ية، دار هجر، أبها، ( ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ).

باب جديد، بحث منشور في وقائع المؤتمر السنوي للندوة العالمية للشباب  
( ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م ).

والتعليم، دار المسلم، الرياض، ( ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م ).

الأعلام، عمان، ( ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م ).

مرة، دار القلم، دمشق، ( ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م ).

الزمان الصعب، دار القلم، دمشق، ( ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م ).

مرة، دار السلام، القاهرة، ( ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م ).

عشر، دار السلام، القاهرة، ( ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م ).

لأسري، دار السلام، القاهرة، ( ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م ).

، دار السلام، القاهرة، ( ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م ).

\*\*\*

رقم الإيداع

٢٠١٠ / ٨٥٣٠

الترقيم الدولي I.S.B.N

978-977-342-877-8



أرسة التفكير وفي تنمية الحس النقدي... فإنه يصبح  
هذا بالطبع غير صحيح، لكن الذي جعلني أتجاوز التردد  
في هذا العمل، هو الاتصالات التي تأتيني من كثير من  
بين يرغبون في الولوج في عالم الفكر والتفكير والمفكرين،  
بجاذبية ما تدل عليه هذه الألفاظ في هذه الأيام، وقد  
ما أملك من جهد في سبيل جعل أسلوب الكتاب سهلاً  
سنتفع به أكبر شريحة ممكنة من القراء الأفاضل، لكن  
الج موضوعاً معقداً، فلا بد لي من أن يكون ما أحققه  
حياتاً مخيباً للأمل؛ إنني قانع بتعبيد طريق ضيق في قلب  
رمال المتحركة، وإضاءة بعض الزوايا المتحركة، وقانع  
الحجارة من طريق شديدة الوعورة سائلاً المولى ﷻ أن  
هذا العمل، وينفع به؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

DarAlSalam Press

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والتجليد

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الفورية

هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٢٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (+٢٠٢)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٢٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٢٢٢٠٤ (+٢٠٢)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com





[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)